3

سلسلة

مَوَازِينَ القِـرآن

قراءة قرآنية تعيد وزن الأشياء

اعَلمُوا أَنمَا الحَيَاة الدُّنيَا

كيف تنتفع بها من غير أن تستعبدك

مركز الدراسات والبحوث
جامعة ابن كثير الدولية

اعلموا أنما الحياة الدنيا

سلسلة موازين القرآن

اعلموا أنما الحياة الدنيا

كيف تنتفع بها من غير أن تستعبدك؟

سلسلة موازين القرآن – الكتاب الخامس

مركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية

بيانات النشر والحقوق

إصدار: مركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية

السلسلة: موازين القرآن

اسم الكتاب: اعلموا أنما الحياة الدنيا – كيف تنتفع بها من غير أن تستعبدك؟

رقم الكتاب في السلسلة: الخامس

مركز الدراسات والبحوث

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروعات مركز الدراسات والبحوث في جامعة ابن كثير الدولية، في إطار عنايته بالبحث والتأليف الشرعي، وبالمشروعات التي تصل هداية الوحي بأسئلة الإنسان الكبرى، وتقرّب أثر العلم من القلب والتصور والسلوك. وينطلق المركز في هذا المسار من أن النصوص الشرعية لا تُطلب لمجرد زيادة المعرفة، بل لتبني رؤيةً صحيحة، وتصحح الموازين، وتهدي الإنسان في علاقته بربه ونفسه والحياة من حوله.

ومن هنا تأتي العناية بالاستقراء، ودقة الفهم، وحسن البناء، وربط المعنى بالواقع من غير أن يتحول الوحي إلى شاهد تابع لفكرة سابقة، ولا أن يطغى التحليل البشري على دلالة النص وسلطانه.

سلسلة موازين القرآن

من هذه العناية جاءت سلسلة «موازين القرآن»: مشروع تأليفي يتتبع موضوعات كبرى كما يبنيها القرآن، ويستنير بالسنة في بيانها وتجسيدها وإتمام مشهدها، ثم يحاول أن يحول ما تكشفه النصوص إلى موازين يرى بها القارئ ربه ونفسه والحياة والناس والنجاح والخسارة، لا إلى معلومات متجاورة فحسب.

ولهذا لا تبدأ السلسلة بفكرة مكتملة ثم تستدعي الآيات والأحاديث لتزيينها، بل تحاول أن تبدأ من الوحي نفسه: تستقرئ نصوصه، وتراعي سياقاتها، وتجمع مشاهدها ومعانيها، ثم تسأل: ما الميزان الذي يبنيه الوحي في القلب؟ وكيف تتغير رؤية الإنسان وعبادته وقراراته إذا صار هذا الميزان حاضرًا فيه؟ فالقرآن هو الأصل الحاكم في بناء الرؤية، والسنة وحي مبين تأتي شارحة ومجسدة ومؤسسة للمعنى بحسب موضعها، ويظل التحليل والتأمل وربط النص بالنفس والواقع خادمًا لهذا الأصل، لا متقدمًا عليه.

والميزان في هذه السلسلة ليس شعارًا ذهنيًا؛ بل طريقة في النظر والعيش. قد يعرف الإنسان أن الآخرة خير وأبقى ثم يزن أكثر قراراته بالعاجل، ويعلم أن الرزق بيد الله ثم يعيش كأن الأسباب تملك مستقبله. لذلك تحاول كتب السلسلة أن تنقل القارئ من معرفة النص إلى رؤية الأشياء به، ومن فهم المعنى إلى معايشته، حتى يغلق الكتاب وفي قلبه ميزان يعود إليه بعد القراءة في خوفه ورجائه، وفي نعمته وبلائه، وفي اختياراته وعلاقاته وطريقه إلى الله.

هذا الكتاب

موضوع هذا الكتاب قريب من الإنسان إلى درجة قد تحجب عنه حقيقته: الحياة الدنيا. فنحن لا ننظر إليها من خارجها؛ نولد فيها، وننشأ وسط زينتها، ونحب أهلها، ونطلب رزقها، ونبني فيها بيوتنا وأعمالنا وأحلامنا. وهي ليست شرًا يجب الفرار منه؛ فقد جعل الله فيها الطيبات، وأمر بالسعي، وأوجب الحقوق، وأقام عباده فيها ليعملوا ويعمروا ويحسنوا.

لكن القرآن يسميها متاعًا وزينة وفتنة، ويحذر من غرورها والتكاثر فيها وإيثارها على الآخرة. ومن هنا يأتي سؤال الكتاب: كيف تنتفع بالدنيا من غير أن تستعبدك؟ كيف تملك المال من غير أن يصبح مقياس أمنك وقيمتك؟ وكيف تحب أهلك من غير أن يدفعك الخوف عليهم إلى تجاوز أمر الله؟ وكيف تسعى وتخطط وتنجح من غير أن تتحول الأسباب إلى موضع التوكل، والإنجاز إلى تعريف للذات، والمزيد إلى سباق لا يعرف القلب فيه موضع الكفاية؟

لذلك لا يسير الكتاب في طريق ازدراء الدنيا، بل في طريق إعادتها إلى موضعها. يبدأ من حقيقتها وقصرها، ثم يكشف زينتها وطرائق فتنتها، ويتتبع اللحظة التي ينافس فيها العاجل الآخرة، وينظر في المال والرزق، ثم يقف مع نماذج قرآنية تكشف ما تصنعه الدنيا بالقلوب، قبل أن ينتقل إلى السؤال العملي: كيف يعيش المؤمن في الدنيا؟ وتنتهي الرحلة عند الموت والآخرة؛ حيث تنكشف أحجام الأشياء كلها. فالغاية أن تنتفع بالنعمة ولا تعبدها، وتسعى ولا يستعبدك سعيك، وتملك ولا يملكك ما في يدك، وتعبر الطريق وقلبك يعرف أي الأشياء طريق، وأيها غاية.

محتويات الكتاب

مقدمة 5
المحور الأول: حقيقة الحياة الدنيا 9
مقدمة المحور 9
الوحدة الأولى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ 10
الوحدة الثانية: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ — العمر الذي ينفد 14
الوحدة الثالثة: «ما لي وللدنيا؟» — طريق لا وطن 19
المحور الثاني: زينة الدنيا وفتنتها 25
مقدمة المحور 25
الوحدة الرابعة: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ 27
الوحدة الخامسة: الأهل والولد — زينة وفتنة 31
الوحدة السادسة: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ — لماذا لا تقول النفس: كفى؟ 36
الوحدة السابعة: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا» 41
المحور الثالث: حين تنافس الدنيا الآخرة 46
مقدمة المحور: حين يصبح المحبوب حاكمًا 46
الوحدة الثامنة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ 46
الوحدة التاسعة: «مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ» — خطر الوفرة والتنافس 51
المحور الرابع: المال والرزق 56
مقدمة المحور: حين يعود المال إلى موضعه 56
الوحدة العاشرة: الرزق بيد الله 57
الوحدة الحادية عشرة: «نِعْمَ المال الصالح للمرء الصالح» 61
الوحدة الثانية عشرة: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ — السعي الذي لا يستعبد 66
المحور الخامس: وجوه الدنيا في قصص القرآن 71
مقدمة المحور: من ملكتهم الدنيا ومن ملكوها فلم تملكهم 71
الوحدة الثالثة عشرة: قارون — حين ينسب الإنسان النعمة إلى نفسه 72
الوحدة الرابعة عشرة: صاحب الجنتين — وهم البقاء 77
الوحدة الخامسة عشرة: أصحاب الجنة — حين ينسى المالك حق الآخرين 81
الوحدة السادسة عشرة: سليمان وذو القرنين — القوة التي لم تملك أصحابها 86
المحور السادس: كيف يعيش المؤمن في الدنيا؟ 91
مقدمة المحور: زاهد القلب قوي العمل 91
الوحدة السابعة عشرة: الزهد الذي لا يعطل الحياة 92
الوحدة الثامنة عشرة: «ولكن الغنى غنى النفس» 97
الوحدة التاسعة عشرة: من المال إلى النفع 102
الوحدة العشرون: إذا تعارضت الدنيا مع الله 107
المحور السابع: الموت والآخرة — الحقيقة التي تكشف الدنيا 113
مقدمة المحور: حين تُرى الدنيا من نهايتها 113
الوحدة الحادية والعشرون: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ 114
الوحدة الثانية والعشرون: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» 118
الوحدة الثالثة والعشرون: ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ 122
الملحق الأول: المحكّات التشخيصية الثلاثة والعشرون 128
الملحق الثاني: خريطة الكتاب — كل وحدة بسؤالها المركزي 132

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملًا، وجعل ما على الأرض زينةً لها ليختبر القلوب فيما تحب وتطلب، وبسط لعباده من الرزق، وفاوت بينهم في العطاء، ثم جعل المصير إليه والحساب بين يديه. والصلاة والسلام على نبينا محمد، الذي كان أعرف الخلق بحقيقة الدنيا، فجمع بين زهد القلب وقوة العمل، وبين تمام الافتقار إلى الله وعظيم الإحسان إلى الناس، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدنيا أقرب الأشياء إلى الإنسان، ولذلك قد تكون من أصعبها رؤيةً على حقيقتها. يولد فيها، ويفتح عينيه على زينتها، ويتعلم منذ صغره أن يقيس تقدمه بما ناله منها: نجاح يحققه، ومال يجمعه، وبيت يسكنه، وأسرة يبنيها، ومكانة يعرفه الناس بها. وتمضي به الحياة وهو يسعى إلى موضع يظن أنه سيشعر عنده بالأمان والكفاية، ثم يكتشف أن الطريق ما زال ممتدًّا، وأن النفس تستطيع أن تفتح بعد كل غاية بابًا جديدًا.

لا تكمن المشكلة في أن الإنسان يعمل أو يخطط أو يطلب سعة العيش. هذه حاجات فطرية ومصالح معتبرة، وقد أمر الله بالسعي، وأباح الطيبات، وجعل المال قيامًا للناس، وحمّل الإنسان مسؤولية أهله ومن تحت يده. إنما يبدأ الخلل حين يطلب القلب من الدنيا ما لا تستطيع أن تمنحه: أمانًا لا يتغير، وقيمة لا تنقص، وضمانًا للغد، وحياة تخلو من الفقد والاضطراب.

ولهذا جاء النداء القرآني جامعًا بين تقرير الوعد وكشف الغرور: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: 5]. يبدأ التصحيح من وعد الله؛ لأن من غاب عنه الوعد الحق سهل أن تسوقه وعود الدنيا. تعده بالطمأنينة إذا جمع، وبالكرامة إذا ظهر، وبالنجاة إذا امتلك من الأسباب ما يكفي، ثم يبقى قلقه قائمًا؛ لأن الموجود مهما اتسع لا يملك أن يحمي نفسه ولا صاحبه من التحول.

وليس غرور الدنيا في كونها جميلة أو نافعة؛ فجمالها من خلق الله، ومنافعها من رزقه، ومحبة الأهل والولد والراحة والنجاح مركوزة في النفوس. يظهر الغرور حين ينتقل الشيء من موضع النعمة إلى موضع القيادة، وحين لا يعود مجرد جزء من الحياة، بل يصبح الميزان الذي يعرّف الإنسان به نفسه، ويقرأ به منزلته عند الله، ويقرر من أجله ما يقبل وما يرفض.

وقد يظن بعض الناس أن النجاة من الدنيا تكون في قلة المال، أو ضعف الطموح، أو الانسحاب من السوق ومواقع التأثير، أو العيش في هيئة واحدة يسمونها الزهد. لكن الدنيا تستطيع أن تسكن قلب المحروم كما تسكن قلب المالك، وأن تستعبد من فقد كما تستعبد من أُعطي. وقد تتسع يد إنسان بالمال والقدرة، ويبقى قلبه عارفًا بربه، شاكرًا لنعمته، قائمًا بحقوقها، قادرًا على تركها حين تعارض أمر الله.

فالسؤال الذي يعالجه هذا الكتاب أعمق من سؤال الملك والحرمان: كيف يرى المؤمن الدنيا؟ وأين تستقر منه؟ وماذا تفعل النعمة والخسارة والمقارنة والخوف بحركة قلبه؟ وكيف يعمل ويسعى وينتفع، من غير أن يمنح ما في يده حق تقرير قيمته أو توجيه مصيره؟ وكيف يعرف أن الدنيا قد تجاوزت موضعها، حتى لو بقيت أفعاله الظاهرة مباحة في أصلها؟

إن كثيرًا من علاقة الإنسان بالدنيا يجري في مواضع لا يلتفت إليها. قد يعمل من أجل أهله، ثم تبتلع رحلة العمل حضوره بينهم. وقد يسعى إلى المال طلبًا للاستقلال، ثم يصير المال نفسه مصدر خوف دائم. وقد يبدأ

تحسين حياته من حاجة معتبرة، ثم يجد نفسه داخل سباق لا يعرف متى دخله ولا أين ينتهي. وقد يؤجل عبادة أو صلة أو حقًّا إلى وقت أهدأ، بينما تمر السنوات ولا يأتي الوقت الذي تخلو فيه الحياة من الشواغل.

وللدنيا قدرة على تغيير أسماء الأشياء في النفس. قد يسمى الحرص مسؤولية، والتوسع حاجة، والمقارنة طموحًا، والتعلق وفاءً، والخوف حكمة، والتنازل عن الحق مراعاةً للواقع. ولا يكفي أن يعرف الإنسان الأحكام العامة ما لم يتعلم كيف يكتشف حركة قلبه حين تتخفى خلف أسماء مقبولة، وكيف يعرض اختياراته على ميزان أصدق من رغبته وخوفه.

من هنا ينطلق الكتاب من القرآن والسنة؛ فالوحي لا يكتفي بوصف الدنيا بأنها قصيرة وزائلة، وإنما يكشف وجوه فتنتها، ويعرض حركة النفس أمام المال والزينة والخوف، ويقص أخبار أناس امتلكوا أو حُرموا، فظهر بما في أيديهم ما في قلوبهم. وهو الذي يبين كيف يجتمع الانتفاع بالطيبات مع الزهد، والسعي مع التوكل، والقوة مع الافتقار، ومحبة الناس مع تقديم أمر الله.

ولا تُستدعى نصوص الوحي في هذه الصفحات لتزيين أفكار اكتملت قبلها، بل لتنشئ الرؤية وتحكمها. فالقرآن هو الذي يسمي الدنيا متاعًا وزينةً وفتنة، وهو الذي يكشف التكاثر وإيثار العاجلة، ويرد الرزق إلى الله، ويعرض قارون وصاحب الجنتين وأصحاب الجنة وسليمان وذا القرنين، ثم ينقل الإنسان من ظاهر الملك إلى حقيقة القلب والمصير. والسنة تبني إلى جانب ذلك طريقة العيش اليومية: كيف يملك المرء، وينفق، ويتخفف، ويستغني، ويعمل، ويستعد للرحيل.

وتبدأ رحلة الكتاب بالسؤال عن حقيقة هذه الدار: ماذا يعني أن تكون الحياة الدنيا قصيرة متحولة، وأنها ليست دار الجزاء الكامل ولا الوطن الأخير؟ وكيف يتغير نظر الإنسان إلى الفوز والخسارة حين يعلم أن أحكام الدنيا على الناس ليست هي الأحكام النهائية؟

ثم يقترب الكتاب من زينة الدنيا: لماذا جعلها الله محبوبة؟ وكيف تعمل فتنة المال والأهل والولد والمكانة والتكاثر في القلب؟ ومتى يبقى الشيء نعمة ينتفع بها الإنسان، ومتى يبدأ في تشكيل رؤيته لنفسه والناس من حوله؟

ومن الزينة ينتقل إلى المنافسة بين الدنيا والآخرة: لماذا يغلب الحاضر مع أن المؤمن يصدق بالآخرة؟ وكيف تدخل المصلحة القريبة في فهم الإنسان للأوامر ووزنه للاختيارات؟ وماذا يحدث حين لا يبقى الإيمان فكرة مطمئنة، بل يصير قرارًا له كلفة؟

ثم يأتي باب الرزق والمال: كيف يأخذ المؤمن بالأسباب بقوة، ويبقى قلبه متعلقًا بمسببها؟ وكيف يفهم البسط والتقدير؟ وما الفرق بين المال الذي يقوم بوظيفته في الحياة، والمال الذي يتحول إلى ميزان للكرامة ومصدر للأمان؟ وكيف يملك الإنسان ما في يده من غير أن تملكه يده وقلبه؟

وبعد ذلك يقف الكتاب مع نماذج القرآن الحية: ماذا فعل المال بقارون؟ وكيف قرأ صاحب الجنتين دوام نعمته؟ وماذا كشف قرار أصحاب الجنة حين أرادوا الانفراد بالثمر؟ وكيف حمل سليمان وذو القرنين القوة والملك من غير أن يتحولا بهما إلى استغناء عن الله أو علو على الناس؟

ثم يصل إلى السؤال العملي الذي تمهد له المحاور السابقة: كيف يعيش المؤمن في الدنيا؟ ما الزهد الذي يحرر القلب ولا يعطل العمل؟ وما غنى النفس الذي لا يقتل الطموح؟ وكيف ينتقل المال من مجرد حيازة إلى

حق ونفع؟ وكيف يتصرف المؤمن عندما تظهر لحظة لا يستطيع فيها الجمع بين مصلحة يحبها وطاعة يعرفها؟

وتنتهي الرحلة عند الحقيقة التي تكشف الدنيا من آخرها: الموت والآخرة. ماذا يبقى من الأشياء التي شغلت القلب؟ وكيف يعيش من يعلم أنه عابر من غير أن يهمل الطريق أو يضيع مسؤولياته؟ وما الذي يستطيع الإنسان أن يحوله، قبل أن يغادر، من متاع يفنى إلى عمل يجده عند الله؟

هذا الترتيب بناء متدرج، لا مجرد تصنيف لموضوعات متجاورة. ومع ذلك يستطيع القارئ أن يجد في كل وحدة بابًا من أبواب نفسه: خوفًا يعرفه، أو نعمة اعتادها، أو قرارًا يؤجله، أو مقارنة تستهلكه، أو مالًا لا يعرف على وجه الدقة ماذا يصنع بقلبه وبمن حوله. وقد يجد موقفًا مضى به ولم يفهمه يومئذ، ثم يراه هنا من زاوية أخرى.

لذلك لا يراد من الأسئلة والمحكات الواقعية أن تمنح القارئ لحظة تأثر ثم تمضي. المقصود أن يقف عندها، وأن يسمي الأشياء في حياته بأسمائها: ما الذي يملكه، وما الذي يملكه منه؟ ما الذي يسعى إليه لأنه نافع، وما الذي يسعى إليه كي يثبت مكانه؟ ما الخسارة التي يخافها حتى تكاد تغير ميزانه؟ وما النعمة التي يستطيع أن يجعلها بابًا إلى الله بدل أن تصبح حجابًا عنه؟

ولا ينبغي أن يقرأ الإنسان قصص القرآن وهو يبحث عن قارون في أصحاب الثروات، وصاحب الجنتين في المغترين، وأصحاب الجنة في المؤسسات الظالمة، ثم يعود إلى نفسه سالمًا من السؤال. قد يكون نصيبه من قارون في جملة ينسب بها النجاح إلى علمه وحده، ومن صاحب الجنتين في خطة يبنيها كأن الزوال غير داخل فيها، ومن أصحاب الجنة في حق صغير يمنعه لأن صاحبه لا يقدر على المطالبة به.

وقد يجد في نفسه، في المقابل، شيئًا من سليمان حين يرد الفضل إلى الله، ومن ذي القرنين حين يجعل القوة عملًا ورحمة، ومن المؤمن الذي ينتفع بالنعمة من غير أن يستعلي بها أو يعبد بقاءها. فغاية المحاسبة أن تحفظ الخير كما تكشف الخلل، وأن يعرف الإنسان ما ينبغي أن يتوب منه، وما ينبغي أن يشكر الله عليه ويقويه.

وربما كانت بعض أسئلة هذا الكتاب ثقيلة؛ لأنها تقترب من مواضع لا يحب الإنسان أن يراجعها: سبب حرصه الحقيقي، وما الذي يعنيه له انخفاض الدخل أو المكانة، وكم أخذت صورته أمام الناس من عمره وماله، وأي أمر من أوامر الله صار يبحث له عن استثناء كلما ارتفعت كلفته. غير أن ما ينكشف في زمن الاختيار يمكن إصلاحه، وما يبقى مستورًا حتى تنقضي الفرصة يتحول إلى ندم.

وما دام في العمر بقية فباب المراجعة مفتوح. يستطيع الإنسان أن يعيد شيئًا إلى موضعه، ويرد حقًّا، ويصل علاقة، ويضبط عادة، ويخفف خوفًا، ويغير طريق كسب، ويحول جزءًا من ماله ووقته إلى أثر ينفعه وينفع غيره. ولا يشترط أن يبدأ بانقلاب واسع؛ قد تبدأ حرية القلب من قرار صغير صدق فيه العبد مع الله، ثم امتد أثره في بقية حياته.

اقرأ هذا الكتاب وأنت تسأل عن دنياك أنت: ما الذي وعدتك به فصدقته؟ ما الذي تخاف فقده أكثر مما ينبغي؟ ما النعمة التي تستعملها، وما النعمة التي بدأت تستعملك؟ أين ينتهي السعي المشروع في حياتك ويبدأ الاستعباد؟ وماذا سيبقى من الأشياء التي تملأ يومك إذا أُعيدت فجأة إلى أحجامها أمام الموت والآخرة؟

ليست الغاية أن يخرج الإنسان من الدنيا قبل أن يخرج منها، ولا أن يطفئ قلبه عن جمالها ومحبته لمن فيها. الغاية أن يعيشها في موضعها الصحيح: رزقًا لا رازقًا، ونعمة لا إلهًا، وأمانة لا ملكًا مطلقًا، وطريقًا لا وطنًا أخيرًا. يعمل فيها، ويحسن، وينتفع بطيباتها، ويحب أهله، ويبني وينفع، ثم يبقى قلبه عارفًا بمن أعطى، ولماذا أعطى، وإلى أين تمضي النعمة وصاحبها.

وهنا تبدأ الرحلة.

المحور الأول: حقيقة الحياة الدنيا

مقدمة المحور

يدخل الإنسان الدنيا قبل أن يتعلم كيف ينظر إليها. أول ما يعرفه بيت يأويه، ووجوه يحبها، وحاجات يطلبها؛ ثم تكبر معه دائرة ما يرجوه ويخاف عليه. وبطول الألفة تبدو الحياة التي اعتادها كأنها الصورة الوحيدة الممكنة للوجود، فيرتب آماله ويقيس نجاحه ويمنح الأشياء أوزانها، قبل أن يتوقف يومًا ويسأل: ما حقيقة الدار التي يجري فيها هذا كله؟

هذا السؤال يسبق كثيرًا من الأسئلة التي تملأ أيام الناس. قبل أن يسأل المرء كيف ينجح، يحتاج أن يعرف ما الذي تقدر الدنيا على منحه، وما الذي لا تملكه أصلًا. وقبل أن يطارد الاستقرار الكامل، عليه أن يدرك مقدار الاستقرار الممكن في عالم يقوم على التغير. فالخطأ في فهم الدار لا يبقى فكرة في الذهن؛ يتسرب إلى الخوف والرجاء والاختيار والرضا.

وتولى الوحي تعريف هذه الحياة؛ لأن شدة قربها تحجب حقيقتها أحيانًا. يرى الإنسان الشيء في ساعة ازدهاره، ولا يرى الحركة الهادئة التي تمضي به إلى الزوال. ويعرف أن العمر ينتهي، لكن أيامًا كثيرة تمر قبل أن تدخل هذه المعرفة في اختياراته، فتغير ما يستحق أن ينفق فيه قلبه ووقته.

يقول الله تعالى:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185].

يضع هذا التعريف الدنيا في مرتبتها: متاع ينتفع به الإنسان، وقد يتحول إلى غرور حين يُمنح ما لا يملكه من بقاء أو ضمان. ومن هنا يبدأ تصحيح الرؤية؛ فالإنسان لا يحتاج إلى إنكار منافع الدنيا، وإنما إلى معرفة حدودها حتى لا يحكم الحاضرُ المآلَ، ولا تأخذ الوسيلة منزلة الغاية.

لا يريد هذا المحور أن يقنع القارئ بأن الدنيا خالية من الجمال أو المنفعة. فالقرآن الذي كشف فناءها سمى بعض ما فيها زينة، والسنة التي بنت معنى الغربة أبقت المؤمن في موضع العمل والتكليف. تسير وحداته من تعريف الدار إلى قيمة العمر ثم صفة العابر؛ حتى نرى الخضرة وما تصير إليه، والمتاع وحدوده، والفرصة التي تفتحها الحياة للعبودية قبل انقضاء مدتها.

قد يبقى القارئ بعد هذا المحور في واقعه نفسه، لكن معنى الأشياء في قلبه ينبغي أن يتغير: يعرف قدرها فلا يرفعها فوق منزلتها، ويستعملها ولا يسلمها قيادة قلبه، ويعيش حاضرًا مسؤولًا مع بقاء وجهته أمامه.

ما هذه الدنيا التي نعيش فيها، وما الذي يتغير في القلب والحياة حين نراها كما يراها الوحي؟

الوحدة الأولى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾

ينزل المطر على أرض كانت يابسة، فتتحرك فيها حياة لم تكن العين تراها. تخرج الخضرة بعد الجدب، ويعلو الزرع شيئًا فشيئًا حتى يقف الناظر أمام حقل مكتمل الجمال. في تلك اللحظة يبدو المشهد ثابتًا، لكن من يعرف دورة النبات يرى ما وراء اللحظة: هذا الاخضرار نفسه يمضي إلى الاصفرار، والنبات حين يبلغ تمامه يكون قد اقترب من طوره التالي.

بهذا المشهد يعلّمنا القرآن أن ننظر إلى الحياة الدنيا، ويضع تعريفه الجامع في آية تجمع صورتها الظاهرة ومسارها ونهايتها ومآل أهلها:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: 20].

تبدأ الآية بأمر: ﴿اعْلَمُوا﴾. ليست الحقيقة هنا عبارة وعظية تضاف إلى ما يعرفه الناس عن الموت؛ إنها معرفة يراد لها أن تعيد ترتيب الحياة. فالإنسان يعامل الأشياء بحسب حقيقتها المستقرة في قلبه. فإذا أعطى المؤقت وزن الدائم، ورفع الوسيلة إلى منزلة الغاية، ظهر الخلل في خوفه وفرحه وقراراته، ولو ظل لسانه يردد أن الدنيا زائلة.

وترسم الآية دائرة تتسع في النفس والمجتمع: لعب يستهلك الحركة في أمر ينقضي، ولهو يصرف القلب عما هو أولى، وزينة تجذب النظر إلى الظاهر، ثم تفاخر يجعل قيمة الشيء متصلة بنظرة الآخرين، وتكاثر يفتح سباق الزيادة الذي لا يضع لنفسه حدًّا. لا تحرم هذه الأوصاف كل لعب مباح أو زينة أو مال أو ولد؛ فقد جاءت الشريعة بإباحة الطيبات والترويح النافع. إنها تصف الحياة حين تستغرق الإنسان وتصبح دائرتها العاجلة هي الأفق الذي يحكم اهتمامه.

ولا يلزم أن تكون الأوصاف مراحل عمرية جامدة يمر بها كل إنسان بالترتيب نفسه؛ فقد تجتمع في زمن واحد، وقد يشتد بعضها في بيئة دون أخرى. الجامع بينها أنها تشغل القلب بما ينقضي، ثم تنقله من لذة الشيء في ذاته إلى موقعه في أعين الناس وإلى عدد ما حصله. وهكذا تتسع فتنة الدنيا من انشغال فردي عابر إلى نظام للمقارنة والتنافس يصعب على القلب أن يقف عند حد الكفاية فيه.

فاللعب يختلف حكمه بحسب صورته وأثره، وقد يكون راحة مباحة تعين على واجب، لكنه يصير وصفًا للحياة حين تصبح الحركة غاية بلا ثمرة باقية. واللهو قد يكون في شيء مباح من جهة أصله، ثم يأخذ اسم الذم حين يصرف عن حق واجب أو غاية أعلى. والزينة نعمة يرى فيها الإنسان جمال صنع الله، ثم تنقلب فتنة عندما يختصر القيمة في الصورة ويجعل الظاهر حاكمًا على الباطن.

ويكشف ترتيب الألفاظ كيف تتحول المنفعة إلى معنى نفسي واجتماعي. قد يبدأ الشيء من حاجة واضحة، ثم يدخل في صورة صاحبه عن نفسه، وبعد ذلك يصبح علامة يقارن بها موقعه بغيره. عند هذه المرحلة لا يعود الخوف متعلقًا بفقد المنفعة وحدها؛ فقد حمل القلب الشيء معاني تتجاوز وظيفته، وصار وجوده يؤثر في شعور الإنسان بالقيمة والأمان.

ثم تنقل الآية الجاذبية كلها إلى داخل الزمن: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾. وجاء في تفسير ﴿الْكُفَّارَ﴾ أنها تشمل الزراع؛ لأنهم يسترون البذر في الأرض، وقيل: الكفار بالله لشدة إعجابهم بالدنيا. وعلى كلا المعنيين يبقى موضع المثل واضحًا: نبات حقيقي الجمال، بالغ في الإعجاب، لكنه يتحرك منذ ظهوره نحو نهاية لا تمنعها شدة خضرته.

قوة المثل أن الزوال لا ينتظر حتى ينتهي الجمال ثم يبدأ. الجسد تمضي به الأيام وهو في ذروة قوته، والمشروع يبدأ عمره من لحظة اكتماله، والعلاقة التي تملأ القلب تمر عليها السنون منذ يومها الأول. نحن نرى الشيء في حالته الحاضرة، والوحي يرينا مساره كله؛ حتى لا تصبح قوة اللحظة حجابًا عن نهايتها.

وتقترب هذه الحقيقة حين تقع العين على صورة قديمة: مكان كان يملأ اليوم، أو وجوه اجتمعت في مرحلة ظن أصحابها أنها ستطول. لم تكن تلك الأيام وهمًا؛ عاشها الإنسان بفرحها وألمها وقراراتها، ثم صارت صورة وذكرى. هذا الانتقال الصامت من حاضر كامل الحضور إلى ماض بعيد هو ما تكثفه الآية، لتعلم القلب أن يرى النهاية وهو ما يزال داخل البداية.

ولهذا تتكرر صورة الماء والنبات في القرآن مع إضافة معنى جديد في كل موضع. يقول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: 24].

بلغت الأرض زينتها، وظهر جمالها، ثم نشأ في نفوس أهلها شعور بالقدرة عليها: ﴿**وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا**﴾. انتقلت النعمة في شعورهم من شيء تحت سلطان الله إلى واقع يحسبون أنهم أحاطوا به وضَمِنوا استمراره. وهنا يكشف الوحي وهم السيطرة الذي قد ينشأ من انتظام الأسباب، مع أن الإنسان لم يخرج لحظة واحدة من ملك الله وتقديره.

أعطى الله الإنسان قدرة حقيقية، وأمره أن يعمل في حدودها. يزرع ويبني ويتداوى ويتعلم ويخطط ويأخذ بالاحتياط. لكن القدرة الممنوحة لا تعني الإحاطة بالمستقبل، ولا تجعل النتيجة حقًّا مضمونًا لصاحب السبب. يستقيم التوحيد حين يبذل العبد وسعه، ثم يعرف أن بقاء النعمة وتمام الأثر وفتح الغد كلها بيد الله.

والفرق بين الأخذ بالأسباب والركون إليها يظهر في لحظة اضطرابها. من عرفها أسبابًا راجع خطته، وبحث عن باب آخر، ورد قلبه إلى مسببها. ومن منحها معنى الضمان شعر أن العالم خرج من نظامه حين لم تعط النتيجة التي توقعها. وهكذا يصبح مثل النبات درسًا في التوحيد قبل أن يكون درسًا في الفناء: القدرة لله، والعبد مأمور بالعمل داخل قدرته المحدودة.

ويقول الله تعالى في صورة ثالثة:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ۝ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 45-46].

صار النبات الذي كان ناميًا متماسكًا هشيمًا تحمله الرياح، ثم وضعت الآية المال والبنين في مرتبتهما: زينة للحياة الدنيا. حفظت لهما المحبة والمنفعة، وفتحت إلى جوارهما أفق الباقيات الصالحات، لأنها خير ثوابًا وخير أملًا. هكذا يصحح القرآن الميزان، فيبقى للنعمة قدرها وللفطرة حقها، وتظل الباقيات هي موضع الأمل الأعلى.

وتعود آية الحديد بعد صورة الحطام إلى ما هو أبعد من الفناء: ﴿**وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ**﴾. لم يكتف القرآن بأن يقول إن النبات سيصفر وإن الدنيا ستنتهي؛ فقد وضع أمام الإنسان المآلين اللذين ينتهي إليهما عمله. عندئذ تتحول معرفة الزوال من تأمل في طبيعة الحياة إلى موقف من الله: أي طريق يسلك، وأي شيء يطلب، وبأي عمل يريد أن يخرج من المتاع العابر؟

العذاب الشديد والمغفرة والرضوان تجعل قيمة الدنيا في وظيفتها الأخروية. قد يمر إنسانان بالمتاع نفسه، فيتحول عند أحدهما إلى طريق للرضوان بالشكر والطاعة، ويتحول عند الآخر إلى غرور يصرفه عن ربه. ليست القضية أن يزول الشيء فحسب، وإنما ما الذي صنعه وجوده في القلب، وما العمل الذي خرج به صاحبه قبل أن يصير حطامًا.

وجمع الآية بين العذاب والمغفرة والرضوان يرد على صورة ناقصة من الزهد تكتفي بتصغير الدنيا في الحس. المطلوب أرفع من أن يراها الإنسان قليلة ثم يقف؛ عليه أن يتجه إلى الله، ويخاف المآل الذي حذر منه، ويرجو مغفرته ورضوانه. فالمؤمن لا يهرب من الدنيا إلى فراغ، وإنما يعبرها إلى رب كريم وعد وأوعد، وجعل الفوز في رضاه.

وفي اجتماع المغفرة والرضوان معنى يرفع عين المؤمن من مجرد النجاة من الخسارة إلى طلب القرب من الله. قد يترك الإنسان بعض متاع الدنيا لأنه عرف فناءه، لكنه يحتاج إلى غاية تحركه وتملأ قلبه. الوحي لا يبني موقفه على الخوف من الزوال وحده؛ يفتح له رجاء المغفرة والرضوان، فتتحول مجاهدة التعلق إلى سير نحو محبوب أعظم، لا إلى فراغ بارد أو نفور من الحياة.

ومن هنا جاء ختام الآية: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾. المتاع نافع في مدته، والغرور ينشأ حين يظهر للإنسان بأكثر من حقيقته أو يمنحه هو وعدًا لم يُعطَه. لذة الدنيا حقيقية، وألم فقدها حقيقي، لكن الخطأ يقع حين تُقرأ الحقيقة الجزئية كأنها قادرة على منح الطمأنينة الكاملة أو الحكم النهائي على قيمة الإنسان.

قد يبلغ المرء شيئًا انتظره سنوات، فيفرح به وتتغير بسببه جوانب حقيقية من حياته. ثم تمر المدة، ويدخل ما كان حلمًا في تفاصيل اليوم العادي، وتظهر مطالب أخرى. عندئذ يتبين أن النعمة أدت وظيفة حقيقية، لكنها لم تحمل معنى الحياة كله؛ وما بدا في الخيال نهاية للقلق صار جزءًا من حياة ما زالت تحتاج إلى هداية وصبر وشكر.

ولا يطلب هذا الوعي من المؤمن أن يفسد فرحه بتوقع الفقد. معرفة الفناء لا تلغي الفرح؛ تهذبه. يفرح شاكرًا، يعرف الواهب، ويؤدي حق العطية وهي في يده، ولا ينتظر زوالها حتى يدرك قدرها. وإذا وقع الفقد تألم القلب كما تتألم القلوب، لكنه لا يجعل صورة واحدة انقضت تختصر حياته كلها.

وتظهر العبودية العملية في ثلاثة تحولات هادئة: أن ينسب النعمة إلى الله بدل أن يراها استحقاقًا ذاتيًّا، وأن يبادر إلى حقها ما دامت في يده، وأن يترك للمشيئة الإلهية مكانها في خططه. بهذه المعاني يبقى العمل جادًّا، ويخف وهم السيطرة، ويصبح الحاضر ميدان شكر بدل أن يكون حجابًا عن النهاية.

ومن ثمرات هذه الرؤية أن يتغير معنى النجاح والتعثر. النجاح الدنيوي لا يكفي وحده للحكم على الطريق؛ فقد يفتح للعبد باب شكر ونفع، وقد يزيده غفلة واغترارًا. والتعثر لا يعني أن الرحلة ضاعت؛ ربما كشف ضعفًا، أو رد القلب إلى ربه، أو صرفه عن باب كان سيؤذيه. الميزان الأخروي يمنع اللحظة من أن تصدر حكمًا نهائيًّا على الحياة.

كما يتغير التعامل مع الفقد المتوقع. لا يعيش المؤمن منشغلًا بتخيل المصائب، لكنه يعرف أن الأمانة قد تنتقل، فيحسن صحبتها قبل انتقالها، ويقول الكلمة الطيبة ما دام أهلها حاضِرين، ويستعمل قدرته قبل أن تضعف، ويصلح ما يستطيع قبل أن تتغير المرحلة. المعرفة بزوال المتاع ترد الإنسان إلى الوفاء بالحاضر بدل أن تسلبه لذته.

يقول الله تعالى:

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 96].

بهذا الميزان يستعمل المؤمن الفاني في طلب الباقي. ينتفع بما عنده، ويؤدي حق الله فيه، ويصبر حين يثقل التكليف أو يفوته بعض العاجل؛ لأن بصره متعلق بما عند الله. لا تضيق حياته حين تستقر هذه الرؤية، بل تتحرر النعم من المطالب التي لا تقدر عليها، ويتحرر القلب من أن يجعل نجاح مرحلة أو تعثرها حكمًا على الرحلة كلها.

استحضر أمرًا كنت تتطلع إليه قبل نحو عشر سنوات، وشعرت يومها أن بلوغه سيمنح حياتك استقرارًا واسعًا: علاقة، أو شهادة، أو انتقالًا، أو قدرة، أو مشروعًا. فإن حصلت عليه، فانظر إلى المسافة بين الوعد الذي حمله خيالك وما أعطاك إياه فعلًا. وإن لم يحصل، فانظر هل بقي في قلبك بالحجم نفسه الذي كان يشغله يومئذ.

قيمة هذا المحك أنه يعرض للقلب دليلًا من حياته، لا جوابًا نظريًّا عن فناء الدنيا. كم مرة منح الإنسان أمرًا مؤقتًا قدرة أكبر من قدرته، ثم كشف الزمن أن محطة الطريق لم تكن موضع الوصول؟ حين يرى ذلك في قصته الخاصة، يصبح أقدر على شكر الموجود بلا اغترار، ويطلب النافع ولا يسلمه معنى القرار.

وحين يعود إلى واقعه لا يحتاج إلى قرار استعراضي يثبت به زهده. يكفي أن يعيد تسمية ما حوله: هذه نعمة وليست ضمانًا، وهذه مرحلة وليست نهاية، وهذا سبب أبذله ولا أعبده. كل تسمية صحيحة تنزع من الدنيا مقدارًا من سلطان الوهم، وترد القلب إلى العبودية التي يرى بها الأشياء على قدرها.

والأشياء التي تتحول حول الإنسان ليست وحدها الواقعة تحت قانون الزمن؛ فالذي يشاهدها يتغير معها، والمدة التي يملك فيها نعمه وفرصه تنقص كل يوم. الحقل يصفر، والظلال تتحرك، والوجوه تتبدل، وفي داخل هذا كله يمضي رأس مال لا يمكن تعويضه بعد خروجه من اليد: العمر.

الوحدة الثانية: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ — العمر الذي ينفد

في آخر الشهر يفتح كثير من الناس حساباتهم، فيراجعون ما دخل وما خرج، ويتوقفون عند مبلغ أنفق في غير موضعه أو مصروف تسلل من غير انتباه. فالمال إذا نقص ترك رقمًا ظاهرًا يدعو إلى المراجعة. أما أسبوع كامل من العمر فقد ينقضي، ولا يفتح الإنسان له حسابًا واحدًا.

سبعة أيام غادرت حياته بصباحاتها ولياليها، وبما حملته من صحة وفراغ وفرص لكلمة طيبة أو عمل أو عبادة أو قرب من الناس. انتقلت إلى ماض لا يسترد منه ساعة، ومع ذلك قد يحزن المرء على شيء نقص من متاعه أكثر مما يحزن على عشرات الساعات التي لا يكاد يعرف أين ذهبت.

هنا تكشف سورة قصيرة حقيقة كبيرة من حقائق الوجود الإنساني:

﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 1-3].

ذكر المفسرون في ﴿وَالْعَصْرِ﴾ أقوالًا، منها أنه الدهر والزمان الذي يقع فيه عمل بني آدم، ومنها أنه العشي أو آخر النهار. واللفظ يتسع لمعنى الزمن الذي أقسم الله به، لما يظهر فيه من تقلّب الأحوال ومرور الأعمار

وقيام الحجة بأعمال العباد. أما ﴿الْخُسْرِ﴾ فهو الهلاك والغبن والنقص، والسياق يبين أن جنس الإنسان واقع فيه إلا من حقق صفات النجاة الأربع.

فالخسر في السورة خسر ديني ومصيري، لا مجرد نقصان عدد الأيام. وقراءة العمر بوصفه رأس مال تنشأ من هذا المعنى ولا تستبدل به: فالإنسان لا يصل إلى الإيمان والعمل والحق والصبر إلا في المدة التي وهبها الله له، وكل جزء ينقضي منها من غير نجاة يزيد خسارته. الزمن وعاء الامتحان، والعمر هو المساحة التي يملك فيها العبد أن يخرج من الحكم العام في السورة.

والاستثناء القرآني متكامل؛ فالإيمان يصحح أصل الوجهة، والعمل الصالح يثبت صدقه في الواقع، والتواصي بالحق يمنع النجاة من أن تتحول إلى شأن فردي مغلق، والتواصي بالصبر يحفظ الطريق من الانقطاع. بهذا تبني السورة عمرًا مثمرًا في علاقة العبد بربه وبنفسه وبالناس، ولا تختصره في كثرة الأعمال الخاصة أو الإنجاز الفردي.

وفي اقتران الحق بالصبر كشف لطبيعة الزمن نفسه؛ فالعمل الصالح لا يعيش دائمًا في لحظة حماس، والآثار الكبيرة تحتاج إلى مداومة، وقد يثقل الواجب أو يتأخر ثمره. من أراد أن ينجو بعمره احتاج إلى صبر يثبت به على المعروف، ويقاوم به عودة العادات، ويتحمل به كلفة حمل الحق مع غيره.

بهذا لا تبقى الساعة مجرد وعاء للمهام؛ إنها قطعة من الحياة، إذا انقضت استقرت بما وقع فيها في صحيفة صاحبها. يستطيع الإنسان أن يتوب من تقصير مضى ويبدأ عملًا جديدًا، لكنه لا يستطيع أن يعيد الأمس ليملأه بما كان يقدر عليه. قد يعوض المال، ويعاد المشروع المتعثر، أما الجزء الذي خرج من العمر فقد خرج نهائيًا.

وتحمي سورة العصر هذا المعنى من أن يتحول إلى هوس بالإنجاز. النجاة فيها إيمان وعمل صالح وتواص بالحق وتواص بالصبر؛ فليس ازدحام اليوم دليلًا على حسن إنفاقه. قد تمتلئ حياة المرء بالمهام ويبقى نصيبه من الخسر كبيرًا، وقد تكون ساعة في بر أو علم أو إصلاح أثقل في ميزانه من يوم مزدحم لا يعرف صاحبه إلى أين يمضي.

ومن رحمة الله أن جعل تعاقب الأيام بابًا للاستدراك، فقال سبحانه:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 62].

يخلف الليل النهار ويخلف النهار الليل، فيجد الحي فرصة جديدة ما دام الله يمد له في الأجل. ما مضى لا يعود، لكن الحاضر لم يغلق بعد. ولهذا يجتمع في الوعي الإيماني بالزمن ندم يدفع إلى المراجعة ورجاء يدفع إلى العمل؛ فلا يضيع الإنسان يومه في الحسرة على أمسه، ولا يغتر بوجود اليوم فيودع واجباته في غد لا يملكه.

وتكشف السنة قيمة العمر من باب النعمة والغبن. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ». رواه البخاري (6412).

تلتقي الصحة والفراغ في القدرة على الفعل: بدن يستطيع، ومساحة زمنية يملك الإنسان قدرًا من الاختيار في إنفاقها. وقد تكون له الصحة وتستغرق الواجبات أكثر يومه، أو يملك الوقت وتعجز صحته. فإذا اجتمعت العافية مع فسحة للعمل، كان بين يديه رصيد لا يعرف كثير من الناس قيمته إلا بعد أن يختل أحد طرفيه.

ووصف النبي ﷺ الحال بالغبن؛ لأن الخسارة وقعت في موضع كان يمكن أن يتحقق فيه ربح. قد يمر على الإنسان زمن يستطيع فيه أن يتعلم أو يصل أو يتقرب أو يصلح، ثم تنقضي المرحلة فلا يبقى منها إلا معرفة متأخرة بقيمتها. المريض يرى في يوم العافية ما لم يكن يراه وهو يتقلب فيها، والمثقل بالمسؤوليات يتذكر ساعات كان يعدها فراغًا لا يدري ما يصنع بها.

وتتغير صورة الصحة والفراغ عبر مراحل الحياة. قد يكون الشاب صحيحًا واسع الحركة، لكنه لا يرى أن هذه القدرة نفسها باب عبادة، ثم تدخل عليه مسؤوليات أو ضعف لم يكن حاضرًا في حسابه. وقد يملك الكبير خبرة وبصيرة لم تكن له في شبابه، فيبقى لكل مرحلة عملها الممكن. الفقه هنا أن يعرف الإنسان النعمة القائمة الآن، لا أن يعيش أسير التحسر على نعمة مضت أو انتظار حال مثالية تأتي.

فالنعمة المتكررة تفقد شيئًا من حضورها في الوعي. يستيقظ الإنسان قادرًا على الحركة أيامًا طويلة، فتبدو القدرة كأنها الحالة الطبيعية التي لا تحتاج إلى انتباه. ويجد وقتًا يستطيع أن يختار فيه، فيعامله أحيانًا كأنه مخزون يتجدد بلا نهاية. ثم يأتي التغير فيكشف أن ما كان عاديًّا في الشعور كان عظيمًا في الحقيقة.

ولا يقف الأمر عند معرفة قيمة الفرصة؛ فالعمر أمانة ستدخل في السؤال. عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ». رواه الترمذي (2417)، وقال: حديث حسن صحيح.

يربط الحديث العمر بالعلم والجسم والمال داخل موقف الحساب. فالوقت ليس موردًا محايدًا لتحسين الكفاءة؛ إنه المجال الذي استُعمل فيه الجسد، وطُبق فيه العلم أو تُرك، وجُمع فيه المتاع وأنفق. والسؤال لا يكون عن عدد المهام التي أنجزها الإنسان، وإنما عن الوجهة التي أفنى فيها ما وهبه الله.

ومن دقة الحديث أنه لم يسأل عن العمر وحده، ثم يترك بقية النعم منفصلة عنه. العلم يحتاج إلى زمن حتى يتحول إلى فعل، والجسم يبلى خلال سنوات الاستعمال، وكل اكتساب وإنفاق يقع في أيام العمر. كأن السؤال عن هذه الأمانات يفتح سجل الحياة من جهات متعددة، ويمنع الإنسان من أن يختبئ وراء انشغال كثير لم يؤد حق العلم أو الجسد أو الكسب.

لهذا ينبغي أن يسبق ميزان العبودية أي حديث عن ترتيب الأولويات. قد يحسن إنسان تقسيم يومه، ويبقى عمره متجهًا إلى غاية صغيرة، وقد لا يملك آخر جدولًا محكمًا، لكنه يعرف الحقوق التي أقامه الله فيها: فرض يؤديه، وأمانة يحفظها، وأهل يعطيهم حقهم، وعلم ينفعه، وراحة مباحة تقيم بدنه على الطاعة والعمل. حسن استثمار العمر هو وضع كل جزء منه حيث يحبه الله بحسب الحال والقدرة.

وسأل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا». قال: ثم أي؟ قال: «ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ». قال: ثم أي؟ قال: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». رواه البخاري (527)، ومسلم (85).

يضع الحديث أولويات العمر داخل العبودية والحقوق. بدأ بالصلاة التي تتكرر في اليوم وتربط حركة المؤمن بمواقيت أمر الله، ثم البر الذي يخرج الزمن من دائرة الذات إلى حق أقرب الناس، ثم الجهاد الذي يحمل العبد مسؤولية الدين والأمة. لم يبدأ الميزان بما يحقق لصاحبه صورة أكثر نجاحًا، وإنما بما يحبه الله ويقيم به حقه وحقوق عباده.

وتمنح الصلاة اليوم بنية لا تصنعها المشاغل المتلاحقة. يعود المؤمن في مواقيتها إلى أصل وجهته، ويقطع اندفاعه خلف المطالب، ويقف بين يدي من يملك عمره كله. فإذا حفظ الفرض في وقته صار ذلك تدريبًا متكررًا على أن الساعة لا يملكها ضغط اللحظة وحده، وأن أمر الله يستطيع أن يعيد ترتيب اليوم مهما تزاحمت أسبابه.

كما يكشف تقديم بر الوالدين أن العمر ليس ملكًا فرديًّا محضًا يتصرف فيه صاحبه وفق رغباته ومشروعاته. في أيامه حقوق لأشخاص أقامهم الله في حياته، وقد تكون الدقيقة التي يمنحها لمحتاج منهم أحب إلى الله من نشاط يراه أكثر ظهورًا. بذلك يظل سؤال الوقت متصلًا بالفقه والرحمة والأمانة، لا بالحساب الكمي المجرد.

من هنا يظهر التسويف خللًا في العبودية قبل أن يكون مشكلة في التنظيم. أكثر الناس لا يقولون إنهم يرفضون الخير؛ إنهم يؤجلونه: سأتوب حين تهدأ المرحلة، وأتعلم عندما تتسع الظروف، وأصل من قصرت في حقه بعد أن ينتهي الازدحام. تبقى النية الحسنة في الداخل فتخفف ألم التقصير، بينما يغادر العمل الحاضر إلى مستقبل لا يعلم صاحبه هل يبلغه، ولا بأي حال يبلغه.

وقد يطول التأجيل حتى يتغير العمل نفسه. كلمة اعتذار كان يمكن أن تصلح علاقة في بدايتها تصبح بعد سنوات أثقل، وعلم كان يسهل أخذه مع صفاء الذهن يحتاج لاحقًا إلى جهد أكبر، وعادة صغيرة تركت بلا مقاومة تستقر حتى تبدو جزءًا من الطبع. الزمن لا يحفظ الأمور معلقة في الحالة نفسها؛ لذلك قد يكون تأخير العلاج مشاركة في تعقيد الداء.

وقد تتحول النية الطيبة إلى ستار مريح يحفظ للإنسان صورته عن نفسه من غير أن يغير واقعه. سورة العصر لم تستثن أصحاب الأماني، بل قالت: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. الذي ينقذ العمر إيمان يثمر، وعمل يقع في الزمن فعلًا، وحق يتجاوز الفرد، وصبر يحفظ الطريق من الانقطاع.

ويقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: 18].

السؤال القرآني يتجه إلى ما قدمته النفس، لا إلى ما تنوي أن تفعله يومًا. قد تكون للإنسان أعمال نافعة يتمنى إنجازها وإصلاحات يعرف حاجته إليها، لكنها لا تدخل في ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾ حتى تغادر المستقبل المتخيل وتقع في الحاضر. وكل تأجيل يراهن على فرصة جديدة وقدرة باقية، وهما أمران لا يملك الإنسان ضمانهما.

ويزيد التسويف قوة أن المرء يتخيل ذاته القادمة أكثر فراغًا وانضباطًا منه الآن. يحمل إلى الغد صورة محسنة لنفسه، ثم يصل إليه بالعادات نفسها، وربما أضيفت مسؤوليات جديدة. وفي الوقت ذاته تملك المطالب القريبة قدرة على ملء اليوم؛ فتستجيب النفس لما يضغط عليها سريعًا، بينما ينتظر العمل العميق الذي لا يطالب به أحد فورًا.

المشكلة ليست في كل عاجل؛ فكثير من الواجبات عاجلة ومهمة معًا. الخلل أن يصبح ضغط اللحظة هو الذي يقرر دائمًا أين يذهب العمر، حتى تمر الشهور ولا يظهر في الأيام أثر لما يصفه الإنسان بأنه أهم ما في دينه وحياته. عندئذ تكون الحركة كثيرة، لكن صحيفة ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾ أقل مما توحي به مشقة الانشغال.

ولهذا يدعو القرآن إلى المبادرة الواعية:

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 148].

الاستباق حركة إلى الخير بعد معرفة وجهته، وهو يختلف عن العجلة التي تتحرك بلا بصيرة. المؤمن ينظر فيما يريده الله منه في موضعه، ثم لا يجعل التأجيل نمطًا دائمًا في علاقته بالطاعة والإصلاح. وقد تكون البداية صغيرة، لكن وقوعها في الحاضر خير من مشروع كامل لا يغادر الوعد.

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول عقب حديث النبي ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ». رواه البخاري (6416). وهذه الزيادة من كلام ابن عمر رضي الله عنهما، وليست من لفظ النبي ﷺ.

لم يكن ابن عمر يلغي التخطيط للمستقبل؛ حياة المسلمين قائمة على الإعداد والأخذ بالأسباب. إنه يقطع الضمان الخفي الذي يجعل العمل الواجب اليوم معلقًا على حال لا يملكها الإنسان. خذ من صحتك وهي حاضرة، ومن يومك الذي بلغته، وضع للمستقبل خططه، ولا تجعله مخزنًا تلقي فيه كل ما ثقل عليك الآن.

ويحتاج التطبيق إلى عدل بين الحقوق. فرب ساعة يظنها الإنسان قليلة الإنجاز تكون في ميزان الشرع قيامًا بحق والد أو ولد أو زوج، ورب راحة قصد بها استعادة القوة تكون عونًا على الواجب، ورب عمل ظاهر النفع يأكل من حقوق لازمة حتى يفقد بركته. إدارة العمر عبودية تزن الحاجات والواجبات والمآلات، ولا تجعل النشاط الظاهر معيارًا وحيدًا للقيمة.

كما يحتاج إلى أعمال ثابتة تحمي المعاني الكبرى من زحام الطوارئ: فرض لا يفاوض عليه، وورد يرد القلب إلى الوحي، وحق لأسرة أو رحم، ومساحة لعلم أو نفع يوافق ما أقامه الله فيه. لا يشترط أن تكون هذه الأعمال كثيرة، لكن ثبات أصلها يمنع اليوم من أن يتشكل كله بما يطرأ عليه من الخارج.

راجع أسبوعًا عاديًّا انتهى بالفعل. ضع جانبًا الساعات التي فرضت عليك فيها واجبات لا تملك تركها، وانظر إلى المساحات التي كان لك فيها قدر حقيقي من الاختيار. أين ذهبت؟ وما الذي أخذ النصيب الأكبر منها؟ وهل يظهر في توزيعها أثر للأشياء التي تقول إنها الأهم في دينك وحياتك؟

لا تبحث عن أسبوع مثالي، ولا تحاسب نفسك على كل دقيقة؛ فالمقصود رؤية الاتجاه. إذا كشفت الأيام فجوة بين ما تؤمن بأهميته وما تمنحه من عمرك، فقد ظهر موضع يحتاج إلى توبة وترتيب. والإصلاح يبدأ من الجزء الذي لا يزال في اليد، لأن الحسرة على الماضي لا تسترد ساعة، والأمنية في الغد لا تضيف إلى صحيفة اليوم عملًا.

وتعود سورة العصر لتضع كل ذلك في ميزانه. الإنسان في خسر، لكن كل جزء بقي له يمكن أن يتحول بالإيمان إلى وجهة، وبالعمل الصالح إلى ثمرة، وبالتواصي بالحق إلى أثر يتجاوز صاحبه، وبالصبر إلى ثبات. ومن عرف قيمة المدة التي يملك فيها الأشياء، بقي أن يعرف الصفة التي يعيش بها في المكان الذي تمضي فيه هذه المدة: صفة الغريب والعابر.

الوحدة الثالثة: «ما لي وللدنيا؟» — طريق لا وطن

بين قوم فرعون، حيث الملك الظاهر والسلطان الذي ملأ صاحبه بالاستعلاء، وقف رجل مؤمن من آل فرعون كان يكتم إيمانه، ثم جهر بالحق حين أراد فرعون قتل موسى عليه السلام. وفي أثناء حجته نقل قومه من ظاهر الملك الذي يرونه إلى حقيقة الدار التي يقيمون فيها:

﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: 39].

وضعت الآية كل دار في موضعها: الدنيا متاع، والآخرة دار القرار. المتاع ينتفع به الإنسان مدة، ثم يفارقه أو يفارق هو المتاع. أما القرار فهو الاستقرار الذي لا يعقبه انتقال إلى دار أخرى. وعندما تختلط المنزلتان في القلب، يطلب الإنسان من المؤقت طمأنينة الباقي، ويحمل العالم المتغير ما لا يستطيع أن يمنحه.

تعطي الدنيا ألوانًا من السكن والفرح والمنفعة، وتجمع إليها النقص والتحول والفراق. قد تستقيم جوانب منها وتضطرب أخرى، ويفتح باب ثم يغلق غيره. من طلب منها قرارًا كاملًا ظل يطارد صورة لا تحملها طبيعة الدار، وكل تغير سيبدو له كأنه خلل طارئ، مع أنه جزء من القانون الذي أخبر الله به.

ويقول الله تعالى:

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 64].

﴿الْحَيَوَانُ﴾ هي الحياة الكاملة الدائمة؛ حياة لا يخالطها موت، ولا يهدد اجتماعها فراق، ولا تنقص لذتها بخشية الزوال. وحياة الدنيا، على عظم ما يقع فيها من التكليف والأثر، محدودة في مدتها ومشوبة بالنقص. قيمتها الكبرى أنها موضع العمل الذي يحدد مصير الإنسان في الدار الباقية، لا أنها الحياة التي ينبغي أن تنتهي عندها غايات القلب.

ومن هنا جاء التوجيه النبوي الذي يبني صفة المؤمن في هذه الدار. عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ». رواه البخاري (6416).

لم يخرج النبي ﷺ ابن عمر من الدنيا، ولم يعلمه أن يهمل أهلها وأعمالها وحقوقها؛ أبقاه في قلب التكليف، ثم علمه الحال التي تحميه من وهم الوطن الأخير. قد تطول إقامة الغريب في بلد، ويعرف طرقه ويعمل بين أهله وتتشابك مصالحه فيه، لكنه لا ينسى أن مقامه مؤقت وأن أمامه دارًا أخرى. طول الألفة لا يغير حقيقة المكان.

وعابر السبيل أشد حضورًا لوجهته. يعتني بالطريق لأن الوصول يتوقف على حسن قطعه، ويحفظ زاده ومركبه، ويعاون رفاقه، ويستريح حين يحتاج إلى الراحة. لكنه لا ينسى وهو تحت ظل جميل أن الظل محطة، ولا يحمل من الأثقال ما يقطعه عن مقصده.

والفرق بين الغريب والعابر يوسع المعنى بدل أن يكرر الصورة. الغريب يحفظ في قلبه أن المكان ليس موطن القرار، وعابر السبيل يضيف إلى ذلك حركة مقصودة نحو الغاية. قد يستيقظ الإنسان أحيانًا على معنى الغربة حين تتغير عليه أحواله، لكن السنة تريده وعيًا دائمًا يوجه السير، حتى لا يحتاج في كل مرة إلى فقد مؤلم يذكره بحقيقة مقامه.

ومن فقه الغربة أن ينتقل القلب من صورة إلى صورة وتبقى طاعته ثابتة. قد يقيم الإنسان في مكان سنين، ويحب أهله وأصدقاءه وتفاصيله، ثم ينقله الله إلى حال أخرى. العبودية تحفظ له أصلًا يعود إليه حين تتبدل الملامح: أنا عبد لله في هذه المحطة وفي التي تليها.

تجتمع الصورتان في المؤمن: قلب لا يسكن إلى الدنيا سكون من يظنها دار إقامته الأخيرة، وحياة لا تهمل الطريق الذي سيحاسب على كيفية قطعه. فالعبور في الإسلام عبور مكلف، يحمل فيه الإنسان أمانته، ويقوم بحق من استرعاه الله، ويعمر ما استطاع، ثم يلقى ربه بما قدم.

وقد قرر القرآن وظيفة هذه الحياة بقوله تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: 2].

فالطريق ميدان حسن العمل، وليس قاعة انتظار حتى يأتي الرحيل. ومن فهم الغربة عزلة عن الناس أو تعطيلًا للواجبات أخذ من الصورة معنى المغادرة وترك غاية الإقامة. المؤمن يمر، لكن أثر مروره مكتوب؛ ويغادر، لكن كيفية استعماله لما وضع بين يديه هي زاده الذي لا يغادره.

وقد جسد النبي ﷺ هذا المعنى في صورة بقيت قادرة على اختصار العلاقة بالدنيا. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء، فقال: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا». رواه الترمذي (2377) واللفظ له، وابن ماجه (4109)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.

الراكب لم يرفض ظل الشجرة. استراح تحته وانتفع به، وربما استعاد من قوته ما يعينه على مواصلة السير. ظل الشجرة نعمة، والاستراحة جزء من حكمة الطريق. يبدأ الخلل حين ينسى الراكب أنه استظل، فينقل إلى المحطة معنى الوطن، وينفق في تثبيت مقامه المؤقت من قلبه وجهده ما يصرفه عن وجهته.

وفي قوله ﷺ: «ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» حركة حاسمة بعد الاستراحة. لم يحمل الراكب الشجرة معه، ولم يجعل حق الظل عليه أن يبقى تحته. وهكذا تنتهي صلة الإنسان بأشياء كثيرة أدت له وظيفة حقيقية، ثم جاء وقت تركها. الرشد أن يحسن الانتفاع في زمنها، وأن يقبل انتهاء دورها حين يقدره الله، من غير خيانة للشكر ولا اعتراض على مسار الطريق.

ويكشف أثر الحصير في جنب النبي ﷺ أن المثال خرج من واقع عاشه، لا من صورة خطابية بعيدة. كان قادرًا أن يقبل ما يعرض عليه من وطاء مباح، لكنه علّم أصحابه في تلك اللحظة معنى أعلى من مجرد هيئة الفراش: أن راحة الجسد لا تتحول إلى مشروع قلب ينسى به صاحبه قصر المقام. وهذا المعنى يبقى حاكمًا مع اختلاف سعة عيش الناس وأحوالهم.

بهذا المثل تستقيم علاقة المؤمن بنعم الدنيا. السكن ظل، والصحة ظل، واجتماع الأحبة ظل، والقدرة على العمل والتعلم وخدمة الناس ظلال متفاوتة. يأخذها من الله، ويؤدي حقها، وينتفع بها في سيره. وقد يكون الظل واسعًا جميلًا، وهو مع ذلك مؤقت، وقد يضيق على إنسان ولا يكون ذلك دليلًا على بعده عن الله.

لهذا لا يقاس العبور بخشونة العيش أو قلة الموجود. قد يملك الإنسان القليل ويقيم قلبه كله فيه، وقد تتسع عليه النعم وتبقى في يده أمانة لا تعريفًا لذاته. السؤال الذي يكشف منزلة الدنيا أعمق من مقدار ما عنده: هل يحب النعمة ويشكرها، وتبقى قيمته النهائية متصلة بربه؟

ويكشف حديث آخر طبيعة مقام المؤمن إذا قورنت الدنيا بما بعدها. قال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ». رواه مسلم (2956).

قد يوسع الله على المؤمن ويجد في الدنيا سرورًا وطمأنينة، وقد يعيش الكافر في ضيق ومرض وخوف. معنى الحديث يظهر بالمقارنة إلى المآل: كل نعيم يلقاه المؤمن هنا محدود إذا قيس بما أعده الله له، وكل متاع يناله الكافر هو جنته إذا قيس بالعذاب الذي ينتظره إن مات على كفره.

وفي لفظ السجن معنى يتصل بالعبودية كذلك. المؤمن لا يطلق نفسه وراء كل رغبة؛ يقف عند أمر الله ونهيه، ويصبر عن عاجل محرم، ويقوم بالواجب مع ثقله. الحدود التي تراها النفس قيدًا تحرس وجهة المسافر، لأن الطريق الذي لا علامات فيه يضل سالكه، والحرية التي تجعل الهوى سيدًا تنتهي بأسر أعمق.

ويمنع الحديث المؤمن من قياس قربه من الله بمقدار ما اتسع له من العاجل. قد يضيق عليه باب لأن حفظ دينه اقتضى تركه، وقد يرى غيره أكثر إطلاقًا في شهوته، فيتذكر أن المقارنة لا تنتهي عند لحظة الدنيا. السجن هنا نسبة إلى ما ينتظره من النعيم وإلى الحدود التي تحفظه، وليس حكمًا بأن حياته محرومة من السكينة والفرح المشروع.

وتظهر الإقامة القلبية في موضع آخر غير توقع دوام النعمة: بناء الهوية على المحطة. قد يعرف الإنسان أن دوره سيتغير وأن قوته ستضعف، ثم يظل تعريفه لنفسه معلقًا بلقب أو صورة اجتماعية أو قدرة أو مشروع. إذا زال الشيء لم يشعر أنه فقد منفعة فحسب؛ يشعر أن السؤال «من أنا؟» نفسه أصبح مضطربًا، لأن الجواب كان مربوطًا بما يتركه العابر خلفه.

قد يكون المرء معروفًا بمهنة، أو بدور يؤديه في أسرته، أو بقدرة بدنية، أو بحضور يلتفت إليه الناس. وكل هذه أبواب نعمة ومسؤولية، لكنها لا تحمل تعريف الإنسان الكامل. عبوديته لله هي الحقيقة التي تصحبه عند تبدل الأدوار؛ يظل عبدًا مأمورًا بالشكر والصبر والإحسان، وإن تغيرت المحطة التي كان يؤدي فيها بعض ذلك.

وتزداد خطورة هذا الاندماج حين يصبح الحفاظ على الصورة أقوى من الصدق. قد يمتنع الإنسان من طلب المساعدة لأن صورته قائمة على أنه الذي لا يضعف، أو يتمسك بدور لم يعد قادرًا على أدائه لأن اعترافه بالتغير يؤلمه، أو يضيق بمن يشاركه مجالًا ارتبط عنده بقيمته. عندئذ لا تكون المحطة مكان خدمة فقط؛ تصبح جدارًا يحرس به تعريفه لنفسه.

أما الهوية التي تبنى على العبودية فتمنح صاحبها مرونة أخلاقية ونفسية. يستطيع أن يتعلم بعد أن كان معلّمًا، وأن يقبل العون بعد أن كان معينًا، وأن يخدم في الخفاء بعد أن اعتاد الظهور. لا يسقط قدره في نفسه بتغير الدور، لأن القيمة الأصلية متصلة بصدقه مع الله وحسن قيامه بما يستطيعه الآن.

يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6].

الحركة كلها إلى الله. قد تتغير صور الكدح وأماكنه، ويخرج الإنسان من ظهور إلى خفاء، أو من قدرة إلى ضعف، أو من دور اعتاده إلى دور لم يختره. لكن وجهة السير لا تتغير، وقيمة العبد لا تنحصر في محطة من محطاته. ومن عرف إلى من يمضي استطاع أن يعيد بناء حياته بعد التحول دون أن يفقد المعنى الذي يعيش له.

وهذه الغربة لا تعطل بناءً طويل الأثر. يربي المؤمن أبناءه، ويتقن عمله، ويزرع ما قد ينتفع به من يأتي بعده، وينشئ مشروعًا يخدم الناس، ويحفظ الحقوق التي استرعاه الله إياها. يفعل ذلك لأنه مسؤول في الطريق، ويرجو أن يتحول أثره الدنيوي إلى عمل باق حين يترك موضع العمل.

العابر المسؤول يجمع بين الجد في الأسباب وخفة القلب من دعوى الملك المطلق. يحسن رعاية ما بين يديه، ويعرف أن ولايته عليه مؤقتة. وكلما اتسعت مسؤوليته ازداد سؤال الأمانة حضورًا: ماذا يريد الله مني في هذا الموضع؟ وكيف أترك ما مررت به أصلح مما وجدته؟ ويستحضر أن العمل هو الذي سيصحبه بعد انقضاء الولاية.

ويجمع القرآن وجهة الحياة كلها في قول الله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162-163].

يدخل المحيا كله في العبودية: العبادة الخاصة، والعمل، والعلاقات، والبناء، والراحة، والانتقال بين الأدوار. ليست الغربة شعورًا حزينًا يجاور هذه الأعمال؛ إنها ردها إلى مالكها وغايتها. عندما يكون المحيا لله، يؤدي العابر حق المحطة كاملة، ويظل مستعدًا لترك صورتها لأن المقصود منها لم يكن ذاته ولا نظر الناس، بل رضا رب العالمين.

وحين تنتظم تفاصيل المحيا تحت هذه النسبة، يتغير السؤال عن الأشياء المحيطة بنا. تصبح قيمتها متصلة بنوع العمل الذي تستخرجه منا: شكرًا أو غفلة، أمانة أو استيلاء، عونًا على السير أو قيدًا يشغل عن الغاية. ومن هذا الموضع يضع القرآن زينة الأرض داخل امتحانها ونهايتها:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: 7-8].

ما على الأرض زينة حقيقية، ووجودها امتحان في حسن العمل، ثم تصير الأرض أرضًا ملساء قاحلة زال كل ما عليها. اجتمعت الجاذبية والوظيفة والنهاية في آيتين؛ فلم يُطلب من المؤمن أن يعمى عن الزينة، ولا أن يبدد عمره في خدمتها. ينظر إليها بعينين: عين ترى النعمة فتشكر، وعين ترى الامتحان فتسأل عن العمل الذي يرضي الله.

وتقدم الآيتان معيارًا يحرر الإنسان من سؤال: كم جمعت من الزينة؟ إلى سؤال: كيف كان عملي معها؟ فقد تتسع المحطة فتزداد المسؤولية، وقد تضيق فيظهر الصبر والرضا، وفي الحالين يبقى الامتحان في أحسن العمل. وعندما تصير الأرض جرزًا لا يبقى اختلاف الصور التي عاشها الناس، ويبقى ما خرج من تلك الصور إلى صحائفهم.

هنا يأتي محك الغربة الخاص بهذه الوحدة. استحضر دورًا أو صورة تعرف بها نفسك اليوم: الشخص القوي الذي يعتمد عليه الجميع، أو صاحب الخبرة الذي يُرجع إليه، أو الوجه المقبول، أو صاحب المشروع الذي التصق اسمه به. ثم اسأل: لو نزعت مني هذه الصورة غدًا، هل أشعر أن منفعة قد فاتت ودورًا قد تغير، أم أشعر أنني فقدت تعريفي لنفسي؟

هذا السؤال لا يدعوك إلى احتقار دورك أو إهمال إتقانه. إنه يكشف موضع الوطن في القلب. الدور أمانة تؤدى، والصورة الاجتماعية حالة تتبدل، والقدرة عطية تستعمل. فإذا صارت واحدة منها جوابك النهائي عن نفسك، فقد بنت المحطة جزءًا من وطنها داخل القلب، وأصبح الانتقال منها تهديدًا للهوية لا تغيرًا في طريق العبودية.

وعبودية العابر تبدأ بتجديد النسبة إلى الله. يعمل فيما بين يديه، ويشكر الظل، ويحفظ الأمانة، ويستريح بما أباح الله حتى يقوى على السير. فإذا تغيرت المحطة لم يظن أن وجهته ضاعت، وإذا دعاه أمر الله لم يجعل حماية صورته أقوى من الطاعة. هكذا يصبح النجاح مجال مسؤولية، والسكن موضع سكينة، والقدرة أداة خير، ويبقى القلب متجهًا إلى دار القرار.

بهذا تستقيم صورة الطريق: الدنيا متاع سريع التحول، والعمر الذي يملك الإنسان فيه متاعها ينفد، والمقيم فيها عابر مسؤول. وقد صحح الوحي اسم الدار وقيمة المدة وصفة السائر، لكن المعرفة بهذه الحقائق لا تزيل جاذبية الدنيا من النفس؛ فقد قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ [آل عمران: 14]، وجُعل الميل إلى المحبوبات جزءًا من الابتلاء.

وهنا يفتح الكتاب بابه التالي: لماذا يتعلق القلب بما يعلم أنه سيتركه، وكيف تنتقل الزينة من متاع في اليد إلى فتنة تحكم القرار؟

المحور الثاني: زينة الدنيا وفتنتها

مقدمة المحور

لماذا يحب الإنسان ما سيتركه؟

قد يعرف الإنسان أن الدنيا عابرة، وأن عمره فيها ينقص، وأن ما في يده سيخرج يومًا من يده؛ ثم يستيقظ في صباحه التالي منشغلًا بالأشياء نفسها، يرجوها ويخاف عليها، ويقيس بها جانبًا من نجاحه وسعادته. فالعلم بقصر الدنيا لا يمحو ما أودع في النفس من ميل، ولا يمنع الأشياء القريبة المحسوسة من أن تضغط على القلب والقرار.

ولو كانت الدنيا منفرة في ظاهرها، بعيدة عن حاجات الإنسان ورغباته، لضعف معنى الامتحان بها. إنما تأتي فتنتها من جمالها وقربها، ومن أن بعض ما فيها يلامس أعمق حاجات النفس: السكن، والانتماء، والقبول، والقوة، والامتداد في الأبناء، والشعور بأن للحياة صورة مكتملة يستطيع الإنسان أن يبلغها.

وقد كشف القرآن شدة هذا الميل في قوله تعالى:

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: 20].

فالإنسان لا يبدأ علاقته بالدنيا من حياد كامل؛ يحمل رغبات ومخاوف وتصورات عن الحياة التي يريدها. وقد يكون المحبوب مباحًا نافعًا، ويظل محتاجًا إلى ميزان يحفظه في مرتبته؛ لأن الشيء لا يصبح قائدًا للقلب دفعة واحدة، وإنما يتقدم في داخله قليلًا قليلًا حتى يعيد ترتيب ما يراه مهمًّا وما يقبل أن يضحي به.

ولا يبدأ الوحي إصلاح هذه العلاقة بإدانة الإنسان لمجرد أنه أحب، ولا يطلب منه أن ينتزع من نفسه الميل إلى الطيبات. إنه يفسر الجاذبية، ثم يضعها داخل العبودية. فهناك فرق بين قلب يجد في الشيء جمالًا أو منفعة، وقلب يجعل حصوله عليه شرطًا ليكون بخير؛ وبين محبة تدفع إلى الرعاية والشكر، ومحبة تبدأ في إعادة ترتيب الحلال والحرام والحقوق من حولها.

ولهذا لا يسأل هذا المحور أولًا: ما الذي تحبه؟ بل يسأل: ماذا يفعل ما تحبه بقلبك وقرارك؟ هل يبقى في مرتبته بوصفه نعمة أو حاجة أو وسيلة، أم ينتقل إلى منزلة أعلى، فيصبح مصدر الهوية، أو ضمان المستقبل، أو المقياس الذي يحدد به الإنسان قيمته ومكانته؟

سنبدأ بأصل الميل الذي يجعل الأشياء مرغوبة، ثم نقف عند الأهل والولد؛ فبعض أشد فتن الدنيا لا يأتي من أشياء يقتنيها الإنسان، وإنما من أشخاص يحبهم ويرى جزءًا من نفسه فيهم. وبعد ذلك نكشف حركة التكاثر التي تجعل المزيد مطلوبًا بعد تحقق الحاجة، ثم تجمع السنة صورة المحور كله في كلمات: دنيا حلوة خضرة، وإنسان مستخلف فيها، ورب ينظر كيف يعمل.

والغاية أن يفهم القارئ نفسه من غير أن يمنحها العذر. فمحاربة الرغبات كلها تفسد الفطرة، وتركها تقود وحدها يفسد العبودية. وبين الطرفين قلب يحب ويشتهي ويسعى، ثم يبقي مرجعيته لله، ويعرف أن قيمة المحبوب لا تمنحه حق السيادة.

الوحدة الرابعة: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾

قد يرى الإنسان أمرًا يتمناه، فلا يرى الشيء وحده، بل يرى حياة كاملة يتخيل أنها ستبدأ معه. ينظر إلى زواج يرجوه، أو قبول ينتظره، أو قدرة جسدية يطلبها، أو موقع بين الناس، فيضيف إلى المنفعة الواقعية وعدًا أوسع: إذا حصل هذا استقرت نفسي، واكتملت صورتي، وصرت الشخص الذي أريد أن أكونه.

وتأتي الآية لتكشف أصل هذه الحركة:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۝ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 14-15].

تقرر الآية وجود التزيين والحب قبل أن توجه الإنسان في طريقة الاستجابة. فالنفس لا تقف أمام الدنيا على مسافة واحدة؛ ترى بعض الأشياء نافعة، وبعضها جميلًا، وتجد في بعضها معنى السكن أو القوة أو الامتداد. ولفظ الشهوات هنا يشمل ما تميل إليه النفس وتطلبه، ولا يقتصر على نوع واحد من الرغبات.

وقد جمعت الآية صورًا تمس دوافع بشرية متباينة: العلاقة بين الرجل والمرأة، والذرية، والثروة المدخرة، ومظاهر القوة والجمال، ومصادر الإنتاج والمعاش. فهي لا تصف هامشًا صغيرًا من الحياة، وإنما ترسم دائرة واسعة لما يستطيع أن يجذب الإنسان بوعد اللذة أو الأمن أو الاستمرار أو المكانة.

وأصل الميل إلى الزواج والولد والقدرة والمال لا يجعل الإنسان مذنبًا. تقوم بهذه الميول مصالح الحياة، ويمكن أن تتحول إلى أبواب للعفة والرعاية والإنفاق والنفع. يبدأ الامتحان في الطريق الذي يسلكه الإنسان إلى محبوبه، وفي القدر الذي يمنحه له من وقته وقلبه، وفي الثمن الذي يقبل دفعه حين يشتد الطلب.

ويمكن في هذا السياق التفريق بين أصل الشهوة وبين اتباع الهوى. الشهوة ميل إلى ما يلائم النفس، وقد تتحرك في حلال أو حرام. ويظهر الهوى حين يتولى الميل توجيه القرار في مخالفة هدى الله، فيصبح الإنسان تابعًا لما يريد، ثم يبحث عقله عن المبررات التي تحفظ له صورة الصواب.

قال الله تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 40-41].

نهي النفس عن الهوى يحفظ للرغبة موضعها الصحيح. يحب المؤمن الطعام ثم يصوم، ويميل إلى شيء ثم يتركه إذا حرمه الله، ويطلب محبوبًا بطريق مباح ولو كان الطريق الآخر أسرع. وفي هذه القدرة تتجلى الحرية التي يصنعها الإيمان: أن يجد الإنسان الرغبة، ولا يضطر إلى طاعتها في كل مرة.

وقد يظن المرء أن الحرية هي حصوله على كل ما يريد، بينما تكشف التجربة أن من لا يستطيع احتمال الحرمان أو التأخر صار أسيرًا لما يحب. تتسع خياراته الظاهرة، ويضيق قلبه؛ لأن محبوبًا واحدًا أصبح قادرًا على تهديد اتزانه، وإعادة تفسير أيامه كلها بحسب قربه منه أو بعده عنه.

ثم تضع الآية هذه المحبوبات في مرتبتها: **﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾**. المتاع نافع وجميل في زمنه، لكنه لا يحمل صفة البقاء ولا يستطيع أن يمنح الإنسان حسن المآب. ومن هنا يأتي السؤال القرآني: **﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ**

﴿بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ﴾؛ فتتعلم النفس أن الخير درجات، وأن الشيء قد يكون محبوبًا ومباحًا، ويوجد مع ذلك ما هو خير منه وأبقى.

ولا تقف المقارنة عند جنات الآخرة ولذاتها؛ تختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾. بهذا ينتقل ميزان الحب إلى قمته. المؤمن لا يضبط شهواته بفراغ داخلي، ولا يعيش حياته في حرب مع كل جمال؛ إنه يقابل المحبوب القريب بمحبة أعلى، ويرى أن خسارة رغبة أهون من خسارة رضوان الله.

ويكشف القرآن حكمة وجود الجاذبية في قوله تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: 7-8].

مرت هاتان الآيتان في الوحدة الثالثة من جهة نهاية الطريق، وأن الزينة ستصير أرضًا يابسة لا نبات فيها. وتعودان هنا لوظيفة أخرى معلنة: بيان الحكمة من جعل ما على الأرض زينة. فالجمال نفسه جزء من ميدان الابتلاء، والامتحان لا يقع خارج الجاذبية، بل في العمل الذي يصدر من الإنسان وهو يراها ويحب بعضها.

لو كانت المحرمات منفرة دائمًا، والطاعات موافقة لكل ما تهواه النفس، لما ظهر معنى المجاهدة على صورته الكاملة. يأتي الاختبار حين يرى القلب شيئًا محبوبًا، ثم يسأل عن حكم الله فيه؛ وحين يقدر على تناوله، ثم يضبط الطريق والقدر؛ وحين يفوته، فيبقى قادرًا على عبادة الله في الحياة التي بقيت له.

وهنا يختلف معنى الهوية في هذه الوحدة عن معناه في الوحدة الثالثة. هناك كان الإنسان يبني تعريفه لنفسه على محطة قائمة في يده: عمل أو مكانة أو قدرة اعتادها. أما هنا، فتتشكل الهوية حول شيء لم يحصل عليه بعد؛ يتخيل الإنسان أن بلوغه سيصنع النسخة الجديرة من نفسه، فيصبح المستقبل الموعود شرطًا لقبوله لذاته اليوم.

تتحرك هذه العملية في جمل قصيرة قد لا ينتبه إليها صاحبها. يبدأ بقوله: أحب هذا. ثم ينتقل إلى: سأكون أسعد إذا حصلت عليه. وبعد تكرار التخيل قد تستقر الفكرة في صورة أشد: لن أستطيع أن أكون بخير من دونه. في هذه المرحلة صار المحبوب أوسع من منفعة؛ أصبح جزءًا من تعريف الذات.

قد يتمنى شخص صورة معينة لجسده، فيربط احترامه لنفسه بها. وقد يطلب آخر موقعًا اجتماعيًّا نافعًا، ثم يصبح شعوره بالقيمة تابعًا لنظرات الناس إلى ذلك الموقع. وقد يتعلق إنسان بعلاقة مشروعة، ويضع فيها وعدًا بانتهاء وحدته وقلقه واضطرابه كله. هذه الأشياء قد تحسن جوانب حقيقية من الحياة، لكنها لا تحمل القدرة على خلاص النفس من كل نقص.

وتزداد الرغبة تعقيدًا حين تدخل الصورة الاجتماعية فيها. قد يبدأ الإنسان في طلب أمر لمنفعته أو جماله، ثم يكتسب الأمر معنى جديدًا لأنه علامة على النجاح أو الانتماء إلى فئة يقدّرها الناس. عندئذ تختلط حاجته الأصلية برغبته في أن يُرى بصورة محددة، ويصبح التراجع عن الهدف شبيهًا بفقدان الوجه أمام الآخرين.

وقد يحمل الإنسان صورة نقية لما لم يحصل عليه؛ يرى المنافع قبل التكاليف، ويتخيل النتيجة الأولى ولا يحسب أثر الاعتياد، ويضع المحبوب في مستقبل خال من التعقيدات. لهذا تبدو بعض الأشياء في زمن الانتظار أكبر من حقيقتها بعد الحصول، ثم يكتشف صاحبها أنها حلت مشكلة أو أضافت نعمة، ولم تحل مشكلة وجوده كلها.

ولا تستدعي هذه المعرفة الشك في كل فرح أو مشروع. يستطيع المؤمن أن يسعى إلى زواج أو علم أو صحة أو جمال أو مكانة نافعة، وأن يفرح إذا نالها، ويحزن إذا فاتته. الفرق أن يظل مدركًا أن منزلته عند الله لا تتوقف عليها، وأن أبواب القرب لا تغلق إذا جاءت حياته على صورة أخرى.

وقد رفض الوحي علاج الفتنة بقتل الرغبة وتحريم الطيبات. قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: 87-88].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أُخبروا كأنهم تقالّوها، فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدًا، وقال الآخر: أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فقال رسول الله ﷺ: «أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي». رواه البخاري (5063)، ومسلم (1401).

يجعل الحديث العبادة منسجمة مع الفطرة التي خلقها الله، ويهدم تصورًا يرى الحرمان قيمة بذاته. فالمشقة لا تصبح قربة لمجرد أنها مشقة، وترك المباح لا يرفع الإنسان إذا خالف هدي النبي ﷺ. السنة تربي الرغبة، وتعطي الجسد والأهل حقوقهم، وتمنع الإنسان من صناعة دين يشبع فيه حاجته إلى التفوق على غيره.

وفي الجهة الأخرى، لا يكفي أن يكون الشيء مباحًا في أصله حتى تكون كل علاقة به سليمة. قد يستهلك مباح وقتًا يضيع معه واجب، أو يتحول التطلع المشروع إلى مقارنة دائمة، أو يصبح طلب القبول خوفًا يمنع الإنسان من قول الحق. الحكم على أصل الشيء لا يغني عن مراقبة أثره في القلب.

وتظهر سلامة المحبة في أربع جهات مترابطة: طريق مشروع إلى المحبوب، وقدر لا يلتهم الحقوق، وهوية لا تتوقف عليه، وقدرة على البقاء مع الله إذا فات. وقد يحقق الإنسان ثلاثًا منها، ثم تكشف الرابعة مقدار التعلق؛ فالفوات يمتحن المكان الذي بناه المحبوب في الداخل.

قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: 165].

لا تمنع شدة الحب لله محبة الزوج والولد والجمال والراحة، لكنها تضع جميع المحاب تحت مرجعية واحدة. عندما تتعارض الطرق، يظهر الحب الأعلى في القرار؛ وحين يتأخر المراد، يمنع حب الله الإنسان من تحويل التأخر إلى اعتراض؛ وإذا فات المطلوب، يبقى له في عبوديته معنى لا يستطيع المفقود أن يسلبه.

وقد يكشف التأخر ما أخفاه الأمل. ما دام الطريق مفتوحًا، يستطيع الإنسان أن يظن أن علاقته برغبته متوازنة. ثم يطول الانتظار، فتبدأ الأسئلة: هل يرى نعمًا أخرى، أم حجب الغائب كل حاضر؟ هل يحافظ على حدود الله، أم يبرر تجاوزها؟ هل يستمر في واجباته، أم يضع حياته كلها في غرفة انتظار؟

والقلب الذي جعل محبوبًا واحدًا شرطًا للسعادة يبدأ في ظلم بقية حياته. ينقص من قيمة نعم حاضرة، ويؤجل أعمالًا يمكن أن تملأ أيامه، ويقرأ كل مرحلة لا تحتوي هدفه بوصفها مرحلة ناقصة. وهكذا لا يسرق المحبوب الغائب المستقبل وحده؛ قد يسرق الحاضر أيضًا.

تأمل إنسانًا ينتظر أمرًا مشروعًا طال انتظاره. يبذل سببه، ويطرق أبوابه المباحة، ويدعو الله، ثم يظل قائمًا بحقوق يومه. لا يجعل التأخر عذرًا لقسوة على أهله أو إهمال عبادته، ولا يسمي ما لم يأتِ به القدر حرمانًا من الحياة كلها. قد يتألم، لكنه لا يسلّم ألمه قيادة بقية أيامه.

هذا النموذج لا يطلب برود المشاعر، بل صدق العبودية داخلها. فالمؤمن قد يبكي على ما فاته، ويظل شاكرًا لما بقي، وقد يجتهد في طلب محبوب، ويكون مستعدًّا لقبول حكم الله فيه. قوة القلب لا تظهر في غياب الرغبة، وإنما في بقائها تحت محبة الله.

ولهذا تكون العبودية في هذه الوحدة بتحرير الطلب. يحدد الإنسان ما يرجوه من الشيء بصدق، ويفصل هذه المنفعة عن قيمته النهائية، ثم يسعى في الطريق الذي أحله الله. فإذا جاءه المراد شكر ولم يجعله شهادة على استحقاقه، وإذا تأخر واصل عبادته، وإذا فات لم يعتبر أن حياته كلها فاتت معه.

ويأتي المحك من واقعة قريبة. اختر أمرًا دنيويًّا صار حصولك عليه في ذهنك شرطًا لتكون سعيدًا أو مقبولًا أو مطمئنًا. ثم ارجع إلى قرار حقيقي اتخذته تحت ضغطه: وقت منحته، أو واجب أخّرته، أو حد قاربت تجاوزه، أو علاقة تغيرت. ماذا يكشف ذلك القرار عن منزلة هذا الأمر في قلبك؟

لا تبحث عن جواب يثبت زهدك. سمِّ الوعد الذي وضعته في المحبوب: ماذا تعتقد أنه سيعطيك فوق منفعته؟ ثم أعد هذا الوعد إلى حجمه. تستطيع أن تقول: أريده وأعمل له، ولا أجعله ربًّا لقلبي؛ أفرح به إن جاء، ولا أجعل فقده حكمًا على قيمتي أو معنى حياتي.

وحين ينتظم الحب تحت محبة الله، لا تصبح الحياة باردة. تتطهر المحبة من العبء الذي لم تُخلق لتحمله. يستطيع الإنسان أن يحب بقوة، ويرجو بصدق، ويعمل بجد، ثم لا يسلّم محبوبه مفاتيح قلبه كلها.

وأشد المحبوبات اتصالًا بالنفس ليست أشياء خارجية؛ إنها وجوه تسكن القلب، وأبناء يرى الإنسان امتداد حياته فيهم. هناك يصبح التفريق بين الحب والفتنة أدق؛ لأن المحبوب أمانة، والخوف عليه قد يأتي في صورة المسؤولية نفسها.

الوحدة الخامسة: الأهل والولد ـــ زينة وفتنة

قد يستيقظ الوالد ليلًا على صوت ولد مريض، فينسى تعبه وينشغل به. وقد تحمل الأم همّ أبنائها في تفاصيل لا يراها أحد، ويقبل الإنسان عملًا شاقًّا حتى يحفظ أسرته من الحاجة. هذه الصور ليست هامشًا من الحياة؛ إنها مواضع رحمة وأمانة، وقد تكون من أثقل الأعمال في الميزان إذا صلحت النية واستقام الطريق.

ويضع القرآن هذه المحبة في وصف دقيق:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46].

مرت هذه الآية في المحور الأول من جهة الموازنة بين الزينة وما يبقى، وتعود هنا من جهة الأهل والولد خاصة. فالولد زينة بمعنى الفرح والجمال والأنس والامتداد، والآية لا تسلب هذه المعاني مشروعيتها. ثم تفتح أمام القلب أفقًا أوسع، حتى لا تصبح الزينة هي المرجع الأخير للرجاء.

والولد لا يمنح والديه فرح الحاضر وحده؛ يحمل في نفوسهما صورة للمستقبل، ويجعل كل واحد منهما يرى جزءًا من نفسه ممتدًا في شخص آخر. لذلك يتلقى الوالدان نجاحه وتعثره أحيانًا كما لو كان حكمًا عليهما، ويصعب عليهما الفصل بين مصلحته الحقيقية وبين الصورة التي يريدان أن يظهر بها أمام الناس.

ويقول الله تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 28].

الفتنة اختبار يكشف ما يصنعه الإنسان بما يحب. قد يكون الولد طريقًا إلى الرحمة والصبر والإنفاق والدعاء، وقد يتحول الخوف عليه إلى باب للبخل أو الحرام أو ترك واجب. المحبوب واحد، لكن استجابة القلب هي التي تحدد اتجاهه: هل صار عونًا على العبودية، أم أخذ من أمر الله ما لا يحق له؟

ويأتي ختام الآية: ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾؛ ليعالج الخوف الذي يدفع بعض الآباء إلى التنازل. فقد يظن الإنسان أن طاعة الله ستكلف أهله خسارة لا تعوض، أو أن الحلال لا يكفي، أو أن قول الحق سيغلق باب المستقبل. يذكره الوحي بأن الأجر عند الله، وأن علمه أوسع من الحساب الذي يراه الإنسان في لحظة القلق.

ويقول سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: 14-15].

قالت الآية: ﴿**مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ**﴾، فلم تجعل العداوة وصفًا عامًا للأسرة. وقد تكون العداوة أثرًا لا نية؛ فيدفع الزوج أو الولد من يحبه إلى ترك طاعة، أو يثبطه عن واجب، أو يطالبه بما لا يجوز، فيكون أثر الطلب في دينه أثر عدو، مع أن صاحبه قد يتحرك بدافع الحب أو الخوف.

ويأتي الحذر مقرونًا بالعفو والصفح والمغفرة. فلا تتحول حماية الدين إلى قسوة في البيت، ولا يصبح فهم الآية ذريعة للشك في كل قريب. يقيم المؤمن حدود الله، ويرفض الضغط الذي يقوده إلى المعصية، ثم يحفظ الرحمة، ويدرك أن الضعف البشري يحتاج إلى إصلاح لا إلى تشفٍّ.

ويتكرر وصف الفتنة لأن الحب القريب يستطيع أن يخفي نفسه داخل التبرير. فالطمع حين يتعلق بالنفس قد يستحي صاحبه منه، أما حين يقول: إنما أفعل ذلك من أجل أبنائي، يظهر له ما يصنعه في صورة تضحية. وقد يكون صادقًا في أصل قصده، ثم يدخل في القصد خوف من كلام الناس أو رغبة في إثبات النجاح.

ومن هنا قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: 9].

قد يبدأ الإلهاء في صورة مسؤولية. يستهلك الإنسان سنواته في تأمين مستوى يتخيله لأسرته، حتى تضعف صلاته وذكره وعلاقته بأهله أنفسهم. يقول إنه يعمل من أجلهم، بينما يأخذ العمل منه الحضور الذي كانوا يحتاجونه، ويؤجل عبادته وتربيته وقربه إلى مرحلة قادمة لا تصل.

وقد يصبح رضا الأسرة معيارًا يتقدم في القرار على رضا الله. لا يصرح الإنسان بذلك، لكنه يسكت عن منكر خشية التوتر، أو يقبل حرامًا حتى يحفظ صورة معيشية، أو يترك واجبًا لأن من يحب لا يرضى به. عندئذ لا يعود الحب مجرد عاطفة؛ صار قوة تشارك في تحديد المرجعية.

ويختلط الحب أحيانًا بحاجة الوالد إلى إثبات نفسه. نجاح الولد يسعده، ثم يتحول في شعوره إلى شهادة على كفاءته ومكانته. وتعثره يجرحه؛ لأنه يرى فيه حكمًا على صورته أمام الناس. فيضغط عليه بما يتجاوز طاقته، أو يحمله حلمًا لم يختره، أو يقارنه بغيره؛ فيبقى الحب حاضرًا، وتدخل معه رغبة الذات في أن تُمدح من خلاله.

وهنا يظهر الفرق بين الرعاية والسيطرة. الرعاية تبذل السبب، وتعلّم وتحمي وتتابع، ثم تعرف أن النتائج بيد الله. أما السيطرة فتريد ضمان مستقبل الولد، ومنع كل ألم عنه، وصناعة اختياراته على صورة يطمئن إليها الوالد. ولأن هذا الضمان مستحيل، يتسع القلق ويزداد الضغط، ويصبح الحب ثقيلًا على المحبوب.

والقرآن يعيد تعريف الرعاية من أصلها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6].

تمتد مسؤولية الأهل إلى المصير الذي لا ينتهي. الطعام والسكن والتعليم والصحة حقوق عظيمة، لكنها لا تستوعب معنى الرعاية كله. قد يفتح الوالد لابنه أبواب الدنيا، ثم يترك باب الصلاة والإيمان والخلق، كأن النجاح الذي يراه الناس يستطيع أن يعوض ضعف الصلة بالله.

ويقول سبحانه:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: 132].

جمع النص بين الصلاة والرزق في موضع يكشف الميزان. السعي مطلوب، والرازق هو الله، والعبادة لا تؤجل حتى تنتهي الضغوط. وعندما يحتل القلق على المستقبل كل مساحة البيت، تعيد الآية ترتيب الأولويات: ابدأ بما أقامك الله فيه، واصطبر، وثق أن العاقبة للتقوى.

وفي السنة تتحول الأسرة إلى رعاية يسأل عنها صاحبها. عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ؛ فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». رواه البخاري (893)، ومسلم (1829).

الرعاية أمانة، وليست ملكية مطلقة للقلوب والمصائر. يؤدي الراعي حقه في التعليم والحفظ والإنفاق والعدل، ثم يعلم أن الهداية والرزق والنتائج بيد الله. هذا الوعي يحمي الأسرة من إهمال يختبئ وراء التوكل، ومن سيطرة تختبئ وراء الحرص.

وتتحول النفقة اليومية نفسها إلى عبادة حين تستقيم وجهتها. قال رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ». رواه البخاري (56)، ومسلم (1628).

لا يطلب الإيمان من الإنسان أن يخفف حبه لأهله حتى يثبت إخلاصه. يرفع هذا الحب من عاطفة قد تميل إلى التملك إلى عبادة تقوم على الرعاية والأمانة. يطعم ويكسب ويحنو ويصبر ابتغاء وجه الله، فيصبح القرب منهم جزءًا من طريقه إليه.

وفي البيت أبواب أجر لا تلفت الأنظار. كلمة رحيمة عند التعب، وصبر على تكرار الحاجة، وتعليم هادئ، وإصلاح بين اثنين، ووقت يمنحه الوالد لولد لا يملك التعبير عن احتياجه، ونفقة ينفقها وهو يرجو وجه الله. هذه الأعمال قد تبدو عادية؛ والنية تحول العادة المتكررة إلى رصيد من العبودية.

وقد تكون الأسرة باب نجاة لصاحبها؛ تردّه حاجاتها إلى الصبر، وتكسر أنانيته، وتعلمه أن يعيش لغيره، وتفتح له أبواب الدعاء والرفق والاحتمال. من قام بحقوق أهله لله لم يكن منشغلًا عن طريق الآخرة؛ كان يسير إليها من داخل بيته.

وتأمل بيتًا اختار أهله الحلال مع ضيق نسبي، بدل صورة أوسع تقوم على شبهة أو ظلم. ربما خسروا بعض ما يراه الناس نجاحًا، لكنهم بنوا في داخل البيت معنى لا يشتريه المال: أن رزق الله لا يطلب بمعصيته، وأن الراحة لا تستحق أن تُدخل الحرام إلى القلوب، وأن كرامة الأسرة في طاعتها قبل مظهرها.

وفي بيت آخر قد يختار أب أو أم حضورًا حقيقيًّا مع الأبناء على توسع اجتماعي لا يحتاجونه. لا يعني ذلك ترك العمل أو الطموح، وإنما معرفة اللحظة التي صار فيها المزيد من الوسائل يستهلك الغاية. وقد يكون ساعة من إنصات صادق، أو مجلس قرآن، أو حوارًا يطمئن طفلًا، أعظم أثرًا من شيء جديد يضاف إلى البيت.

وحب الأهل لله يزيد الرحمة ولا يبردها. يعرف المؤمن أن من وهبه هؤلاء هو الله، وأن حقهم جاء من أمره، وأن نجاتهم أعظم من راحتهم اللحظية. فإذا احتاج الموقف إلى منع أو نصح أو صبر، لم يجعله خوفه من غضبهم يترك واجبه، ولم يجعل قيامه بالواجب عذرًا لإذلالهم.

وقد يظهر التنازل عن المبادئ في لحظة مادية ضاغطة. يقبل الإنسان مصدرًا مشبوهًا للدخل، أو يسكت عن ظلم، ثم يقول: لم يكن أمامي خيار؛ فأنا مسؤول عن أسرة. وقد تكون الظروف شديدة، وتبقى تسمية الضرورة بحاجة إلى صدق. هل استفرغ الأسباب المشروعة، أم منح خوفه حكمًا شرعيًّا قبل أن يختبر البدائل؟

ولا تظهر الفتنة في المخالفات الكبيرة وحدها. قد ينفق البيت طاقة ضخمة لصناعة صورة اجتماعية، ويعطي القليل لبناء الإيمان والخلق. يحرص الأبوان على التفوق الذي يراه الناس، ويغفلان عن الصدق والصلاة والرحمة. ينفقان على كل ما يظهر، ويترددان في وقت يحتاجه الطفل ولا يراه أحد.

وقد يأخذ تأمين المستقبل من الحاضر أكثر مما يعطيه للمستقبل. يطيل الوالد الغياب حتى يصنع حياة أوسع، ثم يكتشف أن طفولة أبنائه عبرت وهو يعدهم بمرحلة قادمة. لا يتعلق الحكم بعدد ساعات العمل وحده؛ السؤال عن الميزان: متى صار جمع الوسائل يلتهم الغاية التي قيل إنه جُمع من أجلها؟

والأسرة التي تبنى لله لا تختصر في شكل واحد للنجاح. قد يفتح الله لولد بابًا لا يشبه ما أراده والداه، وقد تتغير قدرته أو ميوله أو ظروفه. الرعاية الصادقة تساعده على عبادة الله في واقعه، ولا تجعله مشروعًا لتعويض ما فات والديه أو نسخة ينبغي أن تحقق صورتهما أمام الناس.

ويحتاج الحب إلى تواضع أمام القدر. تستطيع أن تقدم لأهلك أسبابًا كثيرة، ولا تستطيع أن تكتب نتائجهم. تبذر وتدعو وتصبر وتراجع، ثم تسلم الهداية والحفظ والرزق لله. هذا التواضع يحميك من اليأس إذا لم تجر الأمور كما أردت، ويحميهم من حمل عبء طمأنينتك.

ويعلمنا القرآن الدعاء الذي يجمع المحبة والعبودية:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74].

قرة العين هنا أوسع من نجاح دنيوي محدود. إنها صلاح يسكن إليه القلب، وبيت يتجه إلى الله، وذرية يكون خيرها امتدادًا للطاعة. ثم لا يقف الدعاء عند صلاح الأسرة داخل حدودها؛ يطلب أن يكون أهلها قدوة للمتقين، فيتحول الحب من انغلاق على المصلحة الخاصة إلى أثر صالح يتعدى البيت.

ويأتي محك الوحدة من قرار وقع بالفعل. استحضر قرارًا اتخذته خلال العام الماضي بسبب زوج أو ولد، وكان فيه حق شرعي أو خلق واجب مهددًا. ماذا اخترت؟ وما الخوف الذي حكمك؟ وهل سميت خوفك مسؤولية، حتى لا تضطر إلى مواجهته؟

ثم أعد تعريف المصلحة. مصلحة الأهل تشمل الحلال، وبركة الكسب، والصلاة، وعدل العلاقة، وسلامة القلب؛ ولا تختصر في كثرة ما يملكون أو غياب كل ألم عنهم. وقد يكون قرار يضايقهم اليوم أرحم من راحة قصيرة تبني حياتهم على مخالفة أو وهم.

حين يحب المؤمن أهله لله، يصبح قربهم بابًا إلى الله. يفرح بهم، ويحفظ حقوقهم، ويمنع خوفه من أن يظلمهم أو يعصي ربه من أجلهم. وبدل أن يحملهم مسؤولية منحه الأمان والخلود، يراهم أمانة جميلة يسير بها إلى دار القرار.

لكن الخوف على الأسرة يفتح بابًا آخر: باب المزيد. تبدأ الزيادة في صورة حاجة، ثم يتغير معنى الحاجة، ويصبح ما كان كافيًا بالأمس قليلًا اليوم. وهنا تنتقل الفتنة من محبوب محدد إلى حركة لا تعرف موضعًا تقول عنده النفس: كفى.

الوحدة السادسة: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ — لماذا لا تقول النفس: كفى؟

كان هناك شيء يراه الإنسان بعيدًا، ويظن أن بلوغه سيصنع له قدرًا واسعًا من الراحة. ثم وصل إليه، وفرح به، واستفاد منه، وبعد مدة دخل في تفاصيل اليوم العادي. لم تختف منفعته، لكن الشعور الأول هدأ، وظهر في الأفق هدف آخر يحمل الوعد نفسه: عندما أصل إليه سأشعر أنني بلغت.

ويضع القرآن لهذه الحركة اسمًا:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: 1-8].

الإلهاء انصراف عن الأهم بسبب شيء استولى على الانتباه والجهد. والتكاثر طلب الزيادة على وجه المغالبة والمقارنة؛ فيريد الإنسان أن يملك أكثر، أو يظهر أكثر، أو يسبق غيره في شيء يقبل العد. لهذا لم تقل السورة: ألهاكم المال؛ فالتكاثر قد يعمل في المال، والألقاب، والشهادات، والمشروعات، والمتابعين، ومظاهر الإنجاز.

والكثرة ليست مذمومة لذاتها. قد يملك الإنسان كثيرًا ويؤدي حقه ويعرف وظيفة ما عنده، وقد يملك قليلًا ويعيش في سباق يستعبده. يكشف التكاثر نفسه حين يصبح العدد قيمة مستقلة، وحين يطلب الإنسان المزيد لأنه زيادة، لا لأنه يخدم واجبًا أو حاجة أو رسالة.

وفي صيغة ﴿أَلْهَاكُمُ﴾ كشف للحاضر، كأن السورة تشير إلى حركة جارية لا إلى حادثة عابرة. يدخل الإنسان في السباق، ويعتاد طريقته، ويبدو له ما يفعله طبيعيًّا؛ لأن كثيرًا من الناس حوله يتحركون في الاتجاه نفسه. ثم لا ينتبه إلى ما أخذه السباق من عمره إلا بعد أن تتباعد المسافة بينه وبين الأشياء التي كان يقول إنها أهم.

وتبلغ السورة بالنهاية إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾. فحركة التكاثر لا تحمل في داخلها نقطة توقف مضمونة. قد يستمر الإنسان في تعديل معنى الكفاية إلى أن تنتهي المدة التي كان يظن أنه يجمع من أجل أن يعيشها. وعند القبر يسقط كثير من الفروق التي شغلت الناس، ويبقى ما قدموه بما في أيديهم.

وتقطع كلمة ﴿كَلَّا﴾ هذا الاسترسال مرارًا. التكاثر يصنع داخل الإنسان قصة مقنعة: ما زلت في مرحلة البناء، وما أطلبه ضروري، وسأهدأ بعد الهدف القادم. يأتي الرد القرآني ليمنع القصة من أن تتحول إلى حقيقة لا تُراجع، ويعلن أن العلم الكامل سيأتي، وأن الإنسان سيرى ما كان يحجبه عنه انشغاله.

ثم تنتقل السورة من علم اليقين إلى عين اليقين. قد يعرف الإنسان نظريًّا أن الكثرة لا تنجيه، ثم يظل سلوكه خاضعًا لها؛ لأن المعلومة لم تدخل في القرار. لو حضر اليقين بقوة توازن ما يراه في أيدي الناس، لتغيرت طريقته في المقارنة والطلب وإنفاق العمر.

وعن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، قال: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي. وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟». رواه مسلم (2958).

يفكك الحديث كلمة «مالي». كثير مما ينسبه الإنسان إلى نفسه قائم في حساب أو مخزن أو صورة اجتماعية، ثم سيتركه. ما أكله فني، وما لبسه بلي، وما قدمه مضى أمامه. ولا يدعو الحديث إلى إضاعة المال أو تعطيل حفظه؛ إنه يحرر معنى الملك حتى لا يخدع صاحبه بحجم لا يصحبه كله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ». رواه البخاري (6436).

الواديان لم يصنعا نهاية للرغبة؛ تحولا إلى نقطة يبدأ منها طلب الوادي الثالث. الزيادة توسع قدرة الإنسان، لكنها لا تبني تلقائيًّا قلبًا يعرف الكفاية. إذا ظل معيار الاكتفاء خارج النفس، تحولت كل درجة إلى منصة يرى منها ما ينقصه، وبقي الوصول مؤجلًا إلى هدف آخر.

وتعمل آلة التكاثر في سلسلة متكررة: يتطلع الإنسان إلى شيء فيمنحه خياله حجمًا واسعًا، ثم يحصل عليه فيرتفع شعوره، وبعد مدة يعتاده، فتظهر مقارنة جديدة، ويرتفع خط الكفاية. لا يشعر في كل مرة أنه يعيد الدورة ذاتها؛ فالهدف الجديد له اسم مختلف، مع أن الوعد الكامن تحته واحد.

وهذه قدرة معروفة في النفس: تعتاد ما يتكرر، حتى تفقد النعمة جزءًا من حضورها الشعوري. وهي قدرة نافعة تعين الإنسان على مواصلة حياته، لكنها تصبح بابًا للخداع إذا فسر تراجع وهج النعمة بأنها لم تكن كافية، واندفع إلى زيادة أخرى بحثًا عن الانفعال الأول.

تصور إنسانًا كان ينتظر فرصة مهنية أو مشروعًا معينًا. بلغ ما طلب، وشعر في بدايته بالامتنان والانتصار، ثم دخلت النتيجة في حياته اليومية. وبعد أشهر لم يعد يقارن نفسه بما كان عليه، بل بمن تقدم عليه في الدرجة نفسها. تغيرت نقطة النظر، وعاد النقص في صورة جديدة، مع أن ما كان يعده إنجازًا قائم في يده.

ثم تدخل المقارنة. قد يكون الإنسان راضيًا عن حاله، ثم يرى ما عند غيره، فيتغير معنى ما في يده. لم تنقص النعمة، لكن المرجع الذي يقيس به نفسه تغير. ويستطيع المجتمع أن يكتب للفرد حاجات لم تكن في حسابه، لمجرد أن ما حوله صار يقدَّم بوصفه المستوى الطبيعي.

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: 131].

مد العين أوسع من نظرة؛ إنه إطالة التطلع حتى يدخل ما عند الآخرين في حساب قيمة النفس. وما يراه الإنسان زهرة قد يكون فتنة لصاحبه، بينما لا يرى الناظر إلا سطحه المضيء. تعيد الآية البصر إلى رزق الرب، فتمنع المظهر من أن يصبح حكمًا على المحروم والممنوح.

وفي زمن الصور المتكررة تتسع المقارنة. يرى الإنسان نتائج منتقاة من حياة غيره، ولا يرى القلق والخسارة والتكاليف خلفها. ثم يقارن يومه الكامل بلحظة مختارة، فيظن أن ما عنده أقل مما ينبغي. وقد يدخل سباقًا لم يختره بوعي، ثم ينفق فيه عمرًا ليبلغ معيارًا صنعه تكرار المشاهدة.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ». رواه مسلم (2963).

يعالج الحديث النظر الذي يحول التفاضل الدنيوي إلى احتقار للنعم وإلى نقص دائم في النفس. ولا يمنع الإنسان من التعلم ممن تقدم أو من رؤية نماذج نافعة، لكنه يرد ميزان الامتنان إلى موضعه، حتى لا تبتلع المقارنة كل ما في اليد.

وقد تتغير مجموعة المقارنة كلما تقدم الإنسان. يقارن نفسه أولًا بمن حوله، فإذا سبق بعضهم انتقل ببصره إلى دائرة أعلى، فعاد الشعور بالنقص. وبذلك لا تضمن الصدارة في مستوى راحة دائمة؛ تفتح العين على مستوى جديد. أما النفس التي تعرف مقصدها فتستفيد من التقدم، ولا تجعل ترتيبها بين الناس تعريفًا لقيمتها.

وتدخل المؤسسات والمشروعات النافعة أحيانًا في الآلة نفسها. يبدأ الرقم أداة لقياس أثر أو ضبط عمل، ثم يتحول إلى غاية، فيبحث المسؤول عن زيادة المتابعين أو الفروع أو البرامج ولو ضعفت الجودة. يصبح الاتساع برهان النجاح، مع أن الرسالة التي أنشئ العمل لخدمتها قد تتراجع.

وقد يقع هذا في مشروع دعوي أو علمي أو خيري؛ فيفرح القائمون بازدياد الأرقام، ثم يصبح الحفاظ على الارتفاع أهم من صدق الرسالة أو عمق الأثر. لا تذم الأرقام في ذاتها، فهي أدوات نافعة، لكن قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يظل قادرًا على كشف اللحظة التي تنتقل فيها الأداة إلى موضع الغاية.

والفرق بين النمو النافع والتكاثر الملهي يظهر في ثلاثة أسئلة. هل للزيادة وظيفة محددة؟ وهل توجد نقطة يتحقق عندها المقصد؟ وهل يقبل الإنسان تركها إذا كان ثمنها واجبًا أو خلقًا أو سلامة قلبه؟ حين تغيب هذه الحدود، يصعب التمييز بين طموح يخدم رسالة وسباق يستهلك صاحبه.

ولا يعني هذا أن يضع المؤمن سقفًا جامدًا لكل تقدم، أو أن يخاف من النجاح. قد يتسع علمه أو أثره أو قدرته، ويكون الاتساع مطلوبًا. الذي يتغير هو موضع الرقم: يبقى أداة تشير إلى جانب من الواقع، ولا يصبح شهادة نهائية على القيمة أو رضا الله.

ويكشف التكاثر علاقته بالعمر. يقول الإنسان إنه يجمع ليعيش، ثم تستهلك حركة الجمع الحياة التي كان يريد حمايتها. يؤجل القرب من أهله، والعبادة التي تصلحه، والعلم الذي ينفعه، والراحة التي تحفظ بدنه، لأنه يهيئ مرحلة أفضل. وحين يصل إلى عتبة، يجد أمامه سببًا آخر للتأجيل.

وسؤال «كم يكفيني؟» لا يجيب عنه السوق. كل مستوى يعرض مستوى أعلى، وكل جماعة ترى فوقها من تتابعه. يحتاج الإنسان إلى تعريف الكفاية في ضوء حقوقه ورسالته وقدرته، حتى لا تكتب المقارنة له حاجة جديدة كلما أغلقت حاجة قديمة. وسيأتي بناء الغنى النفسي مفصلًا في موضعه من الكتاب؛ أما هنا فالمقصود كشف الآلة التي تجعل الكفاية تتحرك.

والكفاية لا تقتل الطموح؛ تمنحه غاية وحدودًا. يعرف الإنسان لماذا يريد الزيادة، وما الحق الذي ستخدمه، وما الثمن الذي يمتنع عن دفعه. فإذا غابت هذه المعرفة، صار لفظ التطور غطاءً لحركة لا وجهة لها، وقد يتقدم الرقم بينما يتراجع القلب.

وتختم السورة بالسؤال:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: 8].

ما في يد الإنسان ليس موضوع مقارنة فقط؛ إنه موضوع مساءلة. وكلما اتسع الموجود اتسعت إمكانات الشكر والنفع، واتسعت معه أبواب التضييع والإلهاء. السؤال الأخروي يعيد للزيادة معناها الصحيح: ماذا صنعت بما أتيح لك؟

ويأتي المحك من تجربة تحققت. اختر شيئًا كنت تراه قبل خمس أو عشر سنوات كافيًا ليمنحك قدرًا مهمًّا من الراحة أو الاعتبار، ثم حصلت عليه وأصبح عاديًّا. ماذا طلبت بعده؟ وهل كانت الزيادة التالية استجابة لحاجة واضحة، أم تحرك خط الكفاية بسبب الاعتياد والمقارنة؟

راجع الثمن أيضًا: ما الوقت الذي أخذته الزيادة الجديدة؟ وما الأثر الذي تركته في عبادتك وهدوئك وعلاقاتك؟ إذا خدمت واجبًا أو نفعًا معلومًا، فهذا نمو له وجهته. وإذا كان مقصدها ألا تبدو أقل من غيرك، فقد اقترب التكاثر من موضع القيادة.

ويبدأ التصحيح قبل الطلب التالي. حدد الوظيفة، والقدر الذي يخدمها، والحق الذي لن تؤجله. ثم انظر إلى ما في يدك بعين الشكر، واستعمله بدل أن تجعله مجرد رقم تحرسه. ولا يحتاج الإنسان إلى ترك كل زيادة؛ يحتاج إلى أن يعرف لماذا يزيد.

وختم حديث الواديين بقول النبي ﷺ: «وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ». فالدورة قابلة للكسر. يستطيع الإنسان أن يوقف سباقًا مضى فيه سنوات، ويعيد توجيه قدرته، ويحول ما في يده إلى عمل نافع. لا يطلب منه أن يمحو الماضي، بل أن يغير السؤال الذي يقوده: من «كيف أصبح أكثر؟» إلى «ما الذي يريد الله مني بما عندي؟».

وبعد أن كشفت سورة التكاثر حركة المزيد، بقيت الصورة الجامعة: كيف يعيش المؤمن داخل دنيا جميلة مرغوبة، يعمل وينتفع، من غير أن تتحول الحلاوة إلى غفلة، أو يتحول ما في يده إلى ملك ينسى صاحبه الحقيقي؟

الوحدة السابعة: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا»

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ». رواه مسلم (2742).

يجمع الحديث صورة المحور في بناء واحد: جاذبية يعترف بها الوحي، ويد تتسلم المتاع مدة، وعين إلهية ترى العمل، وتحذير يحفظ الحلاوة من أن تتحول إلى غرور. تبدأ السنة من الواقع الذي يجده الإنسان، فلا تصف الدنيا قبيحة في كل صورها، وإنما تسمي ما فيها من لذة وجمال ثم تضعه تحت المسؤولية.

الحلاوة مما يذاق ويلذ، والخضرة مما تراه العين فتستحسنه. اجتمع في الوصف باب الحس وباب الصورة؛ لأن الدنيا تدخل إلى القلب من أكثر من طريق. وقد يحب الإنسان منفعة الشيء، أو يحب هيئته وما يمنحه من حضور بين الناس، أو يجتمع له الأمران.

وفي الخضرة معنى التجدد؛ فما يبهت من صور الدنيا تخلفه صور أخرى. تتغير الأشياء التي تجذب الأجيال، وتظهر وسائل جديدة للعرض والمقارنة، بينما تبقى حاجة القلب إلى التقوى ثابتة. لا يكفي أن يعرف الإنسان صورة قديمة للفتنة؛ يحتاج إلى ميزان يرافق تغير الواجهات.

ثم يقول النبي ﷺ: «وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا». يجعل الله بعض الناس خلف بعض، ويضع ما في الأرض في أيديهم مدة، ثم تنتقل الأدوار والقدرات. ما وصل إلى الإنسان لم يبدأ به، وما في يده لن يقف عنده. يتسلم، ويعمل، ثم يترك المكان لغيره.

ويدخل المال في هذا الاستخلاف دخولًا ظاهرًا، وقد خصه القرآن بقوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7]. فالإنسان يملك المال ملكًا معتبرًا تترتب عليه الحقوق والأحكام، لكنه يملكه تحت ملك الله، ويتسلمه مدة ثم يتركه؛ فلا يلغي الاستخلاف ملكه، وإنما ينزع عنه وهم الاستقلال، ويجعله أمانة تدخل في السؤال.

يدخل الإنسان عالمًا سبقه إليه أناس كثيرون. يجد لغة وعلمًا وتجارب وطرقًا ومؤسسات لم ينشئها وحده، ويستفيد من أعمال من لا يعرف أسماءهم. ثم يضيف بقدر ما يستطيع، ويترك وراءه ما ينتفع به من يأتي بعده. هذه الصورة تهدم وهم الإنسان الفرد الذي صنع نفسه من الصفر، وتوقظ معنى الأمانة المشتركة.

ويقرر القرآن هذا التعاقب:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 14].

ويقول سبحانه:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 165].

الاختلاف في الدرجات والقدرات مادة ابتلاء. صاحب القوة ممتحن في استعمالها، وصاحب العلم في أمانته، وصاحب القبول في صدقه، وصاحب الصحة في عمله، وصاحب الأسرة في رعايتها. العطاء يحدد نوع السؤال الذي يواجهه الإنسان، ولا يثبت وحده كرامته عند الله.

وقد يكون من أوتي أقل أرفع عند الله ممن اتسعت له الأسباب؛ لأن الميزان هو العمل. وما يبدو للناس امتيازًا قد يكون حملًا ثقيلًا، وما يرونه نقصًا قد يحجب عن صاحبه أبوابًا من الفتنة. لذلك يتلقى المؤمن نصيبه بوصفه موضع تكليف، لا حكمًا نهائيًّا على قدره.

ويبقى مفهوم الاستخلاف هنا في سياقه النبوي: تعاقب، وأمانة، وامتحان في المتاح. لا تحتاج الوحدة إلى تحميل اللفظ تنظيرات سياسية أو حضارية بعيدة عن سؤالها. يكفي أن يعرف الإنسان أنه يتصرف تحت ملك الله، وأن يده مؤقتة، وأن ما في يده يحمل حقًّا وسؤالًا.

ثم يقول الحديث: «فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ». والله سبحانه عالم بأعمال العباد قبل وقوعها، وإنما يظهرها الابتلاء في عالم التكليف، فيقع الجزاء عليها بالعدل. ولهذا توجه الجملة البصر إلى العمل، لا إلى مقدار ما يملكه الإنسان أو صورته أمام الناس.

وهذا النظر الإلهي يوقظ المسؤولية من دون أن يصنع قلقًا يعطل الانتفاع. يعلم المؤمن أن الله يرى شكره وإحسانه كما يرى غفلته وتعديه. فيستقبل النعمة برجاء وخشية، ويفرح بالعطاء، ثم يسأل عما يريده الله منه بسببه.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53].

هذه الجملة تعيد النعمة إلى مصدرها. قد تجري على يد الإنسان أسباب كثيرة: تعلم، واجتهد، وخطط، وصبر؛ وكل هذه أسباب مأمور بها، وقدرته عليها ونتائجها من الله. الاعتراف بالمنعم لا يلغي جهد العبد، وإنما يمنعه من تحويل السبب إلى قوة يستغني بها عن ربه.

وعندما يرى الإنسان النعمة حقًّا استقر له، تختلف طريقة استعماله لها. أما حين يراها عطاءً وأمانة، يصبح السؤال عن حقها حاضرًا. فقد تكون الزيادة رحمة إذا فتحت الشكر والنفع، وقد تكون فتنة إذا أطلقت الاستعلاء والإلهاء. العطاء نفسه لا يفسر مآله؛ العمل هو الذي يكشفه.

وقد يبدأ وهم الملك من تكرار القدرة على التصرف. يقرر الإنسان فينفذ، ويخطط فتنجح خططه، ويأمر فيطاع، فتضعف في قلبه حقيقة أن قدرته محدودة ومأذون فيها. لا يقول بلسانه إنه المالك المطلق، لكن غضبه من التغير وطريقته في منع الحقوق قد تحمل هذا المعنى.

والاستخلاف يهدم الوهم مع إبقاء المسؤولية. أنت مطالب بحفظ ما استرعاك الله، وتنميته، وإتقانه، ومنع ضياعه. وفي الوقت نفسه تخضع لحدود المالك سبحانه، فلا تستعمل قدرتك في ظلم، ولا تنسب الفضل كله إلى نفسك، ولا تمنع حقًّا أوجبه الله.

وتتغير دلالة النجاح بهذا الميزان. ما يسميه الناس نجاحًا يبقى سؤالًا مفتوحًا: ماذا فعل بك؟ هل زاد تواضعك ونفعك، أم صنع مسافة بينك وبين الناس؟ هل فتح لك باب طاعة، أم استهلك قلبك في حماية الصورة؟ قد يكبر الشيء في عين المجتمع، ويصغر أثره عند الله.

ويقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: 33].

تجمع الآية التقوى، والمصير الفردي، والتحذير من غرور الدنيا. فالحلاوة لا تمنح الخلاص، وشدة المحبة لا تنقل المسؤولية عن صاحبها. يعيش المؤمن قريبًا من أهله، منتفعًا بما آتاه الله، ويظل عارفًا بأن كل نفس ستقف أمام ربها.

ثم يأتي الأمر: «فَاتَّقُوا الدُّنْيَا». تقوى الدنيا يقظة وحدود، لا انسحاب من الحياة. يعرف الإنسان أبواب دخولها إلى قلبه، ويتجنب الحرام، ويحذر من أن تتحول النعمة إلى كبر أو إلهاء، ويستعد للسؤال عنها. يراها بعينين: عين تشهد الحلاوة، وعين ترى العاقبة.

وخص النبي ﷺ فتنة النساء بعد التحذير العام؛ لأن شدة الميل في هذا الباب قادرة على تغيير الحكم في عين صاحبه، وقد وقع لبني إسرائيل من الفتنة فيه ما وقع. التوجيه يخاطب الرجال في هذا السياق، ويحذرهم من أن يجعلوا الميل سببًا لتجاوز حدود الله، مع بقاء الزواج والمرأة من نعم الله العظيمة.

وتكشف السنة بذلك أن معرفة الحكم لا تكفي وحدها. قد يعرف الإنسان ثم تشتد علاقة أو رغبة، فيبدأ في صناعة الاستثناء الذي يوافقه. تأتي التقوى قبل لحظة الضغط: وضوح في الحدود، وبعد عن مقدمات الفساد، وصدق مع النفس في تسمية ما يجذبها.

والشكر هو الصورة العملية للاستخلاف. يبدأ باعتراف القلب بأن النعمة من الله، ويظهر في استعمالها فيما يرضيه، ثم يتعدى أثرها إلى غير صاحبها. لا يستوفي اللسان وحده معنى الشكر إذا تحركت الجوارح بالعطاء في اتجاه يناقض أمر الله.

قال الله تعالى:

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13].

جعلت الآية الشكر عملًا. شكر الصحة أن تُستعمل في واجب ونفع، وشكر العلم أن يؤدى بأمانة، وشكر القبول ألا يتحول إلى استجداء للمدح، وشكر القدرة أن تكف عن الظلم. كل نعمة تفتح بابًا خاصًّا من العبودية، ويظهر صدق الحمد في دخول ذلك الباب.

وتأمل إنسانًا اتسعت له قدرة بعد سنوات من محدودية الاختيار. صار صوته مسموعًا، أو توسع مشروعه، أو دخل مرحلة من الصحة والسعة تمنحه ما لم يكن يملكه. أول طبقات الشكر أن يرى هذه الزيادة فضلًا، فلا يروي قصته كأنه صنع كل شيء منفردًا، ولا يحتقر من لم تتح لهم أسبابه.

ثم تأتي طبقة الاستعمال. يسأل: ما الحق الذي أصبح قادرًا عليه؟ ربما صار يستطيع إنصاف موظف، أو تعليم طالب، أو تخفيف حاجة، أو حماية شخص ضعيف، أو تخصيص وقت لعمل نافع. النعمة التي لا تغير دائرة الواجب والنفع في حياة صاحبها لم تبلغ بعد تمام شكرها العملي.

وتأتي بعد ذلك طبقة الخلق. فقد يزداد الإنسان قدرة، ويزداد معها صبره وتواضعه، فيبقى قريبًا من الناس الذين عرفوه قبل اتساعه، ويستمع لمن يخالفه، ولا يجعل نجاحه رخصة للخشونة. وقد يقع العكس، فتتحول النعمة إلى مسافة وعجب، ويصبح صاحبها أشد حساسية لأي نقد؛ لأنه لا يحمي العمل وحده، بل يحمي صورة بناها عن نفسه.

وتظهر طبقة أخرى من الشكر حين يعرف الإنسان حدود النعمة. لا يطلب منها ضمان المستقبل، ولا يظن أن استمرارها حق مكتسب. يحفظها ويعتني بها ويخطط، ثم يبقى قلبه قادرًا على عبادة الله إذا تغيرت. بذلك لا يصبح الخوف من زوالها قوة تدفعه إلى الظلم أو التنازل.

وأكمل الشكر أن ينتقل الخير. فالنعمة التي تبقى محصورة في لذة صاحبها لم تستنفد ما يمكن أن تصنعه. قد يتحول علم إلى تعليم، ومال إلى كفاية محتاج، ومكانة إلى نصرة مظلوم، ووقت إلى صحبة نافعة، وبيت إلى موضع سكينة وصلاح. عندها يصير ما في اليد أوسع من صاحبه.

وقد تزداد نعمة في حياة الإنسان، فتغير شبكة اختياراته. تمنحه فرصة جديدة، وتخلق معها مخاوف وتكاليف. قد يستهلك وقتًا طويلًا في حمايتها، ويزداد قلقه على فقدها، وتتغير علاقته بمن لا يملكون مثلها. لذلك تحتاج النعمة الجديدة إلى مراجعة مبكرة، قبل أن تصبح بيئة كاملة تعيد تشكيل القلب.

ولا تطلب المراجعة أن يشعر الإنسان بالذنب كلما فرح. الفرح بفضل الله يمكن أن يكون من الشكر، ويمنح النفس قوة على العمل. الذي يحتاج إلى الحذر هو انتقال الفرح من شهود المنعم إلى الاستغناء عنه، أو تحول النعمة إلى تعريف نهائي للذات.

والنموذج الإيجابي لا يقاس بمقدار ما حرم الإنسان نفسه منه. قد يملك القليل ويكون شديد التعلق، وقد تتسع عليه النعم ويجري خيرها في أبواب واسعة. المعيار أن تزيده النعمة اعترافًا بالمنعم، وخضوعًا لحكمه، ورحمة بعباده، وقدرة على بذل ما صار قادرًا عليه.

ويأتي محك الوحدة في نعمة اتسعت بالفعل. اختر نعمة زادت في حياتك خلال العام الأخير: قدرة، أو صحة، أو علمًا، أو علاقة، أو حضورًا بين الناس، أو مساحة أوسع من الاختيار. ثم راجع أول القرارات التي اتخذتها بعد اتساعها: ماذا زاد في طاعتك ونفعك؟ وماذا زاد في استهلاكك وقلقك؟

لا تكتفِ بشعور الامتنان. انظر إلى الأثر؛ فقد يشكر اللسان بينما تعمل النعمة في اتجاه آخر. من انتفع بها؟ وما الحق الذي أصبح أيسر عليك ولم تفعله؟ وما الخلق الذي تغير حين صار لك ما لم يكن لك؟

إذا ظهر خلل، يبدأ الإصلاح برد النعمة إلى صاحبها: هي من فضل الله، وصلت بقدر، وستكون موضع سؤال. ثم تحدد لها وظيفة ترضي الله، وتضع حدودًا لا تتجاوزها، وتجعل جزءًا من خيرها يصل إلى غيرك. لا يلزم أن تترك النعمة؛ المطلوب أن تمنعها من امتلاكك.

وتبقى المسؤولية مقرونة بالرجاء؛ فقد ختمت آية الأنعام بقول الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 165]. يستطيع الإنسان أن يصحح طريقة استعمال ما في يده، ويؤدي حقًّا أخره، ويرد قلبه إلى الله بعد أن بدأ العطاء يطغى عليه.

هكذا تكتمل صورة المحور: رغبة فطرية تحتاج إلى ترتيب، وأهل يحبهم الإنسان فيمتحن في رعايتهم، وتكاثر يحرك خط الكفاية، ودنيا حلوة خضرة يتسلمها العبد أمانة. لم يعد السؤال: هل تحب الدنيا؟ فكل إنسان يجد فيها ما يحب. السؤال الأدق: من يحكم من؟

ويبقى الاختبار الذي يكشف الجواب بوضوح: ماذا يحدث حين يقف ما تحبه في جهة، ويأتي أمر الله أو حق الآخرة في الجهة الأخرى؟ هناك لا تكفي المشاعر ولا الأقوال العامة؛ يتكلم القرار.

ومن هنا يبدأ المحور الثالث:

المحور الثالث: حين تنافس الدنيا الآخرة

مقدمة المحور: حين يصبح المحبوب حاكمًا

يحب الإنسان من الدنيا أشياء كثيرة، ويبقى الحب في موضعه الصحيح ما دام ينتفع بما أباح الله، ويؤدي ما أوجب، ولا يمنح النعمة حقًّا ليس لها. يفرح بأهله وماله ونجاحه، ويتألم إذا فاته ما يرجوه، ثم يظل أمر الله هو الميزان الذي ترد إليه الرغبة والخوف. وقد يتجاوز المحبوب موضع الانتفاع فيدخل ببطء إلى موضع الحكم؛ فيصير الحفاظ عليه سببًا لتأويل الحق، أو تأخير الواجب، أو تخفيف قبح التنازل في النفس.

لا يقع هذا التحول غالبًا في إعلان يقول فيه المرء: اخترت الدنيا على الآخرة. يقع في مواقف تبدو صغيرة ومتباعدة: حقيقة تُخفى حتى لا تضيع مصلحة، وحق يؤجل لأن وقته غير مناسب، ونجاح لغيرنا يوقظ في القلب خوف التأخر. ومع تكرر الاختيارات يتكوّن ميزان عملي قد يخالف ما يقرره اللسان؛ فالإنسان يعرف ترتيب قلبه في ساعة المزاحمة أكثر مما يعرفه في ساعة السعة.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: 16-17]. تكشف الآيتان سلطان العاجل حين يدخل الاختيار، ثم تحذر السنة من صورة تتسع فيها الفتنة من قلب الفرد إلى ميدان الجماعة: تُبسط الدنيا، فيتنافسها الناس، فتتغير المقاصد والأخلاق والعلاقات.

ومع ذلك، فطلب المصلحة القريبة ليس في ذاته إيثارًا مذمومًا؛ فقد أمرت الشريعة بحفظ النفس والأهل والمال، وأباحت الطيبات، وجعلت السعي في المعاش بابًا من أبواب القيام بالواجب. موضع الخطر هو أن تستقل المصلحة عن حكم الله، أو تزيح واجبًا، أو تحمل على ظلم، أو تجعل رضا القلب وسخطه تابعين لما يأخذ من الدنيا وما يفقد.

ينظر هذا المحور في حركتين متصلتين: كيف يغلب الشاهد المحسوس في قرار الإنسان، وكيف يشتد سلطانه حين يدخل الآخرون في الميزان. والسؤال الذي يقف خلف الحركتين واحد: متى تظل الدنيا نعمةً في اليد، ومتى تنتقل إلى موضع تقود منه القلب؟

الوحدة الثامنة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: 14-17]. تبدأ الآيات بطريق الفلاح: تزكية ترفع القلب عن دنسه، وذكر يرده إلى ربه، وصلاة تجعل العبودية فعلًا حاضرًا في الحياة. ثم تأتي ﴿بَلْ﴾ كاشفةً حركة تعاكس هذا الطريق: تقديم الحياة الدنيا مع أن الآخرة خير في حقيقتها وأبقى في مدتها.

الإيثار اختيار يقع عند المزاحمة. والدنيا لا تنافس الآخرة لمجرد أن الإنسان يسكن بيتًا، أو يعمل، أو يطلب رزقًا، أو ينتفع بطيب أباحه الله. تدخل المنافسة حين تطلب المصلحة العاجلة أن تتقدم على حق الله، أو حين يختل ترتيب الحياة حتى يأخذ الأدنى أفضل العمر والطاقة، ويبقى للأعلى ما يفضل. عندئذ لا يكفي أن نسأل ماذا يقول الإنسان عن الآخرة؛ الأصدق أن نسأل أي قيمة تحكمه حين لا يمكنه جمع كل ما يريد.

وصفت الآية الآخرة بأنها ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾؛ فالموازنة ليست بين منفعة حقيقية ووهم محض. قد تحمل الدنيا منفعة قريبة، وقد يكون تركها مؤلمًا، لكن خيرها محدود وبقاءها منقطع. وما عند الله يجمع كمال الجزاء ودوامه. ومع هذا قد يعرف العقل الفرق، ثم يميل القرار إلى الأدنى؛ لأن الشاهد يضغط على الحس، أما الغائب فلا يحضر في الميزان إلا بقدر ما يحيا اليقين في القلب.

لهذا جعل القرآن اليقين بالآخرة من أوصاف أهل الهدى فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4]. فالعلم بأن الآخرة حق أصل لا غنى عنه، واليقين أبلغ من مجرد معرفة الخبر؛ إنه حضور المخبر عنه في القلب حتى يدخل في تقدير الربح والخسارة، ويصير وعد الله ووعيده عاملين حقيقيين في القرار.

قد يعرف الإنسان خبر الآخرة كما يعرف حقيقة بعيدة لا تنازعه في يومه، فيبقى أثرها ضعيفًا عند الضغط. ويقوى اليقين حين ينتقل الخبر من هامش الوعي إلى مركز الرؤية: يستحضر العبد أنه موقوف بين يدي الله، وأن الحق الذي يختاره أو يتركه مكتوب، وأن ما يفوته اليوم لا يساوي ما يفوته هناك. عندها لا تختفي الدنيا، لكنها تفقد احتكارها للمشهد.

يعرف كثير من الناس أن الصدق واجب، وأن الحرام لا يبارك، وأن ما عند الله أبقى، ثم يتصرفون لحظة الضغط كأن الذي أمام العين هو الحقيقة الوحيدة. هنا تظهر المسافة بين معلومة صحيحة ويقين عامل. اليقين لا يلغي الخوف البشري، ولا يجعل الخسارة المحسوسة سهلة، لكنه يمنع الخوف من إعادة تسمية الباطل، ويجعل الغيب الذي أخبر الله به حاضرًا إلى جوار الحساب المرئي.

والقلب لا يبقى على درجة واحدة من الحضور. قد يصفو فيرى المآل قريبًا، ثم تزدحم عليه الأسباب والوجوه والأرقام فيثقل عليه ما كان واضحًا. لذلك كان ذكر الله والصلاة في مطلع آيات الأعلى جزءًا من علاج الإيثار، لا مقدمة منفصلة عنه؛ فالذكر يعيد القلب إلى ربه، والصلاة تقطع اندفاع اليوم لتضع العبد مرات بين يدي من بيده الدنيا والآخرة.

ويصف القرآن قوة العاجل في موضع آخر: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [القيامة: 20-21]. سماها العاجلة، فكأن سرعة العطاء جزء من فتنتها. يرى الإنسان المال الذي قد يخسره، والباب الذي قد يغلق، والوجه الذي قد يغضب، والحرج الذي سيقع اليوم. أما ثواب الصدق، وبركة الحلال، وحفظ الله، وما يدخره لعبده؛ فكل ذلك حاضر بخبر الله، غائب عن اليد والعين.

كانت طالبة جامعية تنتظر منحة تعينها على إتمام دراستها. بقي على تسليم الطلب توقيع واحد، ثم نبهتها زميلة إلى أن بيان عملها الجزئي قد يخفض فرص قبولها، واقترحت أن تترك الخانة فارغة؛ فالدخل قليل، والجهة . كما قالت . لن تتضرر. لم تر الطالبة في اللحظة الأولى كذبة كبيرة؛ رأت رسوم الفصل، وتعب أسرتها، واحتمال أن تتوقف دراستها عامًا كاملًا.

كبرت الخسارة في خيالها، وصغر الإخفاء. قالت لنفسها إن المنحة ستصرف في علم نافع، وإنها ستعوض المال بعد التخرج، وإن غيرها يفعل أكثر من ذلك. بقي القلم فوق الورقة، وكل مبرر يخفف ثقل التوقيع قليلًا.

ثم توقفت عند حقيقة لم تتغير: الإقرار يطلب منها معلومة كاملة، وما تخفيه مؤثر في الاستحقاق. لم تجد طمأنينة مفاجئة، ولم يختف خوفها؛ وضعت المعلومة كما هي، وأرسلت الطلب وهي تعلم أن الصدق قد يكلفها الفرصة التي انتظرتها طويلًا.

لم تُقبل في تلك الدورة. عادت إلى بيتها مثقلة، ولم تشعر ببطولة؛ بكت من الخوف، وضاقت بالطريق الأطول الذي ينتظرها، ثم بدأت تبحث عن عمل إضافي وخيارات أقل راحة. بقي في قلبها مع الألم شيء لم تمنحه المنحة المفقودة: أنها لم تضطر بعد القرار إلى الهرب من نفسها. وبعد أشهر جاءها دعم من طريق آخر لم يكن في حسابها، ولم تفهم من ذلك أن كل طاعة يعقبها تعويض دنيوي مماثل، بل فهمت أن الطاعة لا تحتاج إلى ضمان من الدنيا حتى تكون هي الاختيار الصحيح.

يكشف هذا المشهد ما تصنعه العاجلة في النفس. الخوف يقدّم الاحتمال السيئ كأنه يقين، ثم يعرض التنازل كأنه تفصيل مؤقت. واليقين بالله لا يعد الإنسان بأن كل مصلحة سيتركها ستعود إليه في الصورة التي يحبها؛ يعده أن طاعته لا تضيع، وأن رزقه ونتائج عمله لا تخرج من ملك الله، وأن خسارة الدنيا لا تساوي خسارة الوجهة.

قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: 18-19]. طالب العاجلة لا يملك حتى العاجلة على الوجه الذي يريد؛ إنما ينال منها ما شاء الله لمن شاء. وقد يخالف الإنسان ليحفظ فرصة، ثم تضيع الفرصة نفسها؛ فيخسر سلامة الطريق ولا يشتري النتيجة.

أما مريد الآخرة فلم تكتف الآية بإرادته، بل قرنتها بالسعي الذي يليق بها وبالإيمان. إرادة الآخرة ليست شعورًا حسنًا يسكن القلب مع بقاء القرار للعاجلة، وإنما وجهة تظهر حين تفرض الطاعة كلفتها. وبذلك يتحول اليقين من معنى نظري إلى قوة عملية: يرى صاحبُه الأسباب، ويبذلها، ثم يرفض أن يجعل المعصية سببًا لا غنى عنه؛ لأنه يعلم أن الأسباب كلها تحت سلطان الله.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ». رواه مسلم (2822). فالطريق إلى ما يرضي الله قد تحيط به كلفة تكرهها النفس، والطريق إلى المعصية قد تحيط به راحة أو منفعة أو لذة. لذلك لا يصلح شعور السهولة دليلًا على صحة الاختيار، كما لا يكون كل مؤلم طاعة ولا كل محبوب معصية؛ الحكم لله، والمشاعر تكشف مقدار المجاهدة ولا تنشئ الحلال والحرام.

تظهر فتنة العاجل كذلك في التنازلات الصغيرة. قد يبدأ الأمر بغموض مقصود في معلومة، أو وعد يعرف صاحبه أنه لا يستطيع الوفاء به، أو سكوت عن حق لأن الكلام يكلّف قبولًا أو موقعًا. يربح المرء بهذه الأشياء وقتًا أو مالًا أو راحة، ثم يتعلم قلبه درسًا خطيرًا: المخالفة نجحت. وإذا لم يراجع نفسه، صار نجاح الوسيلة في تحقيق الغرض حجةً على تكرارها.

لا يتغير الحد الداخلي دفعة واحدة. في المرة الأولى يطول التردد، ويحتاج الإنسان إلى مبررات كثيرة. في الثانية يجد العبارة التي تريحه بسرعة، ثم يصبح ما كان يستنكره جزءًا من طريقة العمل. الحكم الشرعي باق، لكن حساسية القلب تضعف كلما اقترنت المخالفة بمكافأة قريبة.

ومن هنا كانت القرارات الصغيرة كاشفة؛ لأنها تبني الطريق الذي ستسلكه النفس حين يأتي الامتحان الأكبر. وهي لا تمنحنا حق الحكم على سرائر الناس، فقد يقع المؤمن في ضعف ثم يتوب، وقد يترك مصلحة لدافع آخر غير صالح. المقصود أن يقرأ المرء نفسه من أثر متكرر، لا أن يحول الواقعة الواحدة إلى تزكية دائمة أو إدانة نهائية.

وفي عتاب الله في أسرى بدر جاء هذا الفصل الحاد بين المرادين: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 67]. والآية في سياقها الخاص لا تُنتزع لتسوية الوقائع المختلفة، لكنها تكشف معنى يتكرر في القلب: العرض القريب قد يبدو مصلحة راجحة، ثم يأتي الوحي فيصحح جهة الإرادة ويعيد الآخرة إلى موضع الحكم.

ويعرض القرآن النهاية التي يبلغها هذا المسار إذا استقر وصار طغيانًا فقال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: 37-39]. لا يصح تنزيل هذا الوصف على كل ضعف عابر، لكنه يكشف خطورة أن يتحول الإيثار من زلة يتوب منها صاحبها إلى وجهة مستقرة يقدم بها الدنيا كلما نازعته الآخرة.

والضبط الشرعي هنا ضروري حتى لا تتحول المحاسبة إلى وسوسة. فهناك معصية صريحة يقدم فيها الإنسان مالًا أو منصبًا أو قبولًا اجتماعيًّا على أمر معلوم لله؛ وهذه تحتاج إلى توبة وترك للمخالفة ورد الحقوق بحسب الحال.

وهناك استغراق في مباح يزاحم واجبًا أو يطرد ما هو أولى. وقد يأثم صاحبه إذا ضيّع واجبًا، لكنه لا يأثم لمجرد أن مصلحته عاجلة أو أن عمله دنيوي؛ فالحكم يتعلق بما فُعل وما تُرك وبالقدرة والواجبات المحيطة، لا بالانطباع العام عن حياة الشخص.

وقد يختل ترتيب الحياة من غير ظهور معصية معينة: عمل يبتلع الانتباه كله، أو توسع في المباح يجعل العبادة والعلم والأسرة في هامش الأيام. هذا موضع محاسبة وإصلاح، لكنه لا يعطى حكم الحرام بإطلاق من غير تفصيل. الشريعة أعدل من أن تجرّم الناس لمجرد طلبهم الاستقرار أو النجاح، وأدق من أن تتركهم يسمون كل توسع دنيوي ضرورة لا تراجع.

العمل الدنيوي نفسه قد يكون من عمل الآخرة. من يطلب الحلال ليعف نفسه ويقوم بمن تلزمه نفقتهم، ويتقن عملًا ينفع الخلق، ويحفظ الأمانة والحقوق، ويقصد بذلك رضا الله؛ لا يكون قد خرج من طريق الآخرة لأنه أمضى يومه في متجر أو مدرسة أو مستشفى. النية الصالحة والطريق المشروع والحق المؤدى تنقل العمل من مجرد عادة إلى عبادة، وتفسد الوجهة حين يطلب منه العمل أن يعصي الله أو يبتلع ما كلف به سواه.

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: 20]. اختار القرآن صورة الحرث؛ لأن الزارع يبذل اليوم وينتظر الثمرة، ولا يطالب البذرة أن تعطيه محصولها لحظة وضعها في الأرض. أعمال الآخرة كذلك: صدق قد يكلف فرصة، وأمانة قد تبطئ ربحًا، وعفة تغلق بابًا قريبًا، ثم يكون ما ادخره الله خيرًا وأبقى.

ويستطيع المؤمن أن يحرث دنياه للآخرة: يزرع في العمل نية صالحة، ويقيمه على الحلال، ويؤدي به الحقوق، ويجعل ثمرته عونًا على الطاعة والنفع. المنافسة ليست بين الصلاة وكل وظيفة، ولا بين الآخرة وكل بيت ومال؛ تقع حين يطلب المراد الدنيوي إزاحة مراد الله، أو حين تستولي غاية محدودة على القلب حتى يصير كل شيء خادمًا لها.

وتكشف الحياة اليومية جهة الحرث بعلامات واقعية: هل تبقى الأمانة ثابتة حين يتغير الربح؟ هل تحتفظ الفرائض والحقوق بمكانها عند ضغط المواعيد؟ هل يستطيع الإنسان أن يرى النجاح نعمة لا حكمًا على منزلته

عند الله؟ لا تمنح هذه العلامات يقينًا بباطن النفس، لكنها تمنع النية الحسنة المعلنة من أن تكون ستارًا يحجب النتائج الفعلية.

اليقين الذي يقاوم إغراء العاجل لا يتكون من أمنيات. يقوى حين يكثر القلب من ذكر الله، ويقرأ وعده ووعيده كخطاب موجه إليه، ويرى في الصلاة عودة متكررة إلى الميزان، ثم يصدق ما علمه في موقف عملي.

وكل مرة يتحمل فيها كلفة الحق يتعلم أن الخوف كان أوسع من الخسارة، وأن طاعة الله لم تخرجه من الحياة، وأن القلب يستطيع أن يعيش من غير أن يشتري الطمأنينة بمعصية. وقد تقع خسارة مؤلمة فعلًا ولا يأتي بدلها العاجل؛ عندها يظهر اليقين في صورته الأصفى: أن يبقى العبد على اختياره لأن رضا الله خير وأبقى، لا لأن الدنيا قدمت له تعويضًا سريعًا.

استحضر واقعة حقيقية تعارضت فيها مصلحة عاجلة مع حق شرعي أو خلق واجب. ما الخسارة التي خفتها؟ وكيف كبرت في خيالك؟ وما العبارة التي جعلت بها التنازل مقبولًا، أو ما المعنى الذي ثبتك على الحق؟ ثم انظر إلى ما بقي في قلبك بعد القرار؛ فذلك الباقي يكشف ميزانك أصدق من الصورة التي تحبها عن نفسك.

إذا ضعفت يومًا، فباب التوبة لا يغلق. تسمية الخطأ باسمه، ورد الحق، وتصحيح ما يمكن تصحيحه، وقطع الطريق على التكرار؛ كلها تعيد الآخرة إلى موضع الحكم. وقد لا يستطيع الإنسان إزالة كل أثر دنيوي لقراره، لكنه يستطيع أن يمنع زلة واحدة من أن تتحول إلى قيمة دائمة تقود اختياراته.

وحين يغلب العاجل في قرار فردي يظل أثره محصورًا نسبيًّا، لكن الفتنة تتسع حين تُفتح الدنيا على الناس ويدخل بعضهم في ميزان بعض. هناك لا يضغط على الإنسان حب الشيء وحده؛ يضغط عليه أيضًا خوفه من أن يسبقه غيره.

الوحدة التاسعة: «مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ» — خطر الوفرة والتنافس

عاد أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه من البحرين بمال، فسمعت الأنصار بقدومه، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ. فلما انصرف تعرضوا له، فتبسم حين رآهم، وقال: «أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِشَيْءٍ؟» قالوا: أجل يا رسول الله. قال: «فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ». رواه البخاري (3158)، ومسلم (2961) من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه.

بدأ الحديث بالبشارة، ولم ينكر انتظارهم للمال أو يعامل رغبتهم في نصيب منه كخطيئة. المال القادم من البحرين خير ينتفع به الناس، والسعة قد تعين على واجبات وأبواب بر كثيرة. ثم فتح النبي ﷺ بابًا من الخوف لم يكن هو الباب المتوقع: قد يأتي الخطر من النعمة المبسوطة كما يأتي من الحاجة الضاغطة، وقد يكون امتحان اليد الممتلئة أشد خفاء من امتحان اليد الخالية.

قوله ﷺ: «لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ» لا ينفي شدة الفقر ولا فتنته، ولا يجعل كل غني أشد خطرًا من كل فقير. الفقر قد يرهق النفس والجسد، ويعجز صاحبه عن حقوق، ويدفع بعض الناس إلى سؤال أو معصية. الحديث يصحح وهمًا آخر: أن زوال الحاجة يساوي زوال الفتنة، وأن المال إذا كثر صار أمانًا خالصًا. قد تنتهي مشكلة، ثم يبدأ امتحان لم يكن ظاهرًا حين كانت الخيارات قليلة.

يرسم اللفظ النبوي حركة متتابعة: بسط، ثم تنافس، ثم هلاك. السعة في ذاتها لا تستلزم الهلاك؛ فقد تكون نعمة يشكرها صاحبها وينفع بها.

المنعطف يقع حين تتحول النعمة إلى ميدان يقيس فيه الناس أنفسهم بعضهم ببعض، فيستخرج التنافس من القلوب حسدًا وكبرًا وخوفًا على الصورة، ويهيئها لتجاوز الحقوق حتى لا يتأخر الإنسان عن غيره. وهكذا ينتقل المال من منفعة يطلبها المرء إلى ترتيب اجتماعي يريد أن يثبت موقعه فيه.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: 6-8]. لم يقل: استغنى، بل قال: ﴿رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾. إنها قراءة يقدمها الإنسان لنفسه حين تنتظم الوسائل في يده؛ يملك مالًا أو جمهورًا أو نفوذًا، وتبقى حاجته إلى الله كاملة، لكن شعوره بالحاجة يضعف، فيجرؤ على ما لم يكن يجرؤ عليه وهو يرى ضعفه.

ثم تقطع الآية وهم الاستغناء بقوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾. فالذي اتسع مشروعه راجع، والذي علا اسمه راجع، والذي سبق منافسيه سيقف مجردًا من الأرقام التي أحاطت به. استحضار الرجوع لا يقتل الطموح ولا يعطل التخطيط؛ يعيد القدرة إلى صفتها الحقيقية: أمانة مؤقتة، لا شهادة مطلقة بقيمة صاحبها ولا إذنًا له أن يطغى.

كان أحد المسؤولين عن مشروع تعليمي نافع يتابع بناءه منذ سنوات. بدأ بفريق صغير، وكان يفرح بكل طالب ينتفع، ويرى نجاح أي جهة تعمل في المجال توسعًا للخير الذي يؤمن به. ثم ظهر مشروع قريب من فكرته، وحسن أصحابه عرضه، وانتشر اسمهم سريعًا. هنأهم في أول الأمر بصدق، وقرأ تجربتهم باهتمام، ثم بدأ شيء دقيق يتغير في داخله.

صار يفتح أرقامهم قبل أن يراجع أثر عمله. يقارن عدد المسجلين، وحضور المنصات، وحجم التبرعات، ويبحث عن تفسير لكل تقدم يحققونه. كان يقول لفريقه إن المقارنة ضرورية للتطوير، وفي قوله قدر صحيح؛ فمعرفة التجارب النظيرة قد تحسن العمل. لكن الدافع لم يبق تطويرًا خالصًا. أصبح نجاحهم يثقل صدره، وصار الخبر الذي يخدم الميدان كله يصل إليه أولًا بوصفه خبرًا عن تقدمهم عليه.

ضغط على فريقه لإطلاق برنامج لم ينضج، وخفف بعض معايير القبول حتى ترتفع الأعداد، وطلب إبراز رقم كبير من غير بيان أن جزءًا منه لا يمثل مستفيدين فاعلين. لم يسم ذلك كذبًا؛ سماه صياغة تسويقية. وحين نبهه زميل قديم إلى أن الرسالة بدأت تخدم الصورة أكثر مما تخدم الطالب، شعر أن الاعتراض يهدد سلطته، ورد بقسوة لم تكن من عادته.

في مساء أعلن فيه المشروع الآخر نجاح مرحلة جديدة، جلس وحده أمام التقارير. كانت أرقام مشروعه قد ارتفعت، ومع ذلك لم يشعر بالفرح الذي توقعه؛ لأن الرقم الآخر ظل أعلى. عندها رأى التغير بوضوح: الغاية التي بدأ من أجلها لم تعد تكفيه. كان يريد نفع الناس، ثم صار يريد أن يُعرف أنه الأكثر نفعًا. لم يهجر رسالته كلها، لكنه أدخل عليها غاية جديدة أخذت تطلب أن تخدمها الرسالة.

راجع في الأيام التالية قراراته، وقرأ ملاحظة زميله مرة أخرى من غير غضب. ثم اجتمع بالفريق، واعترف بأن استعجاله أفسد بعض الطريق، وصحح الرقم المضلل، وأوقف البرنامج حتى يستكمل شروطه. لم يكن التصحيح بلا ثمن؛ خسر حملة أعدت، وتعرض لنقد، وشعر أن صورته اهتزت أمام بعض من يقودهم. لكنه استعاد معنى كان يوشك أن يفقده: نجاح المشروع لا يبرر خيانة الرسالة التي أنشئ من أجلها.

تواصل بعد ذلك مع المشروع الآخر طالبًا تعاونًا في جانب يخدم الطلاب جميعًا. وفي أول نجاح مشترك وجد في قلبه بقايا ضيق حين حظي الطرف الآخر بظهور أكبر. لم ينكر الشعور ولم يطعه؛ هنأهم علنًا، وذكر فضلهم بوضوح، ثم عاد إلى فريقه يسأل عما يمكن تحسينه. هذا نموذج إيجابي غير متكلف: منافس يسعى إلى الإتقان، ويعرف أن النفس تحب السبق، ثم يربيها على أن نجاح غيره في الخير ليس هزيمة له.

هنا يظهر الفرق بين الإتقان والتنافس المفسد. الإتقان يسأل: كيف أؤدي الأمانة على أحسن وجه؟ أما التنافس المفسد فيجعل السؤال الطاغي: كيف أبقى أمام فلان؟ قد يستخدم الدافعان الأدوات نفسها؛ مراجعة الأرقام، وتحسين المنتج، وتوسيع الحضور. لكن أثرهما مختلف: الأول يفرح بتحقق الخير ولو جاء على يد غيره، والثاني يشعر أن الخير الذي يصنعه الآخر سحب من رصيده الشخصي.

والتنافس غير التكاثر وإن اجتمعا. التكاثر حركة تطلب المزيد وتؤخر حد الكفاية؛ كلما حصل الإنسان على شيء صار عاديًّا وطلب بعده شيئًا آخر. أما التنافس فيدخل الآخرين في الميزان: لا يكفي أن يزداد ما عندي، بل يقلقني أن يزداد ما عندك أكثر. قد يكون المرء راضيًا بدخله حتى يعلم دخل زميله، وفرحًا بمشروعه حتى يرى شهرة مشروع مشابه، ثم يتغير إحساسه بما يملك من غير أن ينقص منه شيء.

يحمل التنافس قوة اجتماعية تتجاوز رغبة الفرد. البيئة تعرف النجاح، وتعرض باستمرار ترتيب الناس، وتكافئ الظهور، وتحول الأرقام إلى لغة تبدو محايدة وهي قادرة على إعادة صياغة المقاصد.

وفي الأزمنة التي تعرض فيها إنجازات الناس كل يوم، تتسع المقارنة حتى تدخل إلى البيوت والقلوب من غير استئذان. يرى الإنسان النتائج ولا يرى سنوات التفاوت في الفرص، ولا الأثمان الخفية، ولا جوانب الحياة التي لم تعرض. ومع ذلك يقيس حياته كلها بلقطة من حياة غيره، فتتحول نعمة الآخر من خبر يدعو إلى الفرح أو التعلم إلى محاكمة مستمرة لما عنده.

ومن يعمل في سوق أو مؤسسة أو مجال عام يسمع رسائل متكررة: إن لم تتوسع تراجعت، وإن لم تأخذ الفرصة أخذها غيرك، وإن اعترفت بفضل منافسك ضعفت صورتك. بعض هذه العبارات يصف واقعًا، لكنه يصبح خطرًا حين يتحول إلى أخلاق بديلة تسمح بما منعه الله وتختصر النجاح في البقاء أمام الآخرين.

عند اشتداد المقارنة يتغير معنى الآخر. كان أخًا أو شريكًا في مصلحة عامة، ثم صار تهديدًا. يبدأ الأمر بتتبع أخطائه بفرح خفي، ثم بتقليل إنجازه، أو حجب معلومة نافعة عنه، أو تأخير حقه، أو نسبة عمل مشترك إلى النفس. لا يعود الضرر توترًا داخليًّا فحسب؛ ينتقل إلى العدل والصدق والوفاء. وهنا نفهم قوة اللفظ النبوي: «وَتُهْلِكَكُمْ»؛ فقد يهلك التنافس الدين حين يفتح الحرام، والعلاقات حين ينشر البغي، والعمر حين يجعله سباقًا لا ينتهي.

الهلاك لا يلزم أن يأتي في انهيار مشهود. قد ينجح المشروع، ويكثر المال، ويصفق الناس، بينما يفقد صاحبه القدرة على الشكر والفرح بخير غيره. يستيقظ كل يوم محتاجًا إلى رقم جديد يثبت له أنه ما زال متقدمًا. إذا أعطي رضي، وإذا منع أو تأخر سخط؛ فتكون الوفرة قد زادت ما يملك ونقصت حريته.

قال رسول الله ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ». رواه البخاري (2886) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. اختير هنا لفظ هذه الرواية بعينه؛ فهي تكشف العبودية من السلطة التي صار للعطاء والمنع على الرضا، لا من مجرد امتلاك المال أو المتاع.

الدينار والدرهم مال، والقطيفة والخميصة من المتاع واللباس؛ فتتسع الدلالة لكل ما يربط الإنسان به تعريف نفسه: مستوى معيشة، ومنصب، ومظهر، وعدد متابعين، وتقدير مهني. إذا صار حصوله على هذه الأشياء يمنحه الرضا عن نفسه وعن الحياة، وصار فواتها يسلبه ذلك الرضا، فقد أخذت من قلبه حقًّا لا تملكه.

وليس المراد لحظة حزن عابرة عند فوات محبوب؛ فالإنسان يتألم للخسارة، وقد يضيق صدره قبل أن يستعيد توازنه. العلامة الأخطر أن يصبح العطاء والمنع نظامًا يحكم الرضا، وأن تتبدل المبادئ والأخلاق تبعًا لهما. عندئذ تكون العبودية علاقة حاكمة، لا مقدار رصيد؛ وقد يقع فيها صاحب القليل كما يقع فيها صاحب الكثير.

ولا تعني سلامة القلب الانسحاب من المنافسة المشروعة. التاجر يطور خدمته، والباحث يريد أن يسبق إلى اكتشاف نافع، والمؤسسة تسعى إلى جودة أعلى، وصاحب المشروع يتابع أثره وأرقامه. هذه الأعمال قد تكون واجبة أو محمودة. الفارق يظهر في المقصد والحق: هل تدفع المنافسة إلى الإتقان مع العدل، أم تجعل الغاية تبرر الكذب والحسد وأكل حقوق الآخرين؟ وهل يظل النجاح مرتبطًا بأداء الأمانة، أم يصبح مشروطًا بأن يبقى الناس خلفنا؟

قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾ [المطففين: 26]. لم يطلب الوحي إخماد الرغبة في السبق، بل نقلها إلى ما يستحق. المنافسة في الآخرة لا تقوم على أن نقصي غيرنا حتى ننجح؛ طاعة الآخر قد توقظني، ونجاحه في الخير قد يزيد الخير في العالم، ويمكن أن نتسابق ولا يكون ارتفاعه سقوطًا لي. أما كثير من ميادين الدنيا فيوهم الإنسان أن المكان لا يتسع إلا لواحد، فيتسلل البغي باسم الطموح.

وقد تصاب المؤسسة بما يصاب به الفرد. تبدأ لخدمة رسالة، ثم يكبر هيكلها وتكثر التزاماتها، فيصبح بقاؤها وتوسعها غاية غير معلنة. عند كل قرار تستدعى الرسالة في الخطاب، بينما تدور الموازنة الحقيقية حول السمعة والحجم وموقع الجهة بين نظيراتها.

لا يلزم من ذلك اتهام كل مؤسسة كبيرة؛ فالتوسع قد يزيد النفع، وحفظ الاستمرار قد يكون من الأمانة. لكن الوفرة تحتاج إلى محاسبة تناسبها: هل ما زالت الموارد تخدم المقصد، أم صار المقصد وسيلة لتبرير طلب الموارد؟ وهل يمكن للجهة أن توقف مشروعًا مشهورًا إذا ثبت ضعف أثره، أم صارت أسيرة للصورة التي بنتها حوله؟

والوفرة تكشف طريقة الإنسان مع من دونه قدرة أيضًا. قد يتغير صبره على من يحتاج إليه، ويضيق بالنصيحة، ويحيط نفسه بمن يوافقه. كلما اتسع نفوذه قل من يجرؤ على تصحيح خطئه، فيقرأ الصمت رضا، ويرى النجاح المتكرر دليلًا على سلامة كل قرار. لذلك يحتاج صاحب السعة إلى صوت صادق لا يشتري رضاه، وإلى عبادة خفية ترده من صورته العامة إلى عبوديته الخاصة.

ولا يطلب الشرع من صاحب النعمة أن يحتقر ما أعطاه الله أو يتصنع الفقر. الشكر يفرح بالنعمة، وينسبها إلى المنعم، ويقيم حقها. والتواضع لا يقتضي إنكار الخبرة، كما أن سلامة القلب لا تعني ترك التخطيط والتوسع. المطلوب أن يبقى النجاح خادمًا للرسالة، وأن تظل الرسالة محكومة بالحق، وألا تتبدل أخلاق الإنسان كلما تغير موقعه في الترتيب.

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83]. جاءت الآية عقب قصة قارون، وربطت الدار الآخرة بترك إرادة العلو والفساد. وإرادة العلو

أعمق من وقوع الإنسان في موضع مرتفع؛ قد يكون ذا مسؤولية وفضل ولا يريد التعالي، وقد يكون قليل الحظ من الدنيا وقلبه مشغول بأن يكون فوق غيره. الفتنة أن يصبح التفوق غاية تمنح صاحبها قيمته وتدفعه إلى فساد الطريق.

استحضر منافسة حقيقية دخلتها خلال العام الأخير: في عمل، أو مشروع، أو علم، أو حضور اجتماعي. متى تحول اهتمامك من جودة ما تؤديه إلى موقعك من شخص بعينه؟ وما أول خلق أو حق تأثر: إنصافك، أم صدقك، أم قدرتك على الفرح، أم أداء حق لغيرك؟ ابحث عن أثر سلوكي، ثم حدد خطوة تعيد الغاية إلى موضعها من غير انسحاب من الميدان ولا تزكية للنفس.

من علامات المراجعة الصادقة أن يستطيع الإنسان تسمية نجاح غيره خيرًا حين يكون خيرًا، وأن يعترف بفضله من غير شعور بأن الاعتراف ينتقصه. ومنها أن يراجع الرقم إذا خدم الوهم، وأن يؤخر توسعًا يفسد الرسالة، وأن يقبل مكسبًا أقل مع طريق أنظف. هذه الأفعال لا تقتل الطموح؛ تحرره من الحاجة إلى أن يأكل صاحبه حقوق الناس حتى يثبت أنه ناجح.

تدخل الدنيا أحيانًا من باب حاجة صغيرة: مال يسد نقصًا، أو تقدير يطمئن القلب، أو نجاح يثبت جدوى الجهد. ثم تتسع المساحة التي تحتلها، حتى يصبح الرضا تابعًا لما تعطي، والسخط تابعًا لما تمنع، ويغدو الآخرون مرايا لا يرى الإنسان نفسه إلا من خلال تقدمهم وتأخرهم. وحين يبلغ الأمر هذا الموضع يصبح المال نفسه سؤالًا لا مهرب منه: كيف يُطلب ويُملك ويُنفق، ويبقى في اليد ولا يستولي على القلب؟

المحور الرابع: المال والرزق

مقدمة المحور: حين يعود المال إلى موضعه

يخرج الإنسان في الصباح إلى عمله، وينظر في حساباته، ويحمل همّ النفقة التي تنتظره آخر الشهر. يعرف بلسانه أن الله يرزقه، ثم تتزاحم في صدره الأرقام والوعود والاحتمالات حتى يبدو له أن مستقبله كله معلق بباب واحد: وظيفة إن بقيت اطمأن، وصفقة إن تمت اتسع، وشخص إن رضي فُتح الطريق. في هذه اللحظة يرد الوحي القلب إلى حقيقة كانت قائمة قبل أن تبدأ الأسباب كلها.

يقول الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: 22-23]. أقسم رب السماء والأرض على هذا الحق؛ لأن القلب، مع معرفته به، قد يضعف حين يرى السبب قريبًا ويرى وعد الله غيبًا. والآيتان لا تنقلان الرزق خارج الأرض التي نمشي فيها، وإنما تعيدان أصله وتقديره إلى السماء، إلى من يملك الأرض وأهلها وأسبابها.

لا يعيش الإنسان بلا مال، ولا تقوم أكثر الحقوق من غير كسب وإنفاق. به يُطعم أهله، ويعالج مريضه، ويصون وجهه عن السؤال، ويشارك في مصالح الناس. ولهذا لم يأت الوحي ليجعل المال رجسًا في ذاته، ولا ليغرس في المؤمن حرجًا من كل سعة. جاء ليمنع المال من احتلال الموضع الذي لا يليق إلا بالله: موضع الأمان المطلق، والقيمة النهائية، والقدرة المستقلة على فتح المستقبل.

وقد كشف المحور السابق كيف يطغى القريب حين ينافس الآخرة، وكيف تتحول الوفرة إلى سباق يغير المقاصد والأخلاق. أما هذا المحور فيبني بعد التشخيص علاقة تصلح للحياة: قلب يعرف الرازق، ويد تبذل السبب، ومال يمر من الحلال إلى الحق، وعامل يجتهد ثم لا يسجد لنتيجته. فالتحرر من عبودية المال لا يكون بإهماله، بل برده إلى منزلته التي شرعها الله.

يكتب الله الرزق، ثم يأمر بالسعي إليه؛ ويجعل للأسباب آثارًا حقيقية، ثم يمنع القلب من نسب الاستقلال إليها. يوسع على عبد ويقدر على آخر، ولا يجعل واحدة من الحالتين حكمًا نهائيًّا على الكرامة. وقد يصل المال إلى يد صالحة فيعينها على الواجب والخير، وقد يدخل من باب فاسد أو يستقر في قلب متكبر فيتحول من نعمة إلى شاهد على صاحبه.

من هنا تتولد أسئلة هذا المحور داخل حياة الناس نفسها: كيف يسعى العبد وهو يعلم أن رزقه مكتوب؟ كيف يحترم السبب دون أن يمنحه منزلة الرب؟ متى يصبح المال أداة صالحة، ومتى يحمل حقوقًا لم تؤدَّ بعد؟ وكيف يعمل الإنسان بقوة، ويتعلم ويخطط ويتقن، ثم يبقى في عمق قلبه فقيرًا إلى الله، يعلم أن القدرة والفرصة والثمرة كلها من فضله؟

حين يستقيم الجواب، لا يختفي القلق البشري كله، ولا تتساوى أيام السعة والضيق في الشعور. الذي يتغير هو موضع القلب: يفرح ولا يغتر، ويتألم ولا يفسر المنع إهانة، ويأخذ بالأسباب كاملة من غير أن يبيع لها دينه. عندئذ يعود المال إلى موضعه: رزقًا من الله، وأمانة في اليد، وطريقًا يسير فيه العبد إلى يوم يعود فيه إلى رازقه.

الوحدة العاشرة: الرزق بيد الله

قبل أن يسأل الإنسان كيف يزيد دخله، يحتاج إلى سؤال أسبق: من الذي يرزقه؟ قد يبدو الجواب معلومًا، غير أن العقيدة لا تقاس بما يستحضره اللسان في حال السعة وحدها. يتبين موضع الاعتماد حين يتأخر الراتب، أو يغلق باب العمل، أو يلوح في الطريق سبب محرم يعد صاحبه بفرج سريع. هناك يظهر إن كان القلب يرى السبب بابًا أم يراه صاحب الخزائن.

يقرر القرآن الأصل في أقصر عبارة وأقواها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 58]. جاء الضمير ﴿هُوَ﴾ مؤكدًا اختصاص الله بالرزق، وجاء اسم ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ دالًّا على كثرة عطائه وتتابعه، ثم اقترن بالقوة المتينة؛ فلا يرزق الخلق من يخشى نفاد خزائنه، ولا يعجزه اختلاف الأسواق، ولا تزاحم الطالبين، ولا انقطاع باب اعتاده العبد.

هذه الحقيقة لا تمحو العالم الذي نراه. الراتب يأتي من جهة عمل، والربح من بيع، والمحصول من زرع، والشفاء بعد دواء، وقد جعل الله بين الأشياء أسبابًا وآثارًا. لكن السبب مخلوق يعمل داخل ملك الله، ولا يخلق الرزق من عدم، ولا يضمن لصاحبه بقاءه، ولا يملك أن يعطي إلا بما أذن الله كونًا. احترام السبب عبادة، وتأليهه مرض في التوحيد.

حين يكبر السبب في القلب فوق حقيقته، يتبدل سلوك الإنسان قبل أن ينتبه. يصبح صاحب العمل قادرًا في شعوره على منحه الحياة أو سلبها، ويصير السوق حكمًا نهائيًّا على مستقبله، ويقف أمام مسؤول أو عميل بقلب يطلب منه ما لا يملكه. عندها يسهل أن يسكت عن ظلم، أو يزين معلومة، أو يذل نفسه؛ لأنه لم يعد يرى خلف الباب من فتحه، وفوق اليد من أعطاها.

ويوسع القرآن دائرة اليقين بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: 6]. لا يضيع مخلوق في زحام الأرض عن علمه؛ يعلم موضعه وحاله وحاجته، ويعلم الرضيع الذي لا حيلة له، والعامل الذي خرج يطلب، والأسرة التي انقطع موردها، وما يبلغه كل واحد منها في أجله.

ما يصل إلى العبد طوال حياته معلوم مكتوب عند الله، ولن يموت قبل أن يستوفي ما قدر له من الرزق والأجل. ومع ذلك لا يحمل هذا الوعد صورة معيشية واحدة لكل الناس. مقدار السعة، ووقت الفتح، وطريق الوصول، وسهولة السبب أو مشقته، وما يصاحب المال من بركة أو فتنة؛ كلها أبواب تجري فيها الحكمة والابتلاء. اليقين بالرزق يثبت القلب، ولا يمنحه عقدًا يختار فيه تفاصيل الغد.

قد يرزق الله عبدًا كفافًا يحفظ به دينه، ويفتح على آخر فيقيمه في امتحان الشكر، ويمنع ثالثًا بعض ما أحب مع قيام حاجته ليعلم افتقاره ويهديه إلى باب آخر. وقد تكون السعة نعمة ورحمة، أو اختبارًا، أو عطاء دنيويًّا لا يدل وحده على محبة ولا سخط. لذلك لا يصح أن يستقبل المؤمن كل زيادة بريبة، ولا أن يراها تزكية من السماء لمجرد وقوعها.

وقد فضح القرآن القراءة التي تجعل الحساب المصرفي ترجمان المنزلة عند الله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا﴾ [الفجر: 15-17]. سمى الحالين ابتلاء، ثم رد التفسيرين معًا بكلمة قاطعة: ﴿كَلَّا﴾.

المال قد يكون من آثار الإكرام في معنى النعمة، لكن مجرد كثرته ليس شهادة على كرامة صاحبه عند الله. والضيق قد يكون مؤلمًا، لكنه لا ينشئ حكم الإهانة. الكرامة التي لا تتبدل بتقلب الأسواق هي كرامة العبودية والتقوى. هذا الفصل يحمي الغني من الغرور، ويحمي الفقير من أن يضيف إلى ضيق اليد مهانة لم يكتبها الله عليه.

يربط الناس قيمتهم بعملهم لأسباب مفهومة. الوظيفة تحمل سنوات من التعلم والخبرة، والدخل يؤثر في قدرة الإنسان على الوفاء بحقوقه، والمسمى يحدد جانبًا من صورته الاجتماعية. ثم تتسلل العلاقة من وصف حال إلى تعريف ذات: أنا ما أكسبه، وما يقال عن منصبي، وما أستطيع شراءه. فإذا سقط الباب، شعر أن الشخص نفسه قد سقط معه.

هذا الألم لا يعالج بعبارة باردة تقول إن المال لا يهم. المال مهم، وفقده قد يضيق السكن، ويغير تعليم الأبناء، ويؤخر العلاج، ويثقل الديون. الإيمان يعترف بهذه الآثار، ثم يمنعها من إصدار أحكام ليست لها: لا تجعل النقص حكمًا على رجولتك أو كفاءتك كلها، ولا تجعله دليل هجر من الله، ولا تمنحه إذنًا باقتحام الحرام.

أُبلغ رجل بعد سنوات مستقرة أن الشركة ستنهي عقده خلال شهر. خرج من المكتب يحمل الورقة كأنها تقرير عن فشله كله. لم يؤلمه فقد الراتب وحده؛ آلمه أن اسمه الذي اعتاد أن يقدمه للناس سيتغير، وأن أبناءه سيرون القلق في وجهه، وأنه قد يقبل عملًا أقل مما كان يظنه لائقًا بخبرته. أخفى الخبر يومين، وبدأ يعيد قراءة عمره المهني كأنه سلسلة أخطاء.

في الأسابيع الأولى أرسل طلبات كثيرة، ثم صار كل صمت من جهة توظيف يجرحه. عُرض عليه عمل مؤقت بأجر أقل، فتردد؛ لم يكن الاعتراض كله على الدخل، بل على الصورة. وفي ليلة طال فيها القلق قام يصلي، ولم يجد في نفسه خشوعًا واسعًا ولا طمأنينة مفاجئة. قال في سجوده كلامًا بسيطًا: يا رب، كنت أعرف أنك الرازق، ثم عشت كأن هذه الشركة هي التي تحملني. رد قلبي إليك، وافتح لي بابًا حلالًا، ولا تجعل خوفي يذلني.

خرج من الصلاة وما زالت الأقساط قائمة، والوظيفة لم تعد. لكنه استطاع في اليوم التالي أن يخبر أسرته بصدق، وأن يقبل العمل المؤقت، وأن يتعلم ما يحتاجه دون أن يرى كل خطوة اعترافًا بالهزيمة. بقيت أيام يضيق فيها ويغضب من نفسه، وبقي البحث طويلًا. التغير الحقيقي لم يكن نجاحًا سريعًا؛ كان انفصالًا بطيئًا بين كرامته وبين البطاقة التي فقدها، وبين رزقه وبين الباب الذي أغلق.

ويأتي قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: 60] في سياق يلامس الخوف عند مفارقة السبب المألوف. قد يثقل على الإنسان أن يترك مكانًا عرف فيه معاشه أو عادة أمن بها، فيذكره القرآن بأن الله يرزق الخلق حيث كانوا، ويسمع قلق عبده ويعلم ما لا يراه من طرق الرزق.

ولا تعني الآية أن المخلوقات سواء في أسبابها، أو أن الإنسان يستغني عن التخطيط. معناها يحرر القلب عند الانتقال من سبب إلى سبب، وعند انكسار عادة ظنها ضرورة. الأرض كلها ملك لله، والأبواب التي لم يعرفها العبد لا تقل دخولًا تحت علمه عن الباب الذي ألفه. قد يهاجر، أو يغير مهنته، أو يبدأ من مرتبة أقل، ولا يخرج بذلك من عناية الرازق.

وقد جمع النبي ﷺ بين الاعتماد والحركة في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا». رواه الترمذي (2344)، وقال: حديث حسن صحيح. الطير تغادر أوكارها خاوية البطون؛ لم يحبسها التوكل، ولم تحمل معها ضمان آخر النهار.

في صورة الطير توازن بالغ الدقة. تغدو؛ فتتحرك في أول النهار، وتستعمل ما خلق الله لها من قوة وهداية. وتروح بطانًا؛ فالنتيجة رزق من الله، لا خلق مستقل من الجناح والطيران. من سمى الكسل توكلًا أسقط نصف الصورة، ومن نسب الامتلاء إلى مهارته وحدها أسقط نصفها الآخر. التوكل عمل قلب يرافق السبب، لا ذريعة لتركه ولا اسمًا للغرور به.

بذل السبب يدخل فيه تعلم المهنة، وتحسين الأداء، والسؤال عن الفرص، ومراجعة الخطط، والاستشارة، والانتقال عند الحاجة. وقد يقتضي أن يقبل الإنسان بداية متواضعة، أو يعيد التدريب بعد سنين من الخبرة. كل ذلك من مسؤولية العبد، ولا يناقض افتقاره. الذي يتغير هو اعتقاده في النتيجة: يبذل وسعه ثم يعلم أن تمام الأثر ووقته ومقداره ليست ملكًا له.

وقد يستفرغ شخصان أسبابًا متقاربة وتختلف النتائج اختلافًا كبيرًا. واحد يجد من يرشحه، وآخر يتأخر؛ مشروع يوافق ظرفًا فينتشر، ونظيره يتعثر؛ إنسان يرث ما لم يعمل له، وآخر يفقد في لحظة ما جمعه في أعوام. هذه الفروق لا تلغي قيمة الأسباب، لكنها تمنع تحويلها إلى إله عادل في خيال الإنسان يكافئ كل جهد بالقدر الذي يتوقعه صاحبه.

ويجمع القرآن بين وقوع السعة والضيق بتقدير الله، وبين بقاء الدنيا كلها في منزلتها المحدودة، فيقول سبحانه:

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد: 26].

فالبسط والتقدير كلاهما بيد الله، ولا يخرج سعي العبد عن تقديره، كما لا يفقد بذلك مسؤوليته عن العمل. قد تتسع أسباب إنسان ويضيق رزقه، ويُفتح لآخر من طريق لم يصنعه وحده، وتتعاقب على الشخص نفسه أعوام من السعة وأعوام من التقدير. هذه الأحوال لا تمنح المال حق الحكم على منزلة صاحبه، ولا تجعل النتيجة الدنيوية تفسيرًا كاملًا لعلاقة العبد بربه؛ فالدنيا، في حال بسطها وتقديرها، متاع محدود أمام الآخرة.

العامل المتوكل يحاسب نفسه دون أن يعبد محاسبته. يبحث عن الخلل، ويقبل النقد، ويغير ما يستطيع، ثم يترك مساحة لمشيئة الله لا يسميها فشلًا شخصيًا. أما من تعلق بالسبب فيتأرجح بين غرور عند النجاح ويأس عند التعثر؛ يرى الوصول استحقاقًا كاملًا، ويرى المنع إهانة، كأنه كان يملك النتيجة ثم سُلبت منه.

التخطيط والادخار والاحتياط المالي تدخل في هذا الباب. الأسرة التي تقدر نفقاتها، وتحتفظ بقدر لحاجة متوقعة، وتتعلم إدارة الدين، تقوم بأمانة مشروعة. وقد ادخر يوسف عليه السلام للسنوات الشداد بأمر مبني على وحي وتدبير. الخلل يبدأ حين يتحول الاحتياط إلى عقيدة ضمان، فيظن صاحبه أن كثرة المخزون أخرجته من سلطان القدر، أو يمنعه خوف الغد من حق واجب اليوم.

قد يظن المرء أن التوكل الكامل يقتضي رفض كل تأمين تعاوني مشروع، أو ترك توثيق الحقوق، أو عدم إعداد بديل للعمل. هذه ليست لوازم التوكل. الأحكام تتعلق بمشروعية الوسيلة وتفاصيلها، والقلب يتعلق بالله. ويمكن لإنسان أن يملك خططًا دقيقة وقلبًا مفوضًا، كما يمكن لآخر أن يعيش بلا خطة وقلبه شديد التعلق بما بقي في يده.

الدقة العقدية تزداد ضرورة عند الحديث عن المال الحرام. كل ما يقع في الكون داخل قدر الله الكوني، ومنه أفعال العباد ومعاصيهم، لكنه لا يصير بذلك محبوبًا لله ولا مأذونًا شرعًا. من أخذ ربًا أو رشوة أو مال ظلم اختار فعله، وخالف أمر ربه، ولا يجوز أن يقول بعد ذلك: هذا رزق كتبه الله لي؛ محتجًّا بالقدر على ما نهي عنه.

العبد مأمور أن يطلب ما قدر له بالطريق الذي شرعه الله. قد يصل المال الحرام إلى يده واقعًا، ويبقى حرامًا يحمل تبعته وحقوق أصحابه. والاحتجاج بالقدر بعد الاختيار يخلط بين علم الله ومشيئته وبين رضا الله وأمره. كما لا يحتج السارق بأن السرقة مقدرة، لا يحتج صاحب الكسب الفاسد بأن المال وصل، فالقدر سر الله السابق، والتكليف خطابه الحاضر.

ويظهر رسوخ هذا الأصل في أناس لا يحتاجون إلى خطبة طويلة كلما ضاق الأمر. عرضت على موظف زيادة في دخله مقابل أن يمرر تقريرًا يعرف أن فيه إخفاءً مؤثرًا. كان يمر بضيق مؤقت، ويستطيع أن يجد لنفسه عبارات مريحة، لكنه اعتذر بهدوء، وكتب التقرير كما هو، ثم بحث عن عمل إضافي مباح وخفض بعض النفقات. لم ير نفسه بطلًا، ولم ير النقص إهانة؛ رأى بابًا لا يحل فأغلقه، وأبواب الله أوسع منه.

هذا الهدوء ثمرة تصور استقر قبل الامتحان. حين يعرف العبد أن الرزق لا يطلب بمعصية الرازق، لا يحتاج في كل مرة إلى اختراع عقيدته من جديد. يتألم من الفرصة الفائتة، وربما يخشى آثارها، لكنه لا يمنح الخوف صلاحية تغيير أسماء الأشياء. الحرام يبقى حرامًا وإن جاء في صورة إنقاذ عاجل، والحلال لا يصير إهانة لأن المجتمع يراه أقل مكانة.

ويجمع قوله تعالى بين التقوى والرزق والاعتماد: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: 2-3]. الوعد حق، لكنه لا يختصر في ثراء عاجل ولا في عودة المصلحة بالصورة نفسها.

المخرج قد يكون باب عمل، وقد يكون صرف شر، أو تخفيف حاجة، أو قوة على احتمال مرحلة، أو هداية إلى قرار يحفظ الدين. والرزق أوسع من رقم، وإن كان المال من أوضح صوره. أما الكفاية في قوله: ﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ فمعناها أن الله كافيه بما يشاء من وجوه الكفاية؛ فلا يحق للعبد أن يحصر وفاء الوعد في النتيجة التي رسمها.

تمنع الآية كذلك تحويل التقوى إلى معاملة تجارية مع الله: أطيع اليوم بشرط أن تأتيني الزيادة غدًا. المؤمن يتقي الله لأنه ربه، ويثق أن أمره لا يضيعه، ثم قد يمر بطريق طويل لا يرى فيه التعويض الذي تخيله. حرارة اليقين تظهر حين يبقى على الحلال مع استمرار المشقة، ويعلم أن ما عند الله لا يقاس بسرعة ما دخل حسابه.

لا حرج على الإنسان أن يريد دخلًا أفضل، وأن يسأل الله السعة، وأن يطور مهنته ويطلب ترقية. الرغبة في تحسين حال الأسرة ليست علامة ضعف في التوكل. الذي يحتاج إلى المراجعة هو الثمن، والمكان الذي يحتله

الهدف في القلب، والتفسير الذي يعطيه للنجاح والتأخر. يستطيع أن يطمح بقوة من غير أن يجعل الدرجة القادمة شهادة على كرامته.

استحضر تغيرًا حقيقيًّا وقع في دخلك أو وظيفتك: زيادة فتحت لك بابًا، أو نقصًا أوجعك، أو عملًا فقدته، أو فرصة انتظرتها. عد إلى اللحظة الأولى قبل أن ترتب كلامك: ماذا قال قلبك عن نفسك، وماذا ظن بربه؟ وأي سبب تضخم أمامك حتى كاد يحجب الرازق الذي خلق السبب ومالك النتيجة؟

المقصود من هذا المحك تسمية موضع العبودية، لا اتهام النفس في كل فرح أو خوف. ربما تكشف أنك شكرت وازددت قيامًا بالحق، وربما ترى أنك حملت الراتب معنى القيمة، أو قرأت المنع هجرًا، أو اقتربت من تنازل لأن بابًا واحدًا ملأ المشهد. عندئذ يبدأ الإصلاح بإعادة الاسم الصحيح: هذا سبب أبذله، وهذا رزق من الله، وهذه كرامتي في عبوديتي له.

وحين يستقر أصل الرزق، يتغير السؤال عن المال الذي يصل إلى اليد. لا يكفي أن يزيد، ولا أن يأتي بعد دعاء طويل؛ فقد يحمل حقًا لغير صاحبه، وقد يفسد قلبًا، وقد يعين عبدًا صالحًا على الوفاء والنفع. المعرفة بأن الله يرزق تفتح الباب للسؤال التالي: ما الذي يجعل المال نفسه صالحًا، ويجعل وجوده في يد المؤمن معونة لا قيدًا جديدًا؟

الوحدة الحادية عشرة: «نِعْمَ المال الصالح للمرء الصالح»

حين بعث النبي ﷺ عمرو بن العاص رضي الله عنه على جيش، ذكر له ما يرجوه له من الغنيمة والمال. فأراد عمرو أن يبين أن دخوله في الإسلام لم يكن طلبًا للدنيا، فقال إنه أسلم رغبة في الإسلام والكينونة مع رسول الله ﷺ. جاء التصحيح النبوي دقيقًا: سلامة الغاية لا تقتضي ازدراء الوسيلة، والتجرد لله لا يعني أن كل مال يفسد صاحبه.

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «يَا عَمْرُو، نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ». رواه البخاري في «الأدب المفرد» (299)، وصححه الألباني. اختير هنا لفظ هذه الرواية؛ لأنه يجمع في عبارة واحدة صلاح المال وصلاح حامله، ويمنع مدح الثروة منفصلة عن طريقها وأثرها وحق الله فيها.

يقرر الحديث إمكانًا مهمًّا بعد كل التحذير من فتنة الدنيا: المال قد يكون صالحًا. لا ينشأ صلاحه من كثرته ولا من قلته، ولا من مجرد انتسابه إلى شخص متدين. يقوم على ثلاثة أمور متصلة: طريق طيب دخل منه، وقلب لم يستعبده، وحقوق ووجوه مشروعة استعمل فيها. فإذا فسد واحد منها، نقص من وصف الصلاح بقدر ما فسد.

قد ينفر بعض الناس من المال نفورًا يظنونه ورعًا. يخاف أحدهم أن تتغير نيته، أو يرى أن القدرة الدنيوية لا تجتمع مع الصلاح، فيترك موردًا مباحًا يحتاج إليه أهله أو مصلحة يستطيع خدمتها. الخوف من الفتنة مفهوم، لكنه لا يصير ميزانًا فوق الوحي. وقد تكون عبودية إنسان أن يدير مالًا كثيرًا بأمانة، كما تكون عبودية آخر أن يصبر على الكفاف.

وفي الجهة الأخرى، قد يستعمل الحديث لتقديس الثراء، كأن كثرة المال دليل على صلاحه وصلاح صاحبه. وهذا عكس دلالته؛ فالحديث قيد المال بوصف الصالح، وقيد حامله بالصلاح. لا يمدح أرقامًا مجردة، ولا يَعِد كل غني بمنزلة أعلى. إنه يفتح بابًا للعمل والقدرة، ثم يضع على الباب ميزانًا يحاسب الطريق والقلب والتصرف.

وينزع القرآن عن المال قوة التقريب بذاته: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ [سبأ: 37]. لا يقف العبد أقرب إلى الله لأن يده امتلأت، ولا يكون أبعد لأن رزقه قل. الإيمان والعمل الصالح هما طريق القرب، ثم يدخل المال في العمل إن خضع لهما.

يبدأ صلاح المال قبل أن يستقر في الحساب. يسأل صاحبه: من أي باب جاء؟ قد تكون الغاية نبيلة، والأسرة محتاجة، والمشروع نافعًا، ويبقى المال الحرام حرامًا. النية الحسنة لا تطهر غشًّا، ولا تمحو رشوة، ولا تقلب الربا عقدًا مباحًا، ولا تسقط حقًّا استولى عليه صاحبه ثم أنفق جزءًا منه في وجه ظاهر الخير.

وقد جمع القرآن بين طيب ما يدخل وصلاح ما يخرج في خطاب الرسل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: 51]. طيب الكسب لا يضمن وحده طيب العمل، لكنه يهيئ له أرضًا نقية. ومن طلب صفاء القلب وهو يغذيه من ظلم الناس جمع بين طريقين يتدافعان.

وقد يكون أصل النشاط مباحًا، ثم تتعلق بالمال حقوق تجعله غير خالص لصاحبه. أجر عامل تأخر مع القدرة، أو دين حل موعده، أو حصة شريك أخفيت تفاصيلها، أو ميراث حُبس عن وارث، أو مال مؤسسة خلط بالمال الخاص. في ظاهر الحساب رقم واحد، وفي ميزان الشرع أموال موزعة بين أصحاب لم تصل إليهم بعد.

لهذا جاء النهي عامًا قاطعًا: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 188]. سماها ﴿أَمۡوَٰلَكُم﴾؛ لأن المجتمع يهدم بعضه بعضًا حين يأكل بعضه مال بعض، ولأن حرمة المال تحفظ شبكة الثقة التي تقوم عليها المعاملات.

لا يصفو المال لصاحبه ما دام فيه حق قائم لغيره. وربما ظن أنه يملك أن يتصدق من مال لم يؤد أجر عامله، أو أن يبني صورة كريمة بعطاء يأتي بعد ظلم شريك. إقامة الحق أسبق من التزين بالفضل. والعبودية هنا قد تكون أقل ظهورًا: حساب واضح، وعقد عادل، ووفاء في الموعد، ورد لما لا يحل ولو لم يصفق أحد.

بعد صلاح المصدر يأتي امتحان القلب. المال يوسع القدرة، والقدرة تكشف أخلاقًا لم تجد قبلها مجالًا. المتواضع قد يثبت أو يفتن بمن يحيطون به، والكريم يجد أبوابًا جديدة، وصاحب الشهوة يجد وسائل أكثر، ومن كان يحب السيطرة يستطيع أن يشتري صمتًا وولاءً. المال لا يخلق كل ما في النفس، لكنه يكبر مساحة ظهوره.

صاحب المال الصالح ليس شخصًا ختم على صلاحه قبل أن يملك. صلاحه يتجدد في كل قرار: كيف يعامل من يحتاجون إليه؟ هل يبقى العدل حين يستطيع فرض شروطه؟ هل يقبل نصيحة من موظف أضعف منه؟ هل يتغير صوته مع من لا مصلحة له عندهم؟ هذه المواضع أصدق من صورة عامة يحبها عن نفسه.

والمال الحلال قد يبقى حلالًا في عينه، ثم يفسد أثره حين يصير وسيلة إلى كبر أو تسلط أو شهوة. لا يتحول الملك المشروع إلى حرام كله بسبب خلق مذموم، لكن صاحبه يأثم بما أحدث من ظلم أو إسراف أو أذى. هذا التفصيل يمنع الحكم المجمل، ويجعل المحاسبة متجهة إلى الفعل المحدد الذي يحتاج إلى توبة وإصلاح.

كما أن صلاح المال لا يطلب من صاحبه قلقًا دائمًا يفسد عليه الانتفاع. يستطيع أن يأكل طيبًا، ويوسع على أهله، ويحسن مسكنه، ثم يسأل نفسه بهدوء عن الحد والحق. المراقبة التي يبنيها الوحي يقظة محبة ومسؤولية، وليست وسواسًا يجعل كل نعمة تهمة، أو كل راحة علامة على قسوة القلب.

وقد يعود معنى الحديث الذي سبق في الوحدة السابعة، لكن بوظيفة أخص. هناك قال النبي ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ» ليصف جاذبية الدار كلها ومسؤولية الاستخلاف فيها. وهنا يخص المال بحديث آخر يربط جاذبيته بطريقة أخذه ووضعه، فينتقل المعنى من وصف الفتنة العامة إلى ميزان التصرف في مال معين.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ، وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ، فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ، كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ». رواه مسلم (1052). جمع الحديث بين الأخذ والوضع؛ فلا يكتمل صلاح المال بسلامة المدخل مع فساد المخرج.

سمى النبي ﷺ المال «المعونة». هذه كلمة تعيده إلى وظيفة خادمة: يعين على نفقة واجبة، وسكن، وعلاج، وتعلم، واستغناء، وصلة، ومصلحة. والمعين لا يصير غاية نهائية. إذا تحول جمع المال وحراسته إلى المعنى الذي تدور حوله الحياة، نسي صاحبه العمل الذي كان المال ينبغي أن يعينه عليه.

عبارة «ووضعه في حقه» لا تختصر في الصدقة التطوعية. من حقه نفقة واجبة على أهل، ووفاء دين، وحفظ أصل يحتاج إليه صاحبه، ومنع تبذير، وأداء زكاة، وإغاثة بحسب القدرة. ثم تأتي أبواب العطاء والنفع الواسع، وسيكون لها موضع أرحب. يكفي هنا تثبيت أن صلاح المال يظهر في خضوع مصرفه لأمر الله، لا في خروجه من اليد كيفما اتفق.

وقد يكون الإنفاق نفسه غير صالح إذا ضيع من تجب نفقتهم، أو جعل صاحبه بعد ذلك يسأل الناس، أو كان طلبًا للسمعة، أو وضع المال في وجه يضر. كما أن الإمساك ليس شحًّا بمجرده؛ فقد يكون حفظًا لأمانة أو إعدادًا لحاجة. الحركة الظاهرة لا تكفي للحكم، والفقه ينظر إلى الواجب والنية والقدرة والمآل.

يقول الله تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: 67]. القوام ميزان تستقيم به الحياة؛ يمنع التبديد الذي يستهلك المال بلا حق، ويمنع التقتير الذي يحبس الواجب والمعروف. وهو يتغير باختلاف القدرة والحقوق، فلا يحبس في رقم واحد يصلح لكل بيت.

الانتفاع بالطيبات يدخل في هذا الميزان. يلبس المؤمن ما أباح الله، ويحسن مسكنه في حدود قدرته، ويفرح براحة جاءت من حلال، ولا يعيش معتذرًا عن كل نعمة. الشكر لا يعني شعورًا دائمًا بالذنب؛ معناه معرفة المنعم، وصيانة الحد، وأداء الحق. وقد يكون من شكر المال أن يستريح به صاحبه ليستعين على ما حمله الله.

الخوف المحمود يحرس النعمة، والخوف المفرط يحولها إلى سجن. من يراقب كل نقص كأنه اقتراب من الهلاك، ويمنع نفسه وأهله حقوقًا ظاهرة، ويرفض كل بذل مشروع، لا يعيش آمنًا رغم كثرة ما عنده. المال الذي أراد به الأمان صار مولدًا للخوف، لأنه طلب منه ضمانًا لا يملكه إلا الله.

ورثت امرأة مبلغًا لم يكن في حسابها. عاشت سنوات تقيس حاجاتها بدقة، وتؤجل أشياء كثيرة، فلما وصل المال تحرك فيها صوتان قويان. أحدهما يقول: عوضي كل ما فاتك بسرعة، فهذه فرصتك الوحيدة. والآخر يقول: جمدي المال كله؛ فالأيام لا تؤمن، وأي نقص بداية رجوع إلى الضيق الذي تعرفينه.

في الأشهر الأولى اشترت أشياء كانت تحتاج بعضها، ثم وجدت أن لذة التعويض تدفعها إلى المزيد. وحين طلب منها قريب حقًّا ثابتًا يتعلق بالتركة، شعرت أن كل مبلغ يخرج تهديد لأمانها. لم تنكر الحق، لكنها أجلت

الحديث، وبدأت تتضايق من كل نصيحة. كانت بين تبديد يريد محو سنوات الحرمان، وإمساك يريد بناء جدار لا ينفذ منه القدر.

احتاجت إلى ميزان عملي لا إلى لحظة مثالية. أثبتت الحقوق أولًا، واستعانت بمن تثق بعلمه وخبرته، ووزعت المال بين حاجات قائمة واحتياط معقول ومجال مباح للانتفاع. ظلت تقاوم خوف النقص، ووقعت في شراء ندمت عليه، ثم راجعت نفسها. لم تصبح القضية نظيفة في يوم واحد؛ لكن المال بدأ يخضع لحكم الله بدل أن تخضع هي لقلقها.

لم تكن عبادتها في أن تنفق كل ما ورثت، ولا في أن تحفظه كله. كانت في أداء حق لم تحبه النفس، وقبول طيب بلا إسراف، وحفظ قدر من المال دون أن تسميه حصنًا من الله، وترك مساحة للمراجعة. بهذا استعاد المال صفته: أمانة فيها حقها وحقوق غيرها، لا فرصة للانتقام من الماضي ولا وعدًا بألا يأتيها ألم.

ويعيد القرآن الملك كله إلى أصله بقوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: 7]. سبق معنى الاستخلاف على وجه عام في الحديث عن الدنيا، ويعود هنا مخصوصًا بالمال: ملك حقيقي تترتب عليه الأحكام، لكنه مؤقت وتحت ملك الله.

كان المال قبل صاحبه في يد غيره، وسينتقل بعده إلى وارث أو مشتر أو جهة لا يعرفها. هذه الحقيقة لا تلغي حق الملكية، بل تمنعه من الطغيان. يملك الإنسان ويتصرف في الحدود التي أذن بها المالك الأول، ثم يسأل عما فعل. الاستخلاف يحمي من فكر ينكر حق الناس في أموالهم، ومن غرور يظن أن الملك يرفع السؤال.

من ثمراته أن يرى الغني قدرته تكليفًا لا رتبة إنسانية أعلى. لا يحتاج المحتاج إلى أن يبيع كرامته حتى يصل إلى حقه، ولا يصبح العامل أقل قدرًا لأن رزقه متعلق بعقد مع صاحب المال. والمال الصالح لا يشتري ولاء الناس ولا يصنع طبقة من المصفقين؛ لأن صاحبه يعلم أن ما يملكه لا يرفعه عند الله إلا بما عمل.

ويعرض النبي ﷺ صورة إيجابية مكتملة للمال حين يقع في يد من عرف حقه. فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا». رواه البخاري (1409)، ومسلم (816).

والمراد غبطة صاحب النعمة، لا تمني زوالها. ولم يجعل الحديث موضع الغبطة كثرة المال وحدها، وإنما القدرة على قيادته إلى الحق؛ فصاحبه لم يكن خازنًا تجمع عنده الأرقام، وإنما عبدًا امتلك قدرة ثم أخضعها لأمر الله. وهذا هو النموذج الإيجابي الذي يكمل معنى «نِعْمَ المال الصالح للمرء الصالح»: مال يوسع القدرة على الخير، وصاحب لا يترك قدرته للهوى.

ويكفي هنا تقرير هذا الأصل؛ أما صور انتقال المال إلى مصالح الناس وأبواب العطاء الممتدة، فلها موضع أوسع في الحديث عن انتقال المال إلى النفع.

وقد يعرف الإنسان أثر المال في قلبه من ردود صغيرة: هل يغضب حين لا يعرف الناس قدر ثروته؟ هل يضيق إذا خوطب كما يخاطب غيره؟ هل يفرح بزيادة مشبوهة ويحزن بخروج حق واجب؟ هل يقيس صدق أصدقائه بمقدار حاجتهم إليه؟ هذه الإشارات لا تحكم على باطنه كله، لكنها تكشف جوانب تحتاج إلى تربية.

الصالح لا يأمن الفتنة لأنه صالح. يحتاج إلى محاسبة، وإلى من يقول له الحقيقة بلا خوف، وإلى خلوة يسقط فيها الاسم الذي صنعه المال. وكلما اتسعت قدرته، زادت خطورة أن يحيط نفسه بمن يزينون قراراته. من نعم الله على صاحب المال ناصح لا يشتريه عطاؤه، وعقد واضح لا يتغير على الضعيف، وقلب يتذكر الوقوف منفردًا بين يدي الله.

وفي الوقت نفسه لا يشل الخوف مواهبه. قد يمنح الله إنسانًا قدرة في التجارة أو الاستثمار أو إدارة الموارد. استعمالها في الحلال، مع أداء الحقوق وحراسة القلب، باب عبادة. ترك القدرة لمجرد أن المال فتنة لا يكون زهدًا دائمًا؛ فقد يضيع مصالح يستطيع حملها، ويترك الميدان لمن لا يراقب الله فيه.

راجع مالًا مهمًّا دخل يدك في العام الأخير: راتبًا، أو ربحًا، أو هدية، أو ميراثًا. لا تبدأ بالسؤال عن مقداره. ارجع إلى بابه: هل جاء من طريق واضح؟ ثم انظر إلى أثره: ماذا صنع في قلبك؟ وبعد ذلك فتش عن الحق: ما الذي أديته به، وما الذي ما زال متعلقًا فيه أو تأخر بسببه؟

قد تجد نعمة شكرتها، أو حقًّا يحتاج إلى رد، أو خوفًا حملك على شح، أو توسعًا تجاوز القوام. الإصلاح لا يحتاج دائمًا إلى مشهد كبير. قد يبدأ بتصحيح حساب، أو دفع أجر، أو كتابة حصة شريك، أو قبول نعمة بغير تفاخر، أو وقف إنفاق يشتري صورة لا تحتاجها. المال الصالح يتكون من هذه الطاعات اليومية الهادئة، ثم يمضي صاحبه إلى الأرض ليطلبه بسعي مأمور وافتقار لا ينقطع.

الوحدة الثانية عشرة: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ — السعي الذي لا يستعبد

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: 15]. في آية واحدة أرض مذللة، ومشي مأمور به، ورزق منسوب إلى الله، ونهاية تعود إليه. تتحرك الجوارح في العالم، ويظل القلب عارفًا بمن ذلل ومن رزق وإلى من يكون المصير.

لم يقل القرآن للإنسان: انتظر ما كتب لك. أمره أن يمشي في مناكب الأرض، وأن يطلب من وجوهها الواسعة. السعي جزء من التكليف، والقدرة التي أودعها الله في العبد أمانة تستعمل. من استطاع التعلم والعمل ثم عطل ما يملك بلا عذر، لا يصنع توكلًا؛ يترك سببًا أمره الله في الجملة أن يبذله بحسب حاله وواجبه.

وفي قوله ﴿مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ تصحيح يصاحب الحركة منذ أولها. ما يصل بعد العمل رزق الله، وإن جاء على يد الإنسان وبمقابل مهارته. العقل الذي خطط، والجسد الذي تحرك، والأرض التي حملت، والعميل الذي احتاج، والنظام الذي أتاح، واللحظة التي وافقت؛ شبكة كاملة من النعم لا يستطيع العامل أن ينسب خلقها إلى نفسه.

ثم تختم الآية بالنشور. السوق ليس آخر الطريق، والإنجاز المهني ليس الهوية التي يبعث بها الإنسان. سيخرج من كل وظيفة كما خرج من سابقتها، ثم يخرج من الدنيا كلها، ويبقى ما عمله في مشيه: صدقه وظلمه، نفعه وخيانته، ذكره وغفلته. استحضار النشور لا يعطل الإنتاج؛ يمنع النجاح من أن يضل وجهته.

العمل في التصور الإيماني لا يقع خارج العبادة لمجرد أنه يدر دخلًا. يتصل بعمارة الأرض، وكفاية النفس والأهل، وإقامة مصالح يحتاجها الناس. طبيب يحفظ نفسًا، ومعلم يبني عقلًا، وصانع يصلح حاجة، ومزارع يخرج قوتًا، وموظف يؤدي نظامًا؛ كلها أعمال دنيوية في صورتها، وقد تكون من القرب إذا استقام قصدها وطريقها وحقوقها.

ويصل القرآن بين المسجد والسوق من غير خصومة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: 10]. يخرج المصلون من الجمعة إلى الابتغاء، ويبقى الفضل منسوبًا إلى الله، ويبقى الذكر حاضرًا في قلب الحركة.

الصلاة لا تقطع الإنسان عن مصالحه، بل تعيده إلى مركزه قبل أن يرجع إليها. والذي سجد لله هو نفسه الذي يوقع العقد، ويحسب السعر، ويتعامل مع الزميل، ويستقبل المراجع. هنا يظهر صدق العبادة: هل تبقى الأمانة بعد أن يغادر الصف؟ وهل يصحب ذكر الله القرار الذي لا يراه المصلون؟

وقد يعيش الإنسان انقسامًا يضع ساعات العبادة في جانب وساعات العمل في جانب آخر، كأن الله حاضر في الأولى غائب عن الثانية. هذا الانقسام يضيع مساحات واسعة من القرب، وقد يسهل معه أن يتعامل المرء في مهنته بمنطق مستقل عن دينه. وصل الموضعين يعيد كل يوم مهني إلى السؤال عن رضا الله والحق والنفع.

النية الصالحة جزء من هذا الوصل، لكنها لا تعمل وحدها. يتحول العمل المباح إلى عبادة حين يقصد به العبد وجهًا صالحًا، ويوافق في أصله وطريقته الشرع، ويؤدي ما تعلق به من حقوق. من كسب الحرام لأجل أهله لم تصحح الغاية طريقه، ومن أضاع أمانة الناس بحجة أنه منشغل بطاعة مختارة لم يقم بالعبادة الواجبة عليه.

قد ينوي الإنسان أن يعف نفسه، وينفق على من تلزمه نفقتهم، ويخدم الناس بعلمه، ويستغني عن سؤالهم. هذه النيات ترفع العادة، ثم تحتاج إلى ترجمة في الأداء. لا يكفي أن يكتب الطبيب على قلبه نية النفع ثم يهمل تشخيصًا، ولا أن يقصد المعلم الخير ثم يضيع أوقات طلابه. صلاح القصد يطلب صلاح الفعل بقدر الاستطاعة.

وإذا تعين حق مهني أو تعلق به حق آدمي، قدم على نافلة اختارها الإنسان لنفسه. الموظف الذي ترك مراجع الناس ينتظرون لينشغل بورد يمكنه فعله في وقت آخر لم يقدم الآخرة على الدنيا؛ قدم تطوعًا على أمانة لزمته. العبادة لا تبنى على إضاعة حق، والإتقان في موضع الواجب أقرب إلى الله من مظهر تعبدي يظلم به الناس.

وقد شرف النبي ﷺ الكسب من اليد في حديث المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه فقال: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ». رواه البخاري (2072). ذكر داود عليه السلام مع النبوة والملك، فاجتمع شرف المقام وشرف العمل.

لا يدل الحديث على أن كل عمل يدوي أفضل مطلقًا من كل عمل ذهني، ولا يقيم طبقات جديدة بين المهن. دلالته المركزية أن الكسب بعمل مباح شريف، وأن استغناء الإنسان بجهده قيمة. قد يعمل بيده، أو بعلمه، أو بتنظيمه، والمعتبر أن يؤدي نفعًا مشروعًا ويحمل تبعته بدل أن يعيش على أيدي الناس مع قدرته.

المجتمع يرفع مهنًا ويخفض أخرى بحسب الصورة والدخل واللقب. وقد يدخل هذا الترتيب إلى النفس حتى ترفض عملًا مباحًا تحتاج إليه، لا لعجز ولا لمحذور، بل خشية أن ينقص قدرها في أعين الناس. عندئذ تصبح المكانة عائقًا عن المشي، ويصير التعطل أهون من بداية لا توافق الصورة التي رسمها المرء لنفسه.

وفي حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه يضع النبي ﷺ صورة أشد خشونة: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةٍ مِنَ الْحَطَبِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ». رواه البخاري (1471).

حديث عمل اليد يقرر أصل شرف الكسب، وحديث الحطب يواجه استعلاء الصورة الاجتماعية ويحفظ الوجه من المسألة. الحبل على الظهر، والحطب، والسوق؛ عمل لا يحمل وجاهة ظاهرة، لكنه خير من تعليق الكرامة بمزاج المعطي. لا يذم الحديث سؤال المحتاج الذي أباح له الشرع، وإنما يكسر امتناع القادر عن السعي لأن العمل المتاح دون الصورة التي يريدها.

امرأة توفي زوجها وترك لها أطفالًا ومدخرًا يكفي مدة محدودة. كانت تجيد إعداد طعام عرف به بيتها، وفهمت منذ البداية أن عليها أن تبحث عن مورد. لم يكن الصراع عندها بين العمل والكسل؛ كان بين معرفتها بالحاجة ونظرة الناس. خشيت أن يقال إنها تحولت من ربة بيت إلى بائعة، وأن يساومها من عرف حالها، وأن تفشل أمام أقارب نصحوها بالتريث.

بدأت بطلبات قليلة من جاراتها. أخطأت في تقدير التكلفة، وتأخر بعض الزبائن في الدفع، واضطرت إلى الاعتذار عن طلبات فوق طاقتها. كانت تقف طويلًا في المطبخ ثم تعود إلى واجبات أطفالها، وفي ليال كثيرة شعرت أن الدخل الصغير لا يساوي التعب. لم تكن مشكلتها نقص الإيمان بالسعي، بل احتمال بطء الثمرة مع استمرار الحاجة.

تعلمت أن تحسب السعر بصدق، وأن تحدد ما تستطيع، وأن تطلب عربونًا يحفظ حقها، وأن تستعين في بعض الأيام. بقي المشروع محدودًا، ولم تصبح ثرية، لكنه غطى جزءًا من النفقة وأخر حاجتها إلى السؤال. والأهم أن معنى العمل تغير في قلبها: لم يعد علامة على سقوط منزلتها، بل طريقًا تحفظ به أمانتها، وتطرق به بابًا من الأبواب التي ذللها الله.

كانت تدعو أن يوسع الله عليها، وتعلم في الوقت نفسه أن الدعاء لا يلغي إعداد الطلب في موعده. وحين يقل الزبائن لا تقرأ ذلك حكمًا على قيمتها، بل تراجع الجودة والتكلفة وتبحث عن أسباب أخرى. هذا هو السعي الذي لا يناقض التوكل: فعل جاد، وتعلم من الخطأ، وقلب لا يحصر رزق الله في نجاح المشروع.

وتأتي السنة بقاعدة أوسع في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجِزْ». رواه مسلم (2664). جمع الحديث الحرص والاستعانة، ثم نهى عن العجز؛ فلا تنفصل القوة عن الافتقار.

«احرص على ما ينفعك» أمر يوقظ الإرادة، و«استعن بالله» يمنعها من الاستقلال، و«لا تعجز» يقطع استسلام النفس قبل استفراغ الوسع. المنفعة تقاس بالشرع وبالواقع، لا بمجرد الرغبة. وقد يكون النافع تعلمًا طويلًا، أو إنهاء مهمة صغيرة، أو طلب مساعدة، أو ترك مشروع بعد ظهور فساده والانتقال إلى غيره.

القوة هنا أوسع من قوة الجسد والمال. تشمل قوة الإيمان، والعلم، والقدرة على العمل، والثبات عند المشقة، وحسن إدارة ما وُهب الإنسان. وهي محبوبة حين تدخل في طاعة الله ونفع الخلق. أما قوة تتكبر أو تظلم أو تستعمل المهارة في الحرام فليست هي القوة التي يمدحها الحديث في أثرها.

الإتقان من مقتضى الأمانة، لكنه لا يساوي عبادة الكمال. الإتقان يبذل الوسع المناسب لطبيعة العمل وحق الناس، ويخرج المهمة حين تستوفي معيارها. أما عبادة الكمال فتربط القيمة بصورة لا خطأ فيها، وتؤخر الإنجاز خوفًا من النقد، أو تستنزف الجسد والأسرة في تحسينات لا يطلبها الحق. الأول مسؤولية، والثاني قد يكون خوفًا متنكرًا في هيئة جودة.

من علامات الفرق أن المتقن يعرف متى يحتاج إلى مزيد من المراجعة ومتى يجب أن يسلم العمل، ويقبل أن يكون بعض الناتج جيدًا لا مثاليًّا بحسب الوقت والموارد. طالب الكمال يظل يعدل لأن ظهور نقص صغير يهدد صورته، ثم قد يضيع الموعد أو يحرم الناس منفعة كانت ستصلهم. أداء الحق في وقته جزء من جودته.

وترتفع درجة الإتقان المطلوبة بقدر ما يتعلق بالعمل من حقوق وخطر؛ فتبعات الخطأ ليست سواء، والأمانة تفرض الاحتياط الذي يناسب كل مهنة.

العمل نفسه قد يكون نفعًا قبل أن يتحول المال الناتج عنه إلى صدقة أو مشروع. خبز جيد يسد حاجة، وبرنامج يحفظ وقتًا، وتعليم واضح، وخدمة عادلة؛ آثار تصل إلى الناس من ذات المهنة. لا تختصر قيمة العامل في مقدار ما ينفق بعد قبض راتبه. يمكنه أن يعبد الله بجودة ما يقدم، ثم يعبد الله بما يصنع بالمال الذي كسبه.

ومع ذلك يبقى حد لا يتجاوزه السعي: الرزق لا يطلب بمعصية. هذه الوحدة تقرر الأصل، ولا تستنفد تفاصيل الخروج من وظيفة محرمة أو تحمل آثار القرار عند تعارض المصلحة مع أمر الله. يكفي أن يعرف العامل منذ البداية أن الطريق جزء من الرزق، وأن مالًا يأتي بخيانة الأمانة ليس ثمرة مباركة للسعي مهما حسنت أرقامه.

ويضع القرآن ما آتاه الله للعبد في أفق الآخرة من غير أن يمحو نصيبه من الدنيا: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: 77]. ستعود الآية في قصة قارون بسياقها الكامل، وهنا تؤخذ منها جهة تسخير العطاء للدار الآخرة.

لا تنس نصيبك من الدنيا، لكن لا تجعل النصيب هو الغاية التي تبتلع الطريق. ابتغ بما آتاك الله الدار الآخرة: بعلمك، ومهارتك، ومالك، ووقتك. ثم أحسن كما أحسن الله إليك، وامنع القدرة من التحول إلى فساد. هذه الحركة لا تدعو إلى الانسحاب من الدنيا؛ تدعو إلى توجيه ما فيها نحو المآل.

يرى المؤمن النتيجة ثم يعيد نسبتها إلى فضل الله. يشكر من أعانه، ويعرف قيمة جهده، ولا يمحو مسؤولية نفسه باسم التواضع. لكنه يدرك أن جهده لم يكن المصدر الكامل للثمرة. هذا الوعي يحفظه من الغرور عند النجاح، كما يحفظه من الانهيار عند التعثر؛ لأنه لا يزعم أنه كان يملك كل الشروط.

راجع واقعة واحدة من أسبوع عملك. قد تكون مهمة بذلت فيها السبب كاملًا، ثم ظل قلبك مشدودًا إلى النتيجة كأنها الحكم على قيمتك؛ أو أمرًا تركت سببه المقدور، ثم غطيت الترك بكلمة التوكل. لا تجمع قائمة طويلة. قف عند الواقعة، وحدد أين انتهى واجبك، وأين بدأ ادعاء السيطرة أو العجز.

ربما تحتاج بعد المراجعة إلى خطوة عملية واضحة: اتصال تأخر، أو مهارة تتعلمها، أو حق مهني تؤديه، أو موعد تسلم فيه عملًا استوفى المطلوب، أو دعاء تقوله بعد بذل السبب بدل إعادة الحساب في قلبك بلا نهاية. التوكل لا يختصر في شعور؛ يظهر في يد تعمل، وقلب يستعين، ونفس تقبل أن النتيجة لله.

يخرج الإنسان بعد ذلك إلى سوقه أو مكتبه أو حقله. يمشي في الأرض التي ذللها الله، ويأكل من رزقه، ويعرف أن خطاه نفسها نعمة، وأن ما يدخل يده أمانة، وأنه عائد إلى من رزقه. قد يمر المال بقلبه فيستقر خادمًا، وقد يصعد إلى موضع السيد؛ وقد يحمله بالعدل والشكر، أو يحمل صاحبه إلى الكبر والبغي.

في قصص القرآن لا تبقى هذه المعاني قواعد مجردة. يظهر المال في يد قارون وهو يرى القوة من نفسه، وفي جنتين أذهلتا صاحبهما عن المنعم والمآل، وفي أصحاب جنة دخل الطمع خطتهم قبل أن يبلغوا ثمرتها. ويظهر السلطان والقدرة في سليمان وذي القرنين على وجه آخر. الوجوه تتغير، والمال يكشف في كل قصة حقيقة القلب الذي حمله.

المحور الخامس: وجوه الدنيا في قصص القرآن

مقدمة المحور: من ملكتهم الدنيا ومن ملكوها فلم تملكهم

قد يعرف الإنسان أحكام المال، ويوقن أن الرزق من الله، ويردد أن الدنيا زائلة، ثم لا ينتبه إلى ما تصنعه النعمة في قلبه. لذلك لا يكتفي القرآن بالقواعد المجردة؛ يضعنا أمام قارون خارجًا في زينته، وصاحب الجنتين وهو يدخل بستانه، وإخوة يتخافتون حتى لا يراهم مسكين، وملكين عظيمين: يسمع أحدهما نملة، ويصغي الآخر إلى شكوى قوم ضعفاء.

في هذه القصص لا يقع الامتحان خارج الملك، وإنما يجري في داخله. يقول الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 28]. وقد سبقت هذه الآية في الوحدة الخامسة من جهة كون الأهل والولد زينةً وفتنة، وتعود هنا من جهة أعم: امتحان القلب فيما يملكه من مال وقدرة. فالفتنة تكشف: هل تبقى النعمة موصولة بالمنعم، أم تصير دليلًا يتكئ عليه صاحبها ليعظم نفسه، ويأمن المستقبل، ويضيق بحقوق غيره؟

ولا تبدأ الانحرافات دائمًا بقرار صاخب. قد تبدأ في طريقة يروي بها الناجح قصته كأنه صنعها وحده، أو في نعمة حاضرة يمدها الخيال إلى غد لا ينتهي، أو في خطة يدفع ثمنها الضعيف لأنه لا يملك قوة التفاوض، أو في منصب تتحول فيه الأمانة إلى صورة شخصية. ثم تكبر هذه المعاني حتى يصير الإنسان مملوكًا لما يظن أنه يملكه.

وفي الجهة المقابلة لا يقدم القرآن العجز زهدًا، ولا الضعف طهارة. فقد آتى الله سليمان ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، ومكن لذي القرنين في الأرض وآتاه من كل شيء سببًا، ثم بقي اللسان والقلب والعمل تحت سلطان العبودية. قال سليمان عند حضور ما يعجز عنه الملوك: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: 40].

الفارق لا يقاس بحجم الرصيد ولا بسعة النفوذ. قارون لم يهلك لمجرد أنه امتلك، وسليمان لم ينج لأن ماله كان قليلًا؛ فقد ظهر في كل واحد معنى الملك داخل القلب. الأول رأى العطاء شهادة لنفسه، والآخر رآه فضلًا وامتحانًا. أصحاب الجنة جعلوا قدرتهم على المنع حقًّا مطلقًا، وذو القرنين جعل قدرته بابًا للعدل، ثم وقف أمام أعظم منجزه معلنًا أنه رحمة من ربه وأن يوم فنائه آت.

سيقرأ هذا المحور ألفاظ القصص وتحولاتها كما ساقها القرآن، ثم يقترب بها من الحياة التي نعيشها. لن يبحث عن قارون في كل غني، ولا عن أصحاب الجنة في كل من لم يتصدق، ولا عن ذي القرنين في كل مدير. المقصود أن يتعرف القارئ إلى الآلية القلبية حين تظهر في واقعة محددة، وأن يسأل عن عبوديته في النعمة قبل أن يسارع إلى محاكمة الناس.

وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: 111]. والعبرة عبور من الخبر إلى النفس، ومن مشهد مضى إلى قرار حاضر. حين يكتمل هذا العبور، لا تبقى القصص صورًا بعيدة؛ تصبح مرآة يرى فيها الإنسان كيف يحكي نجاحه، وعلى ماذا يبني أمانه، ومن يدفع ثمن مكسبه، وماذا يفعل حين يضع الله في يده قدرة لا يملكها غيره.

الوحدة الثالثة عشرة: قارون ـــ حين ينسب الإنسان النعمة إلى نفسه

تفتح قصة قارون مشهدها على ثروة تكاد مفاتيحها تثقل الرجال الذين يحملونها. لا يخبرنا القرآن عن فقر سابق ولا عن رحلة صعود، ولا يجعل المهارة الاقتصادية مركز القصة؛ يبدأ من حقيقتين متجاورتين: رجل من قوم موسى آتاه الله، ثم بغى. وبين العطاء والبغي تنكشف المسافة التي قطعها المال داخل القلب.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: 76]. جاء فعل العطاء مسندًا إلى الله قبل أن ينطق قارون بتفسيره الخاص للثروة.

قوله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ لا يذم كل سرور بالنعمة. القرآن نفسه يأمر بالفرح بفضل الله ورحمته، والنبي ﷺ أقر جمال الثوب والنعل حين نفى أن يكون ذلك هو الكبر. المنهي عنه هنا فرح البطر الذي يحمل صاحبه على الاستعلاء والغفلة، فيرى المال تكبيرًا لذاته لا فضلًا يستدعي الشكر، ويخرج به على الناس بدل أن يقوم بحقهم.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58]. فالفرح الذي يرد النعمة إلى فضل الله ويستعين بها على طاعته محمود، والفرح الذي يفصل الجمع عن المنعم ويجعل صاحبه فوق النصيحة والناس هو أول تشقق في معنى العبودية.

لم يواجه قوم قارون ماله بالتحريم، ولم يطلبوا منه أن يلقي الكنوز أو ينسحب من الحياة. قدموا له وصية متوازنة لا تستقيم جملة منها إذا عزلت عن بقية الجمل. إنها تعيد ترتيب الغاية، وتحفظ النصيب المباح، وتطالب بالإحسان، وتغلق طريق الفساد. كل ذلك داخل مال موجود وقدرة واقعة، لا في عالم يخلو من الملك.

قالوا له: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 77]. سبق استعمال الآية في باب السعي من جهة تسخير العطاء، وتعود هنا في موضعها القصصي كاملة بوصفها الحجة التي ردها قارون.

أول الوصية أن يبتغي بما آتاه الله الدار الآخرة. المال لا ينتقل إلى الآخرة بعينه، لكنه ينتقل بأثره: حق يؤديه، وحرام يكف عنه، ونفع يوصله، وشهوة يضبطها، وقلب يشكر. وصيغة ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ تجعل الموجود كله ميدانًا للابتغاء؛ لا الفائض وحده، ولا المبلغ الذي لا يحتاج إليه صاحبه.

ثم جاء قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ داخل الوصية نفسها، فلا يطلب الإيمان من الغني أن يكذب حاجاته أو يحرم نفسه ما أباح الله. يأكل، ويسكن، وينتفع، ويستريح، ويحفظ ما تقوم به مصالحه. ويبقى النصيب نصيبًا؛ لا يتحول إلى غاية تبتلع الدار الآخرة، ولا إلى حق مطلق يمحو حقوق الله والخلق.

وقوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ يصل فعل العبد بأصل النعمة. الإحسان لا يخرج من ذات مستقلة تتفضل على من دونها؛ هو جواب عبد أحسن الله إليه. حين يستقر هذا المعنى، لا يرى صاحب المال المحتاج كائنًا يهدد ملكه، ولا العامل مجرد تكلفة، ولا المجتمع مسرحًا يبني فيه صورته، بل يرى أبوابًا يرد فيها بعض أثر إحسان ربه.

وتنتهي الوصية بالنهي عن الفساد؛ لأن المال يمنح صاحبه قدرة تتجاوز شراء الأشياء. يستطيع أن يؤثر في القرارات، ويشتري الصمت، ويؤخر الحقوق، ويزين الباطل، ويضيق على من لا يملك بديلًا. وقد قال الله تعالى:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83].

كان يمكن لقارون أن يناقش تفصيلًا من الوصية، لكنه رد أصلها بجملة تكشف تصورًا كاملًا: هذا المال جاء من علم عندي. تبدو العبارة في ظاهرها حديثًا عن سبب؛ فالإنسان قد يتعلم التجارة، ويفهم السوق، ويحسن الإدارة. الاعتراف بالخبرة ليس عجبًا في ذاته، وإنكار أثرها ليس تواضعًا. موضع المرض في الحصر، وفي الطريقة التي أعادت بها العطاء كله إلى الذات.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: 78]. جاء الرد بتذكيره بمن كانوا أقوى وأكثر جمعًا، ثم لم تمنعهم أسبابهم من حكم الله.

«ذكر الطبري وابن كثير والقرطبي وغيرهم من المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أقوالًا متقاربة في أصلها: أنه ادعى تحصيل المال بعلمه بوجوه المكاسب وصناعته، أو زعم أن الله أعطاه لعلمه باستحقاقه وفضله عنده. والجامع أن النعمة انفصلت في وعيه عن محض الفضل، وصارت برهانًا على كفاءة مكتفية أو منزلة مستحقة. وكلا المعنيين يعفي النفس من الشكر والمراجعة.

هذه الجملة تتكرر في النفس البشرية وإن تغيرت ألفاظها. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 49]. يسميها الله نعمة منه وفتنة، ويسميها صاحبها حصيلة علمه وحده.

بعد النجاح يعيد الإنسان رواية قصته من الزاوية التي تضعه في مركزها. يتذكر القرار الذكي، والساعات الطويلة، والمخاطرة التي قبلها، وقد يغيب عنه ما لم يصنعه: صحة حملته، وعقل وهبه الله، وأسرة ساندته، ومعلم فتح له بابًا، ونظام حمى معاملته، وعميل وثق به، ووقت وافق حاجته، وأخطار صرفت عنه ولم يشعر بها.

وقد رد القرآن هذه الشبكة كلها إلى أصلها في كلمة جامعة: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: 53]. لا تنفي الآية فعل العبد، لكنها تمنعه من اقتطاع فعله من الوجود الذي أقامه الله فيه، ومن القوى والفرص والحفظ التي لم يخلق منها شيئًا.

لا يطلب الشكر أن يمحو المرء جهده من القصة. هو مسؤول عن اختياره، وقد يكون تفوقه ثمرة عمل حقيقي. لكنه يضع جهده داخل شبكة أوسع من المنح، ويعرف أن القدرة على السبب نفسها من الله، وأن المجتهدين لا تتطابق نتائجهم. حين يقول: اجتهدت فوفقني الله، لا يتزين بعبارة دينية؛ يعيد بناء الحقيقة كما وقعت.

ويظهر صدق هذه الرواية حين يبتعد المرء عن الكلمات التي يقولها أمام الناس. قد يكثر من الحمد علنًا، ثم يضيق في داخله إذا نُسب جانب من نجاحه إلى فريقه أو إلى ظرف ساعده، كأن الاعتراف بفضل غيره ينتقص من قدره. الشكر الصادق لا يخاف توزيع الفضل؛ لأن صاحبه لا يحتاج إلى احتكار البطولة حتى يحفظ قيمته.

ومن آثار رد النعمة إلى الله أن يتغير الخوف من المستقبل. من ظن أنه صنع نجاحه وحده يحمل عبئًا مضاعفًا: يجب أن يكرر المعجزة بقدرته، وأن يمنع كل نقص في صورته. ومن عرف فضل الله يسعى ويطور نفسه، لكنه لا يعيش مطالبًا بإثبات كفاءة لا تخطئ، ولا يرى كل تعثر انهيارًا لذاته.

وقد عرف النبي ﷺ الكبر تعريفًا يفضح أثر تضخم الذات، فقال: «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ». رواه مسلم (91)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. بطر الحق رده وعدم الانقياد له، وغمط الناس احتقارهم. وهذان الأثران ظاهران في قارون: رد النصيحة، ثم خرج بزينته على قومه في صورة ترفع المسافة بينه وبينهم.

النجاح لا يصنع الكبر حتمًا، لكنه يهيئ له لغة مقنعة. صاحب التجربة قد يرد النصيحة لأنه يظن أن من لم يحقق ما حققه لا يملك حق الكلام، وقد يزدري من تعثر كأن كل اختلاف في النتائج دليل نقص في العقول أو الهمم. هنا يتحول الإنجاز من خبرة نافعة إلى منصة تمنع وصول الحق وتخفض الناس.

ثم نقل القرآن القصة من الحوار إلى العرض العام: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: 79]. لم تكن الزينة ساكنة في بيت؛ خرج بها صاحبها، فصار المال مشهدًا يصنع رغبات الآخرين ويعيد تعريف الحظ في أعينهم.

للمال أثر اجتماعي يتجاوز مالكه. حين يعرض النجاح بلا سياق ولا شكر ولا حق، يراه الناس نتيجة كاملة ويسقط من أعينهم ما وراءه. بعضهم يزدري ما عنده، وبعضهم يطارد الصورة بثمن لا يراه، وبعضهم يقرأ الحظ العظيم في مركب وثوب وحاشية. وهكذا تخدم زينة قارون فتنة لم تبدأ في قلوب الناظرين وحدهم.

لكن أهل العلم أجابوا بميزان آخر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: 80]. لم ينكروا وجود الحظ الدنيوي، وإنما نقلوا المقارنة إلى ما هو خير وأبقى، وربطوا نيله بالإيمان والعمل والصبر لا بمجرد التمني.

العلم هنا غير طريقة النظر قبل أن يغير مقدار المال. رأى الفريقان المشهد نفسه؛ أحدهما قاسه بعين الحاضر، والآخر أدخل ثواب الله في الميزان. وهذه وظيفة العلم الإيماني حين تصخب الصور: لا يجعل العين عمياء عن الجمال، لكنه يمنعها من أن تسمي العابر غاية، أو أن تفسر البريق شهادة على رضوان الله.

ثم وقع التحول الذي لم تستطع مفاتيح الكنوز دفعه: ﴿**فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ**﴾ [القصص: 81]. جمع الخسف بينه وبين داره؛ سقط الشخص وما جعله امتدادًا لقوته، وانكشف أن شبكة النفوذ لا تعمل حين يأتي أمر الله.

لا تعني القصة أن كل ثراء يعقبه انهيار دنيوي، ولا أن كل متكبر يرى العقوبة في ماله قبل موته. موضع اليقين أن الملك لا يخرج صاحبه من سلطان الله، وأن ما يتقوى به الإنسان قد يعجز عن أقل ما ظنه مضمونًا. وقد يمهل الله الظالم، ثم يلقى حسابًا لا تنفع فيه خزائن ولا جمهور.

وفي صباح الخسف أعاد المتمنون قراءة الأمس: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص: 82]. أدركوا أن عدم حصولهم على مرادهم قد كان منة.

تغيرت العبارة من ﴿يا ليت لنا﴾ إلى ﴿لولا أن من الله علينا﴾. هذا التحول يكشف جهل الإنسان بما يطلب. قد يرى بابًا مغلقًا حرمانًا، وهو يحفظه من فتنة لا يعرف قوته عليها. لا يجوز أن يفسر كل منع بهذه الطريقة جزمًا، لكن القصة تعلمه التواضع أمام التدبير: ليست كل زيادة نجاة، ولا كل تأخر إهانة.

وتختم القصة بالحكم الذي يجاوز قارون إلى كل قارئ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83]. العلو إرادة قلبية تظهر في استعمال المال والمكانة، والفساد أثر في الأرض، والآخرة لمن طهر القصد والعمل من كليهما.

وقد تتخفى نسبة النعمة إلى الذات في صورة أشد تهذيبًا من كلام قارون. يقول الإنسان: أنا أؤمن بفضل الله، لكنه في قراراته يتعامل مع من دونه كأن وصوله برهان على تفوق جوهره. لا ينطق بالاستغناء عن الله، لكن طريقته في توزيع الكرامة والإنصات تكشف أن النجاح صار عنده مقياسًا لقيمة البشر.

الثقة المشروعة تعرف حدودها. يقول صاحب الخبرة: درست هذا المجال، وأغلب ظني أن هذا القرار أصوب، ثم يبقى مستعدًّا لسماع دليل يخالفه. تضخم الذات يحول الخبرة إلى حصانة؛ فلا يعود السؤال عن صحة الرأي، وإنما عن مكانة من تجرأ على مناقشته. وهنا يعمل بطر الحق حتى لو كانت العبارة هادئة والملابس متواضعة.

ومن علامات الشكر أن يبقى النجاح قابلًا لأن يتحول إلى حق ونفع. يراجع صاحبه أجور من عملوا معه، ووعوده التي تأخرت، والأبواب التي يستطيع فتحها لغيره، وما استقر في يده من قدرة على الإصلاح. الشكر الذي لا يغير شيئًا في علاقة المال بالناس يظل ناقص الأثر، ولو كثر الثناء اللفظي على المنعم.

وقد يختبر الله صاحب النعمة بمن ينسب إليه فضلًا أقل مما يرى لنفسه. يسمع مدح فريقه أكثر من مدحه، أو يرى مشروعًا مشابهًا ينجح، أو ينتقل الاهتمام إلى شخص أحدث سنًّا. في تلك اللحظة يظهر إن كان يريد الخير نفسه، أو يريد أن يبقى الخير شاهدًا على تفرده. قارون لم يكتف بالكنوز؛ خرج بها ليرى الناس زينته.

كما أن الخوف من سقوط الصورة قد يدفع الناجح إلى قرارات لم يكن ليقبلها في بدايته. يخفي خسارة، أو يبالغ في الأرقام، أو يقسو على فريقه كي يحافظ على منحنى الصعود. من نسب المجد إلى ذاته صار كل تعثر تهديدًا لذاته، فاحتاج إلى حماية الرواية ولو على حساب الحق. التوحيد يحرره من هذا العبء؛ فالعبد يخطئ ويراجع، وربه لا تنقصه أخطاؤه.

والتوبة من معنى قارون لا تشترط زوال المال. قد يبقى المشروع والمنصب والخبرة، ويتغير القلب وطريقة الاستعمال. يقبل صاحبه نصيحة كان يردها، ويرد حقًّا كان يؤخره، ويذكر فضل من غاب عن الصورة، ويستعمل قدرته في الإحسان. النجاة ليست في تحطيم النعمة، وإنما في تحطيم الدعوى التي جعلت النفس مصدرها وغايتها.

رجل أسس مشروعًا بعد أعوام من المحاولات، ثم جاءه عقد كبير نقل الشركة إلى مستوى لم تعرفه. كان قد اجتهد فعلًا، وتعلم من خسائر سابقة، وتحمل ما لم يتحمله بعض من حوله. في الأيام الأولى حمد الله، ثم بدأ يروي قصة النجاح في المجالس. ومع كل رواية تقل أسماء من أعانوه، وتكبر جملة واحدة: كنت أرى ما لم يره الآخرون.

بعد أشهر تأخر في صرف مكافآت فريقه مع قدرته، وعد مطالبتهم قلة وفاء؛ فهو في نظره الذي صنع الفرصة كلها. وحين نبهه شريك قديم إلى خلل في عقد جديد، أجابه بأن زمن الحذر انتهى وأن الشركة تحتاج إلى من يفهم حجمها الجديد. لم يتحول إلى قارون بمجرد هذه الأفعال، لكن آلية قارون بدأت تعمل: رد الحق، وتصغير الناس، وإعادة كتابة النعمة باسم الذات.

كان إصلاحه ممكنًا قبل خسف لا يملك أحد أن يتنبأ بصورته. جلس مع حسابات المشروع، وكتب ما صنعه فعلًا وما لم يصنعه: من منحه الثقة الأولى، ومن عمل بأجر قليل في البداية، وما صرفه الله من أزمة، وأي حق تأخر. لم يلغ كفاءته، لكنه ردها إلى موضعها، ودفع المستحقات، وطلب من شريكه أن يعيد عرض التحذير.

لا يجوز أن نسوي بين كل غني وقارون، ولا أن نجعل ثقة الإنسان بخبرته عجبًا، أو حديثه عن جهده كفرانًا. الحكم يتوجه إلى المعنى المحدد: هل يقر بالسبب مع شهود المسبب، أم يحصر الفضل في ذاته؟ هل تقوده الخبرة إلى مسؤولية أشد، أم تجعله فوق الحق؟ وهل يرى الناس شركاء في المعروف والحقوق، أم خلفية لصورة نجاحه؟

استحضر نجاحًا حقيقيًا وقع لك: ترقية، أو مشروعًا نجح، أو شهادة حصلت عليها، أو أزمة خرجت منها بقرار حسن. أعد رواية الواقعة كما رويتها لنفسك ولغيرك. ما المساحة التي أخذها جهدك، وما النعم والأشخاص والظروف التي غابت؟ وهل بقي حق لأحد داخل قصة صنعت منها لنفسك بطولة كاملة؟

لا يكفي أن تضيف في آخر الرواية عبارة «بفضل الله» ثم تبقي بناءها كله على الاستقلال. الشكر يعيد ترتيب القصة، ويظهر في قبول الحق، وحفظ فضل الناس، وأداء ما تعلق بالمال، واستعمال النجاح في طاعة الله. من عرف أن ما عنده آتاه الله، استطاع أن يفرح من غير بطر، وأن يذكر خبرته من غير أن يجعلها ربًّا صغيرًا يفسر به العالم.

لكن نسبة المصدر إلى الذات ليست الوجه الوحيد لفتنة الملك. قد يعترف الإنسان أن النعمة من الله، ثم يبني عليها أمانًا طويلًا كأنها بعد وصولها لن تزول. هنا تنتقل القصة من قارون الذي قال: أنا مصدر ما عندي، إلى صاحب الجنتين الذي نظر إلى الموجود وقال في قلبه: هذا باقٍ لي.

الوحدة الرابعة عشرة: صاحب الجنتين — وهم البقاء

كان خلل قارون في تفسير منشأ النعمة: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾. أما صاحب الجنتين فلا يحدثنا القرآن كيف جمع ماله، ولا ينسب إليه دعوى قارون نفسها. يضعنا أمام رجل يدخل نعمة قائمة، ثم يبني من حضورها اليوم أحكام الغد. لم يقل إنه خلقها، لكنه عاش كأن وجودها الآن يكفي لضمان بقائها.

ضرب الله المثل برجلين، فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: 32-33]. اكتملت عناصر الوفرة: تنوع الثمر، وإحاطة النخل، ووجود الزرع، وجريان الماء، وانتظام الإنتاج.

تكرار أفعال الجعل والإيتاء والتفجير يرد المشهد كله إلى الله قبل أن يتكلم المالك. لم تكن الجنتان خرابًا أصلحه وحده، ولا أرضًا عقيمة أجبرها على الثمر؛ كانت النعمة تعمل في شبكة من الخلق والتقدير. ومع ذلك يستطيع الإنسان أن يعيش داخل ما صنعه الله حتى يختفي المنعم من وعيه، ويبقى السبب قريبًا يملأ العين.

الوفرة المنتظمة أشد إغراء من الربح العابر. حين يأتي المحصول في وقته عامًا بعد عام، ويعرف صاحبه موارد الماء والأسواق، تتحول الخبرة إلى إحساس بأن النظام صار ملكه. لا ينكر الله بلسانه بالضرورة، لكنه يتصرف كأن المستقبل امتداد آلي للحاضر، وكأن ما استقر مدة اكتسب حقًّا في البقاء.

والتعود على النعمة يضعف الإحساس بكونها متجددة. ما كان صاحبه يدعو الله أن يبلغه يصير بعد سنوات الحد الأدنى الذي يغضب إذا نقص. لا يتغير الشيء وحده؛ يتغير تعريف الاستحقاق في النفس. عندها لا يعود بقاء الجنة فضلًا يوميًّا، وإنما وضعًا طبيعيًّا يبدو زواله اعتداء على نظام الكون.

ثم دخلت المقارنة إلى القصة: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: 34]. لم يكتف بامتلاك الجنتين؛ احتاج إلى وضعهما في ميزان مع إنسان آخر. فالمال حين يصير هوية يطلب شاهدًا اجتماعيًّا، ويزداد صاحبه شعورًا به كلما رأى من هو أقل منه.

قوله: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ جمع بين قوة المال وقوة الجماعة. لم يعد الأمان مبنيًّا على الأشجار وحدها، بل على العدد والمكانة ومن يحيطون به. وهذه صورة تتكرر حين يطمئن الإنسان إلى شبكة علاقاته، وإلى اسمه في السوق، وإلى المؤسسة التي تحميه، حتى تبدو له أسباب العزة خارج سلطان التغير.

المقارنة لا تقف عند وصف الفرق. تبدأ برقم، ثم تنتقل إلى معنى الإنسان: أنا أكثر، إذن أنا أقوى وأحسن موقعًا وأبعد عن السقوط. ويصبح الآخر مرآة يثبت بها صاحب المال ارتفاعه. هنا لا يعود المال أداة يستعملها؛ يدخل في تعريف الذات، فيشعر أن نقصه نقص في الشخص نفسه.

ثم دخل جنته، لكن القرآن لم يقل إنه دخلها مالكًا فحسب، بل قال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [الكهف: 35]. وقع الظلم داخل مشهد النعمة؛ لأن القلب حمّل الجنة ما لا تحتمل، وأعطاها في وعيه قدرة على ضمان المستقبل، وربط بها منزلته، ثم نسي حق ربه في الشكر وحق نفسه في ألا يعلق مصيرها بمخلوق زائل.

وقال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الكهف: 35]. لم يقدم برهانًا على البقاء، وإنما عبّر عن ظن نشأ من طول الاعتياد. الحاضر القوي يصعب على النفس أن تتخيل نقيضه. من عاش صحة طويلة ينسى إمكان العجز، ومن استقر دخله يرى الانقطاع بعيدًا، ومن اعتاد الأمن يعامل الاضطراب كأنه شيء يقع للآخرين.

هذا الوهم لا يحتاج إلى اعتقاد فلسفي بأن الأشياء خالدة. يكفي أن تبنى الخطط والمواقف كأن الزوال غير داخل في الحساب. قد يقول الإنسان بلسانه إن كل شيء يفنى، ثم يؤجل التوبة والحق والراحة المشروعة والعلاقة بأهله إلى زمن لاحق، لأنه يتعامل عمليًّا مع العمر والقدرة والدخل كأنها ممتدة تحت يده.

ومن وهم بقاء الجنة انتقل الرجل إلى الشك في الساعة: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: 36]. لم تبق القضية في حدود سوء تقدير اقتصادي؛ حين استقرت الدنيا في قلبه، ثقلت عليه النهاية التي تسلبها سلطتها. فالإيمان بالساعة لا يعيش منفصلًا عن طريقة التعامل مع الموجود؛ من عبد الاستمرار ضاق بالبعث والحساب ولو لم يصرح بإنكاره ابتداءً.

ثم أضاف وهمًا أشد دقة: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: 36]. صار النجاح الدنيوي دليلًا يتوقع به نجاحًا أخرويًّا. كأن حصوله على الجنتين شهادة بأن له منزلة خاصة عند الله، وأن من أعطاه هنا سيعطيه هناك لأنه مستحق في ذاته.

هذه القراءة تجعل الدنيا ميزانًا لرضا الله، وقد سبق القرآن إلى إبطالها في مواضع متعددة. قد يوسع الله على عبد ابتلاءً، ويضيق على آخر رحمةً أو امتحانًا، ولا يدل مجرد البسط على حسن العاقبة. صاحب الجنتين لم يسأل: ماذا فعلت بالنعمة؟ بل جعل وجودها حجة لنفسه، فانتقل من الملك إلى تزكية المالك.

رد صاحبه المؤمن لم يبدأ بتفاصيل الزراعة ولا باحتمالات السوق. أعاده إلى أصل خلقه ووجوده: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: 37-38]. من خلق الإنسان من أصل ضعيف أقدر على سلب ما حوله، ومن كان ربه لا يشاركه بستان ولا مال في تدبير الغد.

ثم قال له: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: 39]. ليست هذه العبارة تعويذة تحفظ المال بمجرد ترديدها، ولا وعدًا بأن من قالها لن تصيبه خسارة. هي اعتراف بالمشيئة التي أوجدت الموجود، وبالقوة التي أقامت أسبابه وأقدرت صاحبها على الانتفاع به.

قول ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يرد تحقق النعمة وبقاءها إلى مشيئة الله، وقول ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ ينزع عن الإنسان وأسبابه دعوى الاستقلال. يستطيع بعد ذلك أن يدير الجنة، ويصلح الماء، ويحفظ الثمر، لكنه يعمل داخل مشيئة أعلى من خطته، ويعلم أن قوته نفسها عطاء لا ملك ذاتي.

هذه الكلمة تصحح نظرة الإنسان إلى الغد قبل أن تصحح لفظه عند الإعجاب. وقد نهى الله نبيه ﷺ أن يجزم بفعل المستقبل من غير تعليق على المشيئة: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: 23-24]. التعليق لا يلغي العزم؛ يضع العزم في موضع العبودية.

يخطط المؤمن للغد، ويكتب الموعد، ويعد المال، ويبرم العقد، ويقول: سأفعل إن شاء الله. لكن الكلمة لا تؤدي وظيفتها إذا بقي القلب جازمًا باستقلاله، أو استعملها اللسان عادةً ثم غضب صاحبها من كل طريق لم يوافق خطته كأن القدر نقض حقًّا ثابتًا له. صدق الاستثناء يظهر في مرونة القلب عند تغير الواقع.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34]. جهل الغد ليس نقصًا يعالج الإنسان كله بالتوقع؛ هو حد من حدود العبودية.

لا تمنع الآية دراسة الاحتمالات، ولا بناء التوقعات، ولا تأمين الاحتياجات. تقول لصاحب الخطة: مهما اتسعت معلوماتك، يبقى ما تكسبه غدًا خارج علمك المحيط، ويبقى مكان موتك مجهولًا لك. فلا تحول الترجيح إلى يقين، ولا تؤخر واجب اليوم على وعد لا تملكه.

وإذا كان صاحب الجنتين قد مد بقاء الجنة إلى الأبد، فإن طول الأمل يجد في النفس أصلًا قديمًا. قال النبي ﷺ: «يَكْبَرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبَرُ مَعَهُ اثْنَانِ: حُبُّ الْمَالِ، وَطُولُ الْعُمُرِ». رواه البخاري (6421)، ومسلم (1047)، من حديث أنس رضي الله عنه. كلما مضى العمر قد يزداد الحرص بدل أن يقصر الأمل.

ليس طول العمر المأمول مذمومًا من كل وجه؛ فقد يسأل المؤمن الله حياة في طاعته، ويحرص على صحته، ويعد لأسرته. المرض يبدأ حين يتحول الأمل إلى غطاء يمنع حضور النهاية، فيؤجل الإنسان رد الحق، وإصلاح العلاقة، والإنفاق الواجب، والتوبة، ويقول في داخله: سيأتي وقت أوسع، مع أن الوقت القادم لم يدخل ملكه.

ويمضي الحوار إلى إمكان زوال النعمة: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ۝ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾ [الكهف: 40-41]. قوة الجنة كانت قائمة على ماء قد يغور، وعلى أرض قد تنقلب.

الآيات لا تطلب من المالك أن يعيش متوقعًا الدمار في كل لحظة حتى يفسد عليه الانتفاع. إنها تكسر وهم الحصانة. المشروع القوي له نقطة ضعف، والجسد الصحيح يحمل أسباب فنائه، والسوق المستقر قد يتغير، والأنظمة التي تحفظ الحقوق قد تضطرب. هذه الحقائق لا تقتل العمل؛ تمنع العمل من ادعاء الربوبية.

ثم جاء الانهيار بصيغة الإحاطة: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: 42]. أحاط الهلاك بالثمر كله، وبقيت اليدان اللتان أنفقتا تقلبان العجز أمام ما لا يمكن استرداده.

ركزت الآية على ما أنفق؛ لأن الخسارة ليست في المال الموجود فقط، بل في عمر وجهد وتوقعات صارت ركامًا. يشعر الإنسان عندها أن جزءًا من نفسه انهدم، خاصة إذا جعل المشروع تعريفًا لذاته وضمانًا لغده. والاعتراف المتأخر بالشرك يكشف أن القضية تجاوزت حب مزرعة إلى تعلق نازع حق الربوبية في القلب.

وانقطع عنه ما كان يراه عزًّا: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾ [الكهف: 43-44]. عند سقوط الوسائط ظهر أن الولاية الحقيقية لله، وأن خير العاقبة لا يقاس بصورة البستان قبل هلاكه.

لا تذم القصة التخطيط للغد. التخطيط من استعمال العقل والأمانة، وقد أمر الشرع بأداء الحقوق وحفظ من تلزم نفقتهم. يضع الإنسان ميزانية، ويستثمر، ويدخر احتياطًا، ويتعلم لسنوات، ويخطط لتقاعده. موضع المرض أن يتحول انتظام السبب إلى يقين بالدوام، وأن ينسى في قراراته تغير الصحة والأجل والرزق والظروف.

والاحتياط المشروع يختلف عن طلب الأمان المطلق. الأول يعترف بالاحتمال ويستعمل المتاح، والثاني يريد من المال أن يغلق أبواب القدر. قد يتوسع الإنسان في الادخار، ثم لا يزداد طمأنينة؛ لأن كل مبلغ جديد يفتح في خياله حاجات ومخاطر جديدة. المال يخفف بعض المخاطر، لكنه لا يستطيع أن يحمل وعدًا بألا يتألم صاحبه.

رجل بنى خطة مهنية تمتد خمسة عشر عامًا. اختار تخصصًا مطلوبًا، واشترى بيتًا بقرض محسوب، ووضع جدولًا للتعليم والتقاعد. كانت الخطة في أصلها رشيدة، ثم صارت مع الوقت صورة وحيدة للحياة المقبولة. كل قرار عائلي خضع لها، وكل عبادة أو صلة أو راحة قيل لها: بعد أن نصل إلى المرحلة الآمنة.

ثم أصابه مرض لم يمنعه العمل كله، لكنه خفض قدرته، وتغير القطاع الذي يعمل فيه، واضطرت الأسرة إلى مراجعة نفقاتها. لم تكن الصدمة في نقص الدخل وحده؛ كانت في اكتشاف أنه خاطب الخطة سنوات كأنها وعد. شعر أن الحياة ظلمته، مع أن أحدًا لم يضمن له صحة دائمة ولا سوقًا ثابتة.

لم يكن الإصلاح أن يبيع كل شيء أو يتوقف عن التخطيط. أعاد توزيع التزاماته، وقبل مستوى معيشة أقل مما رسم، ونوع بعض ما يملك، وكتب وصيته، وفتح حديثًا صريحًا مع أسرته عن الحدود. الأهم أنه توقف عن مخاطبة الغد بلهجة المالك. بقي يعمل للخطة، لكنها لم تعد الإله الصامت الذي يطلب من الحاضر كله أن يذبح لها.

راجع خطة مالية أو مهنية طويلة بنيتها: مشروعًا، أو شراء بيت، أو مسارًا وظيفيًّا، أو ادخارًا للتقاعد. ما الافتراضات التي قامت عليها؟ هل تعاملت مع الصحة والدخل واستقرار البلد وبقاء الأشخاص كأنها ضمانات، أم كأسباب ترجح ولا تملك؟ وأي واجب أو معنى تؤجله إلى يوم تتخيل أن الأمان سيكتمل فيه؟

المراجعة لا تطلب منك أن تتوقع كل كارثة؛ فهذا مستحيل، وقد يتحول إلى قلق مرضي. المطلوب أن يظل الغد في مكانه: مجالًا للتدبير تحت مشيئة الله، لا أرضًا استولى عليها الخيال. تقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ثم تظهر الكلمة في مرونة الخطة، وفي أداء حق اليوم، وفي قدرة القلب على قبول طريق لم يرسمه.

كان صاحب الجنتين وحيدًا في وهمه، لكن فتنة الملك قد تنتقل من نفس إلى جماعة. يجلس الشركاء أو الورثة، ويتفقون على حماية المحصول، ثم يصنع التوافق بينهم جرأة لا يملكها كل واحد منفردًا. عندئذ لا يكون الخطر في طول الأمل وحده، بل في خطة تستبعد الضعيف كي يظل الربح كاملًا لأصحابه.

الوحدة الخامسة عشرة: أصحاب الجنة — حين ينسى المالك حق الآخرين

تنقل سورة القلم المشهد من رجل دخل جنته مزهوًّا إلى جماعة رتبت قرارها في الليل قبل أن تصل إلى بستانها. كان لهم ثمر ينتظرونه، وكان للفقراء نصيب اعتادوا أن يجدوه عند الحصاد. لم تبدأ الخطيئة حين امتدت الأيدي إلى الثمر؛ بدأت قبل ذلك، حين اجتمع قصد المنع مع ثقة كاملة بأن الخطة ستنفذ كما أرادوا.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم: 17-18]. سماها الله بلوى قبل أن يذكر ما وقع فيها؛ فالثمر الذي ينتظرونه لم يكن ملكًا ساكنًا، بل امتحانًا يكشف ما يريدون صنعه حين يقدرون.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾، ذكر ابن كثير والقرطبي فيه أنهم لم يقولوا: إن شاء الله، وقيل: لم يستثنوا للمساكين نصيبًا. ولا حاجة إلى حصر اللفظ في معنى واحد مع قيام الاحتمال التفسيري؛ فغياب تعليق المشيئة ثابت في سياق عزمهم الجازم، ومنع المسكين تصرح به الآيات اللاحقة. واجتمع في خطتهم وهم القدرة وإقصاء الضعيف.

أقسموا على الصرم في الصباح، وكأن الثمر صار في أيديهم قبل أن يخرجوا من بيوتهم. والعزم القوي مشروع حين يتعلق بخير مقدور، لكن الجزم الذي ينسى مشيئة الله يحمل في داخله دعوى خفية: نحن نملك الزمن والطريق والثمر ونتيجة القرار. ولهذا جاء الجزاء قبل أن تبدأ خطوات التنفيذ.

قال الله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: 19-20]. كانوا يخططون في الليل لحماية المحصول، وكان أمر الله يطوف عليه وهم نائمون. وفي كلمة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ رد مباشر للملك إلى من يملك الثمر وأصحابه ونومهم وصباحهم.

لم يشاهدوا التحول حين وقع. ناموا على صورة، واستيقظوا وهم يظنونها باقية. كثير من أوهام السيطرة تستمد قوتها من أن الإنسان لا يرى ما يجري خارج مجاله؛ ينام وقد بنى حساباته على معلومات أمس، بينما تتغير أسباب في جسده أو السوق أو الناس لا يملك علمها ولا دفعها.

ثم بدأ النداء الجماعي: ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ۝ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ﴾ [القلم: 21-22]. اللغة كلها لغة ملك واستعداد: حرثكم، إن كنتم صارمين. لم يعلموا بعد أن الشيء الذي ينسبونه إلى أنفسهم قد أصبح في صورة أخرى، وأن القرار الذي جمعهم فقد موضوعه قبل أن ينفذ.

ومضوا في خطتهم يتخافتون: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ۝ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾ [القلم: 23-24]. التخافت يكشف أن في القرار شيئًا يخجل من الضوء. قد يتكلم أصحابه بلغة حفظ المصلحة، لكنهم يخفضون أصواتهم لأن وجود المسكين يذكرهم بمعنى يريدون إسكاته.

الجماعة قد تمنح الشح قوة إضافية. الفرد ربما يتردد، ثم يجد من يبرر له، ويعيد تسمية المنع حزمًا، ويصور الرحمة ضعفًا في الإدارة. وكل واحد يستعير من موافقة الآخرين طمأنينة أخلاقية. وبذلك لا يبقى القرار مجرد بخل فردي؛ يصير ثقافة صغيرة يتواطأ فيها الناس على ألا يروا من سيدفع الثمن.

ويدل قولهم: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾ على أن مقصد المنع كان حاضرًا صريحًا. لم تكن القضية عدم تبرع عابر لا يجب عليهم بعينه؛ فقد جعلوا إبعاد المسكين جزءًا من خطة الصباح. وهذا هو موضع الذم: أن يتحول الملك إلى دائرة مغلقة، ويرى أصحابه الضعيف تسربًا يجب منعه.

ثم وصف القرآن هيئة خروجهم: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ [القلم: 25]. قيل: على قصد وجد ومنع، وهم يظنون القدرة. اجتمع تصميم النفس مع تصور الإمكان، فلم يتركوا في خطتهم مكانًا لمشيئة الله ولا لحق المسكين. خرجوا بقوة من يعتقد أن القرار اكتمل، وأن العالم لم يبق له إلا أن ينفذه.

هذه اللحظة تتكرر في قرارات مالية كثيرة. يدخل أصحاب المال اجتماعًا وقد اتفقوا على خفض تكلفة ما، ويكون أيسر بند للحذف حق إنسان ضعيف لا يستطيع الاعتراض. قد يؤخرون أجر عامل، أو يحملون موردًا صغيرًا خسارة العقد، أو يضغطون شريكًا أقل نفوذًا، ثم يسمون ذلك حماية لهامش الربح.

لا يكفي أن يكون القرار نافعًا لأصحابه حتى يصير عدلًا. الملكية تمنح حق التصرف داخل حدود الشرع، ولا تمنح حق أكل أموال الناس أو إيقاع الضرر بهم بلا حق. والأرباح ليست كتلة بريئة إذا حمل طريق تحصيلها أجرًا محبوسًا أو دينًا مماطلًا فيه أو شرطًا استغل حاجة الطرف الأضعف.

وحين رأوا الجنة قالوا أولًا: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ [القلم: 26]. ظنوا أنهم أخطؤوا الطريق؛ لأن الصورة التي أمامهم لا توافق اليقين الذي خرجوا به. النفس تبدأ غالبًا بتفسير الانهيار على أنه خطأ خارجي: لعلنا في المكان الخطأ، أو لعل الحساب غير صحيح، أو لعل أحدًا غير المعطيات.

ثم انتقلوا إلى إدراك الحقيقة: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ [القلم: 27]. لم يضلوا الطريق؛ الجنة نفسها ذهبت. وبين الجملتين انتقال من إنكار الواقع إلى الاعتراف بالخسارة. وقد يكون هذا الاعتراف بداية توبة، وقد يبقى مجرد أسف على المال إذا لم يتبعه نظر في السبب والظلم.

ظهر صوت أوسطهم بعد وقوع البلاء: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: 28]. والأوسط يحمل معنى الأعدل والأرجح عقلًا. كان في الجماعة صوت ذكرهم بالله قبل التنفيذ، لكنه لم يمنع المسار. وبعد انكشاف العاقبة عاد كلامه إلى السطح، ولم يعد ممكنًا دفنه تحت حماسة الاتفاق.

قوله: ﴿لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾ يرد القلب إلى تنزيه الله والاعتراف بملكه، ويدخل فيه ذكره والاستثناء بمشيئته وشكره. التسبيح هنا ليس لفظًا منفصلًا عن الأخلاق؛ لو حضر معنى تنزيه الله عن الشريك في الملك، لما تعاملوا مع الجنة كأنها خالصة لتدبيرهم، ولما رأوا قدرتهم على إقصاء المسكين حقًّا مطلقًا.

فقالوا: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [القلم: 29]. جمع اعترافهم بين تنزيه الرب واتهام النفس. لم يقولوا: كنا سيئي الحظ، ولا اكتفوا بوصف الخسارة؛ سموا الفعل ظلمًا. وهذه لحظة مركزية في التوبة: أن يعود الاسم الشرعي إلى الفعل بعد أن غطته لغة المصلحة.

ثم وقع التلاوم: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ۝ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ [القلم: 30-31]. التلاوم مفهوم حين تنهار الخطة، لكنه قد يتحول إلى باب جديد للهروب؛ كل واحد يبحث عمن بدأ الفكرة أو شجعها. القرآن ينقل تلاومهم، ثم ينقلهم إلى اعتراف جمعي: ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾.

الطغيان مجاوزة الحد، وقد ظهر حين ظنوا أن حق الملك يسمح لهم أن يلغوا كل معنى آخر. لا يصير المال ملكًا عامًا لأن صاحبه ظلم، ولا تسقط حقوق الملكية في الشريعة؛ لكن الملك الخاص نفسه محكوم بحدود الله، وبالديون والأجور والزكوات والالتزامات والحقوق التي لا يملك صاحبه محوها.

ويجب التفريق هنا بين الحق الواجب والصدقة المستحبة. أجر العامل ودين الدائن وحصة الشريك والنفقة الواجبة والزكاة المستحقة حقوق لا يجوز حبسها. والصدقة بعد ذلك فضل عظيم، لكنها لا تتعين في كل طالب ولا في كل ظرف. فلا يوصف كل من لم يتبرع بأنه ظالم، ولا تستعمل هذه الدقة الفقهية ستارًا يزين الشح وأكل الحقوق.

قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الماعون: 1-3]. قرن القرآن فساد الصلة بيوم الدين بقسوة عملية على الضعيف، حتى لا يبقى الإيمان بالجزاء دعوى لا تغير علاقة الإنسان بمن لا يملك قوة.

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: 8-11]. جمع البخل بالشعور بالاستغناء؛ فالممسك لا يحبس مالًا فقط، بل قد يبني داخله وهمًا بأنه مكتف بما في يده عن وعد الله وحق خلقه.

الشح يضيق مجال الرؤية. يرى صاحب القرار المبلغ الخارج بوضوح، ولا يرى أثره في العامل وأسرته، أو في الدائن الذي رتب التزاماته، أو في المحتاج الذي اعتاد معروفًا. كلما صار الآخر رقمًا بعيدًا، سهل التضييق عليه. ولهذا احتاج الإيمان إلى إعادة الإنسان إلى قلب المعادلة، لا إلى الأرقام وحدها.

قال النبي ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ». رواه البخاري (13)، ومسلم (45)، من حديث أنس رضي الله عنه. لا يطلب الحديث مساواة الناس في كل مال، لكنه يربي في القلب ميزانًا يمنعه من بناء مصلحته على ما يكره أن يقع عليه.

حين يفاوض صاحب العمل على أجر، أو يضع شروط عقد، أو يقرر تأخير مستحقات، يستطيع أن يسأل: لو كنت في الجهة الأخرى، هل أرى هذا عدلًا؟ السؤال لا يلغي اختلاف المواقع ولا مقتضيات الإدارة، لكنه يكشف ما تخفيه القوة. كثير من الشروط تبدو طبيعية فقط لأن صاحبها يعلم أنه لن يتحمل أثرها.

وقد رجع أصحاب الجنة بعد الاعتراف إلى الرجاء: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ [القلم: 32]. لم يغلق البلاء باب العودة. توجهوا إلى ربهم بعد أن توجهوا إلى الجنة، ورغبوا إليه بعد أن استغنوا بخطتهم. والرجاء الصادق لا يكتفي بطلب البديل؛ يحمل توبة من الظلم الذي كشفته الخسارة.

ثم وسع القرآن العبرة: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: 33]. ما وقع في الجنة ليس كل الجزاء الممكن، ولا كل ظالم يرى في الدنيا جنة محترقة. الحساب الأكبر في الآخرة، وحضور هذا الحساب هو الذي يمنع صاحب المال من قياس القرار بنتيجته العاجلة وحدها.

قد ينجح قرار ظالم ماليًا، وقد يرتفع هامش الربح بعد الضغط على الضعفاء، وقد لا يشتكي العامل خوفًا من فقد وظيفته. النجاح المحاسبي لا يحول الظلم عدلًا. من جعل النتيجة دليلًا على صحة الطريق أعاد خطأ صاحب الجنتين وقارون في صورة مؤسسية: ما دام المال جاء، فنحن على صواب.

شركة صغيرة مرت بضيق في السيولة، فاجتمع الشركاء لاختيار ما يؤجلونه. كان بينهم أجور عاملين محدودي الدخل، ومستحق مورد كبير، ومكافآت للإدارة، ومصروفات يمكن خفضها. بدأ النقاش واقعيًا، ثم استقر سريعًا على تأخير أجور العاملين؛ لأنهم أضعف الأطراف وأقل قدرة على الاعتراض.

قال أحد الشركاء إن الجميع سيتفهم، مع أنه لم يسألهم، واقترح آخر إبقاء مكافآت الإدارة لأنها «حققت الإنجاز». كانوا يتحدثون بصوت منخفض عن احتمال استقالة عامل واحد، ثم قرروا أن السوق مليء بالبدلاء. هنا لم تكن المشكلة في وجود أزمة؛ كانت في اختيار الطرف الذي يحمل كلفتها بناءً على ضعفه.

اعترض شريك ثالث، وطلب كشفًا كاملًا وترتيبًا للالتزامات يبدأ بالحقوق الأشد وجوبًا، ثم تخفيض ما يعود عليهم هم قبل تأخير أجر من يعيش عليه. لم يكن حلّه سهلًا، ولم يلغ الخسارة، لكنه أعاد الإنسان إلى الجدول. تخفيض ربح المالك كان مؤلمًا، إلا أن الألم لا يعطيه حق نقل العبء إلى من لا يملك الاختيار.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90]. يبدأ الميزان بالعدل الذي يؤدي الحق، ثم يرتقي إلى الإحسان الذي يزيد عليه. فلا يصح أن يتصدق الإنسان من جهة ويظلم من جهة، ولا أن يحتج بكون الإحسان غير واجب ليغطي نقص العدل.

هذا التفريق يحمي الضمير من مسارين متقابلين: مسار يتهم كل إمساك، ومسار يختبئ خلف الأحكام كيلا يبذل معروفًا قط. قد يكون رفض الطلب مشروعًا، وقد يكون حفظ رأس المال واجبًا، وقد يكون التبرع غير مناسب. وتبقى النفس محتاجة إلى سؤال صادق: هل أديت ما يجب، ثم هل وسع الله علي حتى أستطيع الإحسان؟

استحضر قرارًا ماليًا اتخذته لحماية مالك أو هامش ربحك: أجرة عامل، أو حصة شريك، أو سداد دائن، أو مساعدة محتاج أضعف منك. لا تسأل أولًا: هل كان القرار قانونيًا؟ اسأل: هل كان الحق واضحًا؟ من حمل الخطر؟ هل استعملت قوتك لفرض ما لا ترضاه لو كنت في موضعه؟ وأي صوت خافت داخل الاجتماع كي تمضي الخطة؟

قد تنتهي المراجعة إلى أن قرارك كان عادلًا، وأنك رفضت طلبًا لا يجب عليك. وقد تكشف أجرًا تأخر، أو شرطًا جائرًا، أو صدقة حبستها نفس ضاقت بما زاد، أو إنسانًا لم تسمع أثر القرار عليه. المطلوب تصحيح واقعة محددة، لا صناعة شعور عام بالذنب يترك الحقوق كما هي.

عندما يعرف المالك أن المال ابتلاء، لا يذوب حقه في ملكه ولا يضيع حق غيره فيه. يحفظ الأصل، ويمنع السفه، ويطلب الربح، لكنه لا يجعل الضعيف أول من يستبعد من دائرة الرحمة والعدل. بهذا ينجو من

التخافت الذي يصنعه الشح، ويتهيأ لرؤية وجه آخر من الملك: قدرة واسعة لا تضيق بالناس، لأنها بقيت خاضعة لله.

الوحدة السادسة عشرة: سليمان وذو القرنين — القوة التي لم تملك أصحابها

بعد ثلاث قصص كشفت وجوه استعلاء المال، يفتح القرآن بابًا آخر: قدرة واسعة لم تتحول إلى إله خفي في القلب. سليمان نبي ملك، وذو القرنين عبد صالح ممكّن اختلف في نبوته؛ فلا تسوى خصوصية الوحي والملك النبوي بعموم العبرة. الجامع أن القوة عندهما بقيت تحت أمر الله: علمًا وشكرًا وعدلًا وخدمةً واستعدادًا للفناء.

بدأ خبر سليمان بالحمد قبل أن يعرض مشهد السلطان: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: 15]. نسب القرآن العلم إلى الإيتاء، ونسب النبيان الفضل إلى الله. لم يمنعهما التفضيل من رؤية المفضل.

الحمد في أول القوة ليس افتتاحًا بروتوكوليًّا. إنه تفسير للقدرة قبل استعمالها. إذا بدأ صاحب النعمة من نفسه، صار ما يفعله بعدها امتدادًا لاستحقاقه؛ وإذا بدأ بالحمد، دخل العلم والملك في باب الجواب لله. يبقى التميز حقيقة، لكن حقيقته أنه فضل مسؤول، لا مادة يبني بها الإنسان طبقة أعلى من البشر.

ثم قال سليمان: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: 16]. أعلن ما أوتي من غير إنكار للنعمة، لكنه صاغ الإعلان بصيغة التعليم والإيتاء، ثم سماه فضلًا مبينًا.

التواضع لا يقتضي أن يخفي الإنسان قدرته أو يتظاهر بالعجز. قد يقول: لدي علم، وفريق قوي، وموارد واسعة، إذا كان المقام يقتضي البيان. السؤال هو: كيف يفسر ذلك؟ سليمان لم يقل إن القدرة نشأت من ذاته، ولم يجعل ذكرها استعراضًا أجوف؛ عرفها ليقوم بوظيفتها، ورد أصلها إلى من آتاه.

ثم جاء مشهد الجنود: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: 17]. جيش واسع من أجناس مختلفة، منظم ومجموع تحت أمره. وفي ذروة هذا المشهد يسمع صوتًا لا يكاد يلتفت إليه أصحاب السلطان: صوت نملة تخشى على قومها.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: 18]. لم تتهمهم بتعمد الظلم، لكنها خافت أثر القوة حين تمر ولا تشعر بمن تحتها.

هنا يظهر امتحان القادر: قد لا يقصد الأذى، لكن قدرته تحدث أثرًا لا يراه. قرار كبير يمر على موظف ضعيف، أو مشروع واسع يضغط على أهل مكان، أو نظام منظم يسحق حالة صغيرة لم تدخل في الحساب. قول النملة: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ينبه إلى أن غياب القصد لا يعفي القادر من توسيع مجال الشعور.

كان يمكن لصوت النملة أن يضيع في صخب الجيش، لكن القرآن نقل استجابة سليمان: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النمل: 19].

سمع الضعيف، فابتسم، ثم دعا. لم يحمله سماع لغة المخلوقات على الإعجاب بخصوصيته؛ دفعه إلى طلب الشكر والعمل الصالح والرحمة. جمع الدعاء الماضي والحاضر والمآل: نعمة عليه وعلى والديه، وعمل يرضاه الله، ودخول في الصالحين برحمته. الملك كله لم يغنه عن سؤال الثبات والقبول.

وقوله: ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ طلب إلهام وإعانة وحمل على الشكر. سليمان الذي يملك الجنود لا يدعي أنه يملك قلبه استقلالًا؛ يسأل ربه أن يعينه على عبودية النعمة. وهذه معرفة يحتاج إليها كل قادر: قد تستطيع إصدار القرار، ولا تستطيع ضمان إخلاصك وعدلك إلا بتوفيق الله ومجاهدة النفس.

ويتكرر المشهد حين طلب عرش ملكة سبأ. قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: 38]. عرضت أمامه قدرات خارقة، وظهر اختلاف في سرعة الإنجاز، ثم جاء العرش في زمن يكاد يسبق ارتداد الطرف إلى صاحبه.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: 39-40]. ثم وقع الإنجاز، وجاء الامتحان الحقيقي في تفسيره.

قال سليمان: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: 40]. لم يقل: هذا دليل على أن خطتي لا تخطئ، أو أن رجالي لا يعجزون.

في الجملة أربعة موازين للقوة. رد الفضل إلى ربه، ورأى النجاح ابتلاءً لا شهادة نهائية، ووضع نفسه بين الشكر والكفر، وعرف أن منفعة الشكر تعود إليه وأن الله غني عنه. هذه المعاني تمنع القادر من تحويل الإنجاز إلى دين يطالب الله والناس بمكافأته عليه.

نجاح العمل قد يكون أخطر لحظة على القلب؛ لأن التصفيق يأتي سريعًا، والنتيجة محسوسة، وأسبابها قريبة. إذا لم يقل الإنسان في عمق نفسه: ﴿هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾، أعاد بناء قارون داخل صورة أكثر تهذيبًا. وقد ينطق العبارة، ثم يكشف توزيع الفضل وتعاملُه مع فريقه أنها لم تبلغ القلب.

الشكر عند سليمان لم يكن شعورًا بعد الإنجاز فقط. قال الله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13]. جعل الشكر عملًا، لا ثناءً ينتهي عند اللسان.

فالقدرة تشكر حين تسخر في طاعة الله ومصلحة عباده، والعلم يشكر حين يبين الحق، والمال حين يؤدي الحقوق، والمنصب حين يقيم العدل. وقد يكون شكر القادر أن يوقف مشروعًا يظلم، أو يصحح نظامًا يهمش، أو يسمع صوتًا صغيرًا لا يصل عادةً إلى أصحاب القرار.

وينتقل القرآن إلى ذي القرنين بسؤال الناس عنه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: 83]. ثم بدأ الجواب بأصل التمكين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: 84]. التمكين إيتاء، والأسباب إيتاء، ثم تأتي مسؤولية اتباعها.

قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 85]. لم يجلس ذو القرنين ينتظر الثمرة باسم التمكين، ولم يظن أن نسبة الأسباب إلى الله تعفيه من استعمالها. تحرك، وسافر، وبلغ، وعاين، وحكم. وهذا التوازن يمنع خطاب القوة من أن يصير تمجيدًا للإنجاز منفصلًا عن الافتقار، كما يمنع الافتقار من أن يصير عذرًا للعجز.

بلغ مغرب الشمس فوجد قومًا، وخيره الله في معاملتهم: ﴿قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: 86]. فأعلن ميزانًا يفرق بين الظالم والمحسن، ويرد الجميع إلى الله: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۝ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءَ ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: 87-88].

لم يسو بين الناس تحت شعار القوة، ولم يجعل الحكم انفعالًا شخصيًّا. الظلم له جزاء، والإيمان والعمل الصالح لهما الحسنى واليسر. كما رد النهاية إلى الرب: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾. الحاكم ينفذ عدلًا في نطاق ولايته، ويعلم أن الحساب النهائي ليس له.

ثم اتبع سببًا حتى بلغ مطلع الشمس، ثم واصل حتى بلغ بين السدين. تكرار ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 89، 92] يجعل الحركة جزءًا من صورة التمكين. القدرة القرآنية لا تكتفي بحسن النية؛ تعرف الأرض، وتصل إلى الناس، وتستعمل الوسائل، وتصبر على المسافة بين المشكلة وحلها.

وعند السدين وجد قومًا لا يكادون يفقهون قولًا، ومع ذلك بلغته شكواهم: ﴿قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: 94]. الضعف اللغوي والسياسي لم يمنع صوتهم من الوصول إلى القادر.

عرضوا عليه مالًا مقابل الحماية، فأجاب: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: 95]. رفض الخرج لأنه مستغن بما مكنه الله فيه، ولم يحول حاجة القوم إلى فرصة لتعظيم ثروته. ثم لم يصنع العمل عنهم كاملًا؛ طلب مشاركتهم بالقوة.

في هذا الجواب ثلاثة معانٍ متصلة: كفاية تمنع استغلال الحاجة، ونسبة للتمكين إلى الرب، وإشراك للناس في بناء ما يحميهم. لم يعاملهم جمهورًا يصفق لمنقذ فرد، بل أصحاب طاقة ومسؤولية. القادر الذي يخدم الضعيف لا يلغي فاعليته؛ يجمع الموارد ويوجه العمل حتى يشترك الناس في دفع الضرر.

ثم بدأ التنفيذ الدقيق: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: 96]. مواد، وقياس، وعمل متدرج، وحرارة، وإفراغ؛ لم يكن التوكل بديلًا عن الإتقان.

وجاءت النتيجة: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: 97]. حقق الردم وظيفته، وكان من الممكن أن يقف القائد أمامه مستعرضًا عبقريته. لكن الكلمة التالية أعادت المنجز كله إلى موضعه: ﴿قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [الكهف: 98].

قال سليمان: ﴿هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾، وقال ذو القرنين: ﴿هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾. لم ينكرا الأسباب التي استعملاها، ولا العمل الذي قاما به، لكنهما رفضا أن يكون الإنجاز قصة ذات مكتفية. الفضل يفسر القدرة، والرحمة تفسر أثرها في الناس.

ثم أعلن ذو القرنين فناء ما بنى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: 98]. أتم العمل بإتقان، ثم لم يمنحه خلودًا. الردم القوي سيصير دكاء عند وعد الله. وهذا هو الزهد داخل الإنجاز: أن تبني بأقصى ما تستطيع، وتعلم أن ما بنيت ليس أبديًّا.

من يجهل فناء مشروعه قد يظلم ليحفظه، ويضحي بالناس كي يبقى اسمه، ويرى النقد تهديدًا لإرثه. ومن يعلم أن وعد ربه حق يستطيع أن يراجع ويورث ويسلم المسؤولية. لا تقل قيمة البناء لأنه يفنى؛ قيمته في العدل والرحمة والعبودية التي قامت فيه، وفي الأثر الذي يكتبه الله لصاحبه.

وتلخص آية الأمانة أصل القوة كلها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58]. المنصب أمانة قبل أن يكون مكانة، والحكم عدل قبل أن يكون نفوذًا.

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ؛ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا». رواه مسلم (1827)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وسع الحديث مجال العدل: الحكم، والأهل، وكل ما وليه الإنسان. فقد يكون المرء بلا منصب عام، لكنه يملك قرارًا في بيت أو مؤسسة أو مال أو فريق. وكل ولاية تفتح بابًا من أبواب المقسطين أو الظالمين. ولا يحتاج الظلم دائمًا إلى بطش ظاهر؛ قد يكون إهمالًا لصوت ضعيف، أو محاباةً، أو توزيعًا للخطر على من لا يستطيع دفعه.

هذه الوحدة لا تحول قصص القرآن إلى كتاب إدارة. قد يستفيد المدير والقائد، لكن مركز المعنى أعمق: عبودية القادر. القوة ليست غاية مستقلة، والإنجاز ليس ميزان النجاة، والنفع لا يبرر مخالفة أمر الله. قد يبني الإنسان مؤسسة ناجحة ويخسر قلبه، وقد يحقق أثرًا محدودًا وهو عند الله أعدل وأشكر.

مسؤول في مؤسسة اتخذ قرارًا بإعادة هيكلة فريقه. كانت الأرقام تشير إلى ضرورة خفض النفقات، ووصلته مقترحات تستبعد موظفين صغارًا وتبقي امتيازات الإدارة العليا. كان يستطيع تمرير القرار قانونيًّا، وستظهر النتائج في التقرير بصورة جيدة. لكن أحد الموظفين طلب لقاء قصيرًا ليشرح أثر الخطة على من لا يملكون بدائل.

في البداية رأى المسؤول اللقاء تعطيلًا لقرار حُسم، ثم تذكر أن سماع الضعيف ليس تنازلًا عن السلطة. فتح البيانات من جديد، واكتشف أن جزءًا من الخفض بني على معلومات ناقصة، وأن الإدارة تستطيع تحمل نسبة أكبر من الكلفة. لم يلغ القرار كله، ولم يرض الجميع، لكنه غير توزيعه، ووثق معاييره، وقبل أن يتحمل هو ومن معه أثرًا ظاهرًا.

لم يكن العدل في أن يحتفظ كل موظف بموقعه مهما كانت الحاجة، ولا في أن يتخلى المسؤول عن صلاحياته. كان في سماع من سيقع عليه القرار، والتحقق من الحقائق، ومنع النفوذ من حماية الأقوى تلقائيًّا، ورد النجاح بعد التنفيذ إلى فضل الله وجهد الفريق. المنصب خدم الأمانة، بدل أن تخدم الأمانة صورة المنصب.

راجع آخر قرار اتخذته من موضع قدرة: في بيتك، أو عملك، أو تجارتك، أو مؤسسة تديرها. هل سمعت من سيتحمل أثره، خاصة من لا يستطيع الاعتراض؟ هل وزعت الفضل بعد النجاح، أم اجتمع في اسمك؟ وهل استعملت الموارد لخدمة الأمانة، أم استعملت الأمانة لتثبيت صورتك ونفوذك؟

تتجمع في هذا المحور خمسة وجوه للدنيا. قارون رأى مصدر النعمة في ذاته، وصاحب الجنتين رأى بقاءها مضمونًا، وأصحاب الجنة رأوا الملك دائرة يحق لهم أن يغلقوها في وجه المسكين. وفي الجهة الأخرى رأى سليمان القدرة فضلًا وابتلاءً، ورأى ذو القرنين التمكين سببًا للعدل والعمل ورحمةً ستفنى عند وعد الله.

لم تكن المشكلة في كثرة المال وحدها، ولا النجاة في قلته. قارون وصاحب الجنتين وأصحاب الجنة ملكوا أشياء ثم صعدت الأشياء إلى قلوبهم، ففسرت ذواتهم وغدهم وعلاقتهم بالناس. وسليمان وذو القرنين ملكا قدرة أوسع، لكن القلب بقي مفتقرًا، واللسان حامدًا، والقرار محكومًا بأمر الله.

بهذا تنتهي القصص إلى السؤال الذي يحكم ما بعدها: إذا عرف المؤمن حقيقة الدنيا، ورأى كيف تملك أصحابها وكيف تبقى في يد عبد شاكر، فكيف يعيش فيها يومًا بعد يوم؟ كيف يعمل ولا يركن، ويتمتع ولا يغفل، ويملك ولا يُملك، ويقوى ولا يطغى؟ هذا هو الطريق الذي يفتحه المحور السادس: كيف يعيش المؤمن في الدنيا؟

المحور السادس: كيف يعيش المؤمن في الدنيا؟

مقدمة المحور: زاهد القلب قوي العمل

بلغ الكتاب في المحاور السابقة مواضع متعددة من حقيقة الدنيا: كشف قصرها وسرعة تحولها، ورأى كيف تنافس الآخرة في القلب، ثم رد المال إلى كونه رزقًا وأمانة، وعرض في قصص القرآن أناسًا عظمت النعمة في أيديهم فاختلفت بها قلوبهم. وبعد هذا كله يبقى السؤال الذي لا يغني عنه العلم المجرد: كيف يعيش المؤمن يومه داخل هذه الدنيا، ويباشر طيباتها وأعمالها ومسؤولياتها، من غير أن تستولي عليه؟

قد يعرف الإنسان أن الدنيا متاع، ثم يخطئ حين يحاول تنزيل هذه المعرفة على حياته. يظن الزهد خصومة مع الجمال والراحة، أو يراه انسحابًا من السوق والمنصب، أو يجعل القناعة اسمًا لضعف الهمة. وفي الجهة الأخرى قد يستعمل إباحة الطيبات ستارًا لتوسع لا حد له، ويجعل نجاحه المالي مقياسًا لقيمته، ثم يطلب من الدين أن يبارك كل ما اعتاده.

ويجمع القرآن طرفي هذه الحياة في وصية واحدة: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: 77]. مرت هذه الآية في المحور الرابع من جهة تسخير العطاء للدار الآخرة، ثم عادت في قصة قارون ضمن الوصية التي واجه بها قومه انحراف الملك. وتعود هنا بقدرها الجامع؛ لأنها تلخص وظيفة المحور: لا يهمل المؤمن ما آتاه الله، ولا يحرم نفسه نصيبه المباح، لكنه يجعل الدار الآخرة هي الجهة التي تقود الانتفاع والعمل والملك.

وستعود في الوحدة السابعة عشرة آيتا الأعراف والنور لتحرير طرفي هذه المعادلة: إباحة الزينة والطيبات، والبقاء داخل التجارة والعمل من غير أن يلهيا القلب عن الله والصلاة والحق واليوم الآخر. والمقصود هنا تثبيت الصورة الجامعة: انتفاع لا استعباد، وعمل لا إلهاء، وقوة لا تنقطع عن الافتقار.

هذا المحور لا يطلب من القارئ أن يتبنى هيئة واحدة للحياة. الناس مختلفون في أموالهم وأسرهم وأعمالهم وقدراتهم، وقد يكون التوسع في حق واحد منهم نفعًا، وفي حق آخر قيدًا يفسد قلبه أو يضيع واجبه. المعيار أعمق من مقدار الموجود: من يقود القلب؟ وما الوظيفة التي يؤديها الشيء؟ وهل يقدر صاحبه على الانتفاع به، وعلى تركه، وعلى حمل مسؤوليته؟

تبدأ الرحلة من الزهد؛ لا بوصفه نقصًا في الملك، بل حرية أمامه. ثم تنتقل إلى غنى النفس؛ حيث يتعلم الإنسان ألا يؤجل شعوره بالكفاية إلى زيادة لا تنتهي. وبعد ذلك يختبر المال في علاقته بالناس: هل يبقى محصورًا في صاحبه، أم يؤدي الحقوق ويفتح أبواب النفع؟ وتبلغ الرحلة غايتها حين يعرف العبد حكم الله، ويعرف الخسارة التي ستقع إن أطاع، ولم يبق إلا أن يختار.

بهذا المعنى لا يكون المحور فصلًا في التنمية الذاتية، ولا جمعًا لمواعظ الزهد، ولا بابًا مستوعبًا لأحكام الصدقة. إنه صورة عملية لمؤمن يعيش لله في بيت ومكتب ومتجر، يشكر الموجود، ويطلب الزيادة من حلال، ويعطي كل ذي حق حقه، ويبقى قلبه مستعدًا لأن يقدم أمر الله على مصلحة محبوبة من غير ادعاء بطولة ولا انتظار مكافأة عاجلة.

ستظل المشاعر البشرية حاضرة في هذه الصورة. الزاهد قد يحزن إذا فقد، وصاحب غنى النفس قد يقلق من نفقة، والمنفق قد يخشى المستقبل، ومن اختار الله قد يعود إلى بيته مثقلًا بما خسره. الإيمان لا يمحو الألم بعبارة، لكنه يمنع الألم من أن يغير أسماء الحلال والحرام، أو يجعل الدنيا حَكَمًا أعلى من الوحي.

والامتحان هنا لا يقع في الأفكار العامة. يقع في شيء مباح يحبه الإنسان حتى يكاد يضيع به واجبًا، وفي مسؤولية يتمنى الهرب منها مع أن الأمانة تقتضي بقاءه، وفي زيادة رفعت حاجاته ولم ترفع رضاه، وفي مال لم يتجاوز دائرته، وفي ورقة يعرف أن توقيعه عليها يحفظ الوظيفة ويخون الحق. هناك تتحول المعرفة إلى عبودية، أو ينكشف أن الدنيا ما زالت تملك القرار.

الوحدة السابعة عشرة: الزهد الذي لا يعطل الحياة

يستدعي لفظ الزهد عند كثير من الناس صورة النقص: طعام أقل، ولباس أخشن، ومال أضيق، وحضور أضعف في شؤون الحياة. وقد تكون قلة المتاع اختيارًا صالحًا لبعض الناس، وقد تفرضها حالهم، وقد يصاحبها قلب منقطع إلى الله. غير أن الصورة الخارجية وحدها لا تكشف الزهد؛ فقد يقل الموجود ويبقى القلب أسيرًا له، وقد يكثر ويبقى صاحبه حرًّا أمامه.

الزهد في جوهره ترتيب للمحبة والسلطان. ينتفع الإنسان بالشيء من غير أن يمنحه حق قيادة دينه، ويفرح به من غير أن يستمد منه منزلته، ويتركه حين يصير بقاؤه مفسدًا، ويبقى في مسؤوليته حين يكون الترك راحة شخصية على حساب الأمانة. لذلك يمنح الزهد صاحبه حرية الانتفاع وحرية الترك، ويمنعه في الوقت نفسه من الهرب من الواجب باسم الخفة من الدنيا.

يصل القرآن هذا المعنى بالإيمان بالقدر، فيقول تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ [الحديد: 22-23]. فالموجود والفائت يجريان في علم الله وكتابته، والغاية أن يخرج القلب من عبودية الطرفين: لا يلتهمه الأسى على ما مضى، ولا يحمله ما أوتي على الاختيال والفخر.

لا تنفي الآيتان الحزن والسرور اللذين جُبل عليهما الإنسان. فقد يتألم لخسارة بيت بناه، أو عمل أحبه، أو صحة انتفع بها، كما يفرح بنجاح ورزق وراحة. الذي تعالجه الآيتان معنى أعمق: أن يتحول الفائت إلى اعتراض يستهلك العبد، أو يتحول الحاصل إلى شهادة يتعالى بها، كأن النعمة أخرجته من مقام الافتقار.

ومن هنا لا يصح أن يُعرَّف الزاهد بأنه الأقل ملكًا. قد يسكن رجل بيتًا واسعًا، ويعرف أنه فضل قابل للزوال، ويؤدي حقه، ويستطيع أن ينتقل إلى ما دونه من غير أن ينهار دينه أو يحتقر نفسه. وقد يسكن آخر غرفة ضيقة، لكن قلبه يطوف ببيوت الناس، ويغضب من كل نعمة رآها، ويعيش تابعًا لما حُرم منه.

وقد سبقت الإشارة في مقدمة المحور إلى قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: 32]. وموضعها هنا تحرير أصل الانتفاع: الزينة والطيبات من خلق الله وإخراجه لعباده، فلا يملك إنسان أن يجعل تحريمها دينًا عامًا، ولا أن يحمّل المؤمن شعورًا بالذنب لمجرد أنه لبس حسنًا أو سكن مريحًا أو أراح جسده من تعب.

ويأتي الأمر بالشكر ملازمًا للانتفاع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: 172]. سمى الطعام رزقًا من الله، وأمر بالأكل منه، ثم وصل ذلك بالشكر والعبادة. فالانتفاع لا يقف خارج الطريق إلى الله؛ قد يكون جزءًا منه حين يُؤخذ من حلال، ويُعترف بالمنعم، ويستعين به صاحبه على حق، ولا يتجاوز به حدًّا.

«وقد مرّ تعريف الكبر بهذا الحديث في وحدة قارون، ونضيف هنا تمامه فيما يخص الجمال والزينة:»، سأل رجل النبي ﷺ عن حب الثوب الحسن والنعل الحسنة حين ذكر الكبر، فقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ». رواه مسلم (91)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. لم يجعل حسن الهيئة كبرًا؛ عرّف الكبر برد الحق واحتقار الخلق.

هذا التفريق يحرر المؤمن من اشتباه شائع. قد يكون الجمال شكرًا وتهذيبًا ومراعاة لمن حوله، وقد يتحول إلى استعلاء ومنافسة وإسراف. العيب لا يسكن في نظافة الثوب أو جودة الصنعة، وإنما يظهر حين يرد صاحبه حقًّا، أو يزدري من لا يملك مثله، أو يجعل أعين الناس هي الغاية التي يلبس لها.

وثبت عن النبي ﷺ قوله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ». رواه الترمذي (2819)، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه، وقال: حديث حسن. فإظهار أثر النعمة في حدود الشرع لا يناقض الزهد، كما أن إخفاءها لا يثبت صدق القلب بمجرده.

يحتاج الانتفاع إلى أربعة حراس: مصدر طيب، وقدر لا يفسد القوام، ومقصد مشروع، وحق لا يضيع بسببه. إذا اختل المصدر دخل الحرام، وإذا انفلت القدر وقع الإسراف، وإذا فسد المقصد صار الشيء أداة للفخر أو التخدير، وإذا ضاع الحق تحولت راحة صاحب النعمة إلى تعب يحمله أهله أو دائنه أو من تحت مسؤوليته.

وقد جمع القرآن بين الإباحة وضبط الحد في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31]. الأكل والشرب مأذون فيهما، والإسراف منهي عنه، فالمؤمن لا يعبد الحرمان ولا يطلق الرغبة. والحد لا يحبس في رقم واحد؛ يتغير باختلاف القدرة والواجب والعرف، ويبقى أثره ظاهرًا: ألا يبتلع الانتفاع وظيفة المال والعمر.

ومن فقه الزهد أن يعرف الإنسان حقوق جسده وأهله، فلا يطلب القرب إلى الله بطريق يهدم ما أوجبه الله عليه. آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهما، فلما رأى سلمان من أبي الدرداء مجاوزة في الصيام والقيام قال له: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»، فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ سَلْمَانُ». رواه البخاري (1968)، من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه.

كانت المشكلة في صورة عبادة زائدة، ومع ذلك ردها الوحي إلى ميزان الحقوق. فكيف بمن يهمل نومه وصحته وأهله وعمله طلبًا لسمعة الاجتهاد، أو يجعل نفسه في ضيق دائم ثم ينتظر من حوله أن يدفعوا ثمن اختياره؟ التقشف الذي يضيع حقًّا لا يكتسب القداسة من قسوته، وقد تكون الراحة المباحة في موضعها أصدق عبودية.

وتتسلل محبة الصورة إلى الزهد كما تتسلل إلى الثراء. قد يحرص المرء على ثوب مخصوص، وطعام مخصوص، وحديث متكرر عن قلة حاجته، لأنه يريد أن يراه الناس فوق شهواتهم. إذا لم يلتفتوا إلى زهده

ضاق، وإذا امتدحوا غيره وجد في نفسه. هنا لم يتحرر من الخلق؛ استبدل سوقًا بسوق، وصار ثناؤهم على الحرمان هو متاعه الجديد.

وقد يسيء إلى أهله باسم البساطة. يرفض كل تحسين مع قدرته، ويعد رغباتهم المشروعة ضعفًا، ويجعلهم يعيشون داخل تجربته الروحية من غير رضاهم. وربما كان بخله هو الذي يتكلم، ثم لبس لغة الزهد. صدق العبد يظهر في العدل؛ ينظر إلى حقه وحقهم، ويقبل أن يكون ما يناسبه وحده غير مناسب لبيت يحمل مسؤوليات متعددة.

وفي الجانب المقابل قد يبالغ الإنسان في الراحة حتى تتحول إلى الغاية التي يعاد ترتيب يومه حولها. تصبح الإجازة أهم من الصلاة في وقتها، والهواية أسبق من ولد يحتاج إليه، والمنزل الواسع سببًا لقبول عمل يفسد قلبه. الشيء مباح في أصله، لكن أثره في شبكة الحياة نقله من خادم إلى قائد.

هنا يكون الزهد تركًا. يترك المرء عادة مشاهدة تستهلك ليله، أو مجلسًا مباحًا يغذي الرياء، أو مستوى من الترف يضطره إلى ساعات عمل تقتل علاقته بأهله، أو منصبًا يختبره كل يوم في دينه بما لا يطيق. لا يعلن أن الشيء حرام على الناس؛ يعترف بأن قلبه أو واجبه لا يسلم معه.

وهذا الاعتراف ليس ضعفًا مذمومًا. معرفة الإنسان بمداخل نفسه من الفقه. قد يستطيع غيره حمل المال أو الشهرة أو المجال نفسه، بينما يعرف هو أن بقاءه فيه يوقظ مرضًا يتكرر. من الزهد أن يترك الباب قبل أن يطالبه الناس بدليل على سقوطه، وأن يقبل نقصًا في صورته كي يحفظ باطنه من فساد يعرفه.

وقد يكون الترك واجبًا حين ينكشف الحرام أو يضيع الفرض، وقد يكون مستحبًّا أو تدبيرًا خاصًّا حين يخشى المرء على قلبه. التفريق ضروري؛ حتى لا يحول تجربته إلى حكم عام، ولا يزكي نفسه على من بقي. الزاهد الصادق أقل حديثًا عن تفوق خياره، وأكثر انشغالًا بما يصلح عبوديته.

«وقد ورد هذا الحديث في وحدة السعي من جهة القوة على الكسب والعمل، ويعود هنا من جهة القوة على مجاهدة النفس وترك التعلق؛ فالحديث يخدم بابين متمايزين.»، قال النبي ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجِزْ». رواه مسلم (2664)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. فالقوة النافعة والحرص على الخير والاستعانة بالله أبعد ما تكون عن زهد يعطل القدرة.

لكن الزهد لا يسير دائمًا نحو الخروج. أحيانًا تكون راحة النفس في الاستقالة، بينما يكون حق الناس في البقاء. يتعب مدير من نزاعات العمل، أو يملّ طبيب من ضغط المرضى، أو يثقل على صاحب تجارة ضبط الحسابات، فيشتهي أن ينسحب ويصف ذلك بأنه فرار من الدنيا، مع أن تركه المفاجئ يضيع أمانة لم يهيئ لها بديلًا.

وقد طلب يوسف عليه السلام ولاية خزائن الأرض حين علم قدرته وحاجة الناس، فقال: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: 55]. لم يكن طلبه تعلقًا بالمنصب؛ جاء داخل أزمة مقبلة تحتاج إلى حفظ وعلم. وفي القصة أصل لأن حمل المسؤولية قد يكون من العبادة، وأن التواضع لا يعني إخفاء القدرة حين تتعين بها مصلحة.

من بقي في موقعه لله يختلف عن الذي يبقى لهواه. الأول يسأل: ما الحق الذي لا يقوم إلا بي الآن؟ وكيف أعد من يحمل الأمانة بعدي؟ ومتى يصبح خروجي ممكنًا من غير تضييع؟ والثاني يجعل حاجة الناس إليه ذريعة لدوام السيطرة. الزهد في البقاء أن يؤدي الوظيفة، وألا يحولها إلى إثبات دائم لعدم استغناء العالم عنه.

وقد سبقت الإشارة في مقدمة المحور إلى قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور: 37]. وموضعها هنا أن الرجال كانوا أصحاب تجارة وبيع قائمين، ثم وصفهم الله بعدم الإلهاء. لم تكن الفضيلة في غياب السوق، بل في بقاء الذكر والصلاة والزكاة وخوف اليوم الآخر أقوى من حركة السوق.

الإلهاء لا يعني مجرد الانشغال. يعمل الإنسان ساعات طويلة، ويتابع التفاصيل، ويفكر في الحلول، ولا يكون لاهيًا إذا بقي أمر الله حاكمًا للوقت والطريق والحق. ويجلس آخر قليل العمل، لكن التجارة تستولي على قلبه في صلاته وبيته، ويعيد كل علاقة إلى ربح وخسارة. المعيار موضع القيادة، لا عدد الساعات وحده.

وعلّم النبي ﷺ أمته دعاء يجمع الدين والدنيا والآخرة: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِيَ الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِيَ الَّتِي فِيهَا مَعَادِي». رواه مسلم (2720)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. طلب صلاح الدنيا؛ لأنها موضع المعاش، وجعل الدين عصمة الأمر، والآخرة موضع المعاد.

هذا الدعاء يمنع تصورًا يضع صلاح الدنيا في خصومة مع صلاح الدين. قد يحتاج الإنسان إلى مال أو نظام أو مهارة أو نفوذ مشروع حتى يؤدي حقوقًا لا تقوم من دونها. الخلل حين يطلب صلاح المعاش بثمن العصمة، أو يحفظ الوسيلة بعد أن صارت تهدم الغاية. الزهد يبقي الدوائر الثلاث متصلة تحت عبودية واحدة.

كان رجل يدير بعد وفاة أخيه شركة عائلية صغيرة يعمل فيها عشرات الموظفين، وقد دخل الإدارة أصلًا على مضض. تراكمت عليه خلافات الشركاء والديون القديمة، وصار يعود إلى بيته مرهقًا. بدأ يفكر في بيع حصته والخروج كله، وكان يردد لنفسه أنه يريد حياة أهدأ وأقرب إلى العبادة.

في الوقت نفسه كان متعلقًا بمجموعة اجتماعية ذات حضور لامع؛ لقاءات وسفرات وعلاقات تفتح له أبوابًا مهنية، لكنها أشعلت فيه مراقبة صورته. صار يشتري ما لا يحتاجه ليبقى مقبولًا بينهم، ويعود من مجالسهم ساخطًا على بيته وحياته. لم يكن المجلس محرمًا في ذاته، لكنه عرف أن قلبه يخرج منه كل مرة أقل شكرًا وأكثر تعلقًا.

كان أسهل قرار أن يترك الشركة ويبقى في المجموعة؛ فالأولى تعب ومسؤولية، والثانية متعة ومكانة. وحين واجه نفسه رأى العكس: زُهده يحتاج إلى ترك المجلس الذي يحبه، وإلى البقاء مدة في العمل الذي يتمنى الخلاص منه. أوقف السفرات واللقاءات تدريجيًّا، ولم يشرح للناس قصة روحية كبيرة؛ قال إن هذا النمط لم يعد صالحًا له.

أما الشركة فلم يحبس نفسه فيها إلى غير نهاية. جمع الحسابات، وصحح عقودًا معلقة، وأدخل مديرًا مهنيًّا، وكتب خطة انتقال، وتحمل عامًا ثقيلًا قبل أن يخف حضوره. لم تتحول الأيام إلى راحة سريعة، وبعض أهله لم يفهموا لماذا ترك ما يرونه وجاهة، ولماذا بقي فيما يشكون منه كل مساء.

بعد القرار لم يصبح قلبه نقيًّا دفعة واحدة. كان يشتاق إلى بعض المجالس، ويغار حين يرى صور الرحلات، ويضيق من مشكلات الموظفين. لكنه تعلم أن الزهد لا يقاس بلذة القرار، وإنما بصدق الجهة التي أعاد إليها الأشياء: ترك ما كان يملك قلبه، وبقي فيما كان حق الناس متعلقًا بأدائه، ثم خرج حين صار الخروج أمينًا.

هذا المشهد يكشف وجهين يغيب أحدهما عن كثير من خطاب الزهد. قد يكون الشيء المريح هو الذي ينبغي تركه، وقد تكون المسؤولية الشاقة هي التي ينبغي احتمالها. ومن اكتفى بسؤال: ماذا أريد أن أتخفف منه؟ قد يسمي هواه زهدًا. السؤال الأصدق: أين أمر الله وحقوق خلقه في اختياري؟

لا تملك قاعدة عامة أن تقول لكل صاحب منصب: ابق، ولا لكل متعلق بمباح: اترك. الأحوال تحتاج إلى علم بالنص، وصدق مع النفس، واستشارة من يعرف الواقع ولا يشتري رضى صاحبه. ومع ذلك يبقى المحك واضحًا: هل الشيء في يدك يؤدي وظيفة، أم صار يقودك؟ وهل خروجك منه عبادة، أم تهرب من ثمن الأمانة؟

استحضر أمرين حقيقيين من حياتك. ما المباح الذي تركته، أو ينبغي أن تتركه، لأن قلبك أو واجبك لا يسلم معه؟ وما المسؤولية التي بقيت فيها، أو ينبغي أن تبقى، مع أنك تتمنى الراحة؛ لأن تركها يضيع حقًّا؟ لا تبحث عن إجابة جميلة، وسمِّ الكلفة التي يخفيها كل اختيار.

قد تكتشف أن نعمة بعينها تعينك، فلا تفسدها بتهمة عامة، بل اشكرها واحفظ حدها. وقد ترى أن عادة محبوبة أخذت أكثر مما أعطت، فتحتاج إلى خطوة محددة. وربما يظهر أن حديثك عن ترك الدنيا يخفي مللًا من مسؤولية لا يجوز إلقاؤها على غيرك. المراجعة النافعة تنتهي بقرار قابل للتنفيذ، لا بانفعال عابر.

الزهد الذي لا يعطل الحياة يترك صاحبه حاضرًا في الدنيا من غير خضوع لها. يستمتع بالطيب ويشكر، ويحسن هيئته بلا علو، ويستريح كي يقوى، ويترك حين يفسد الشيء، ويبقى حين تستدعي الأمانة بقاءه. فإذا تحققت هذه الحرية بقي سؤال آخر: قد يملك الإنسان قدرة الانتفاع والترك، ومع ذلك يظل يشعر أنه فقير إلى زيادة قادمة. هنا يبدأ غنى النفس.

الوحدة الثامنة عشرة: «ولكن الغنى غنى النفس»

قد تتسع يد الإنسان ويبقى قلبه في هيئة المحتاج. يزيد دخله، فيفرح أيامًا، ثم تتقدم الرغبات خطوة أخرى، ويعود الرقم الجديد عاديًّا لا يكاد يراه. وما دام شعوره بالكفاية معلقًا بزيادة لاحقة، فلن يبلغ الغنى؛ لأن كل وصول يغير النقطة التي كان يظن أنه سيقف عندها.

وضع النبي ﷺ الحد الفاصل في قوله: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ». رواه البخاري (6446)، ومسلم (1051)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. العرض هو متاع الدنيا؛ قد يكثر ويظل صاحبه فقير الشعور، لأن النفس لم تتعلم أن ترى ما كفاها الله.

لا ينكر الحديث أثر المال في واقع الإنسان. من وجد سكنًا وعلاجًا ونفقة يختلف حاله عمن فقد الضرورات، والشرع يثبت للمحتاج حقه، ويأمر بالسعي والإغناء. المقصود أن المال يرفع صورًا من الحاجة، لكنه لا يستطيع وحده أن يملأ فراغ النفس؛ فقد تنتهي حاجة البدن وتبدأ حاجة الصورة والمنافسة والخوف من النزول.

ولهذا جاء الطريق بصيغة فعل يتعلمه العبد: «وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ». رواه البخاري (1469)، ومسلم (1053)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. الاستغناء طلب ومجاهدة قبل أن يكون حالة تستقر بلا سبب.

يستغني العبد بالله، ويكف نفسه عن التطلع الذليل إلى الخلق، ويتدرب على ألا يجعل كل رغبة حاجة. ثم يأتيه الإغناء من الله بما يشاء: قناعة في القلب، وتعفف في السلوك، ورزق يقوم بأمره، وصبر حين يتأخر ما يريد. لا تعده الجملة بثروة، وإنما تبني فيه القدرة على ألا تكون حاجته باب استعباد.

وقال النبي ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ». رواه مسلم (1054)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. جمع الحديث الإسلام والكفاف والقناعة؛ فالكفاف يقوم بالحاجة، والقناعة نعمة أخرى تجعل النفس قادرة على رؤية هذا القيام.

قد يبلغ المال قدر الكفاية، ولا تبلغ النفس القناعة. يظل صاحبها يتعامل مع حياته كمرحلة مؤقتة لا تستحق الشكر، وينتظر يومًا يبدأ فيه الرضا بعد شراء بيت أوسع أو بلوغ منصب أعلى. تمر السنوات وهو يعمل ويجمع، لكنه لا يسكن لحظة في النعمة الحاضرة، كأن الاعتراف بها سيوقف تقدمه.

ودعا النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا». رواه البخاري (6460)، ومسلم (1055)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والقوت ما تقوم به الحياة من غير ترف واسع. لا يلزم الناس كلهم صورة واحدة من العيش، لكن الدعاء يكشف أن الكفاية نفسها رزق مطلوب، وأن كثرة الفائض ليست الغاية التي تقاس بها سلامة الحياة.

غنى النفس يبدأ حين يقدر الإنسان أن يقول: ما عندي اليوم نعمة حقيقية، وإن كنت أعمل على تحسينه. لا يساوي بين الشكر والتوقف، ولا بين الرضا وترك الأسباب. يستطيع أن يطلب زيادة، ويعد خطة، ويتعلم مهارة، ثم لا يجعل نجاح الخطة شرطًا حتى يعترف بأن الله أحسن إليه الآن.

وقد مرت آية طه في الوحدة السادسة عند تشخيص التكاثر والمقارنة، وتعود هنا لوظيفة أخص: بناء غنى النفس. قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: 131]. النهي عن مد العين لا يمنع الرؤية، وإنما يمنع امتداد النظر حتى يدخل ما عند الآخرين في تعريف رزقك وقيمتك.

سمى الله ما في أيديهم زهرة؛ لها جمال ظاهر، ثم بيّن أنها موضع فتنة. يرى المؤمن بيتًا حسنًا أو عملًا ناجحًا، وقد يتمنى مثله، لكنه لا يسمح للصورة أن تمحو ما بين يديه. فإذا تحولت حياة غيره إلى مرآة دائمة لنقصه، صار غناه مؤجلًا إلى أن يتساوى مع أناس لا تنتهي طبقاتهم.

ولا تعرض الصور الحديثة الحياة كاملة. يرى المرء رحلة ولا يرى الدين الذي مولها، ويرى ترقية ولا يرى ما أخذته من الصحة، ويرى منزلًا مرتبًا ولا يرى خوف أهله. وليس المقصود اتهام كل نعمة مستورة، بل معرفة أن المقارنة تقوم على مادة ناقصة، ثم تصدر منها أحكامًا قاسية على حياة كاملة تعرف أنت تعبها ولا تعرف تعب الآخرين.

وقد وجّه القرآن الرغبة إلى باب يحفظ القلب من الاعتراض: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ

عَلِيمًا﴾ [النساء: 32]. نهى عن تمني ما وقع به التفضيل على وجه يورث السخط، ثم قال: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾. يرى الإنسان الفارق، ويسأل ربه، ويعمل، من غير أن يبني أمنياته على زوال نعمة غيره أو احتقار نصيبه.

غنى النفس متصل كذلك بالقيمة الذاتية. من جعل راتبه تعريفًا لنفسه، عاش أقل قدرًا كلما قابل من يكسب أكثر. ومن جعل البيت والمركب والمسمى المهني دليل منزلته، صار كل جديد في أيدي الناس تهديدًا له. أما من عرف أن أصله عبد مكرم بالتقوى والطاعة، استعمل الأرقام من غير أن يطلب منها شهادة وجوده.

لهذا يبالغ بعض الناس في الإنفاق أمام الآخرين أكثر مما ينفق على حاجته الحقيقية. يقيم مناسبة لا يحتملها، أو يشتري علامة لا تضيف إلى وظيفة الشيء، أو يرفض مسكنًا مناسبًا لأنه يخشى تعليقًا عابرًا. المال هنا لا يشتري منفعة؛ يشتري حماية مؤقتة لصورة، ثم تحتاج الصورة إلى دفعة جديدة كلما تغير مجلس الناس.

ولا يعني ذلك أن مراعاة العرف مذمومة. حسن الهيئة، وإكرام الضيف، واختيار ما يلائم المقام، كلها معان معتبرة في حدود القدرة. المرض يظهر حين يتقدم نظر الناس على حق الأسرة، أو يحمل صاحبه دينًا مرهقًا، أو يجعله شديد القلق من أن يراه أحد دون المستوى الذي صنعه لنفسه.

وقد ربط القرآن الحياة الطيبة بالإيمان والعمل، فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97]. لا تنحصر الحياة الطيبة في شعور داخلي، ولا تعني غياب المرض والضيق، لكنها تكشف أن طيب العيش أوسع من كثرة العرض. قد يتألم المؤمن ويطلب الفرج، ويبقى في حياته معنى وشكر وصلة بالله تمنع الألم من ابتلاعها كلها.

القناعة لا تلغي الحسرة البشرية. قد يدخل الرجل متجرًا ولا يملك ما يحتاج إليه، أو ترى الأسرة أبناءها أقل فرصًا من غيرهم، فيتألمون. لا يطلب منهم الإيمان أن يكذبوا حاجتهم. يطلب أن يسموها باسمها، ويسعوا لها من حلال، وألا يضيفوا إلى ألم النقص حكمًا بأن حياتهم باطلة أو أن كرامتهم ناقصة.

ومن أدق أمراض النفس أنها تعتاد النعمة. الشيء الذي كان خبرًا يملأ البيت فرحًا يصبح بعد أشهر خلفية صامتة: راتب جديد، أو سيارة، أو صحة عادت، أو غرفة زادت. يظل أثر النعمة قائمًا، لكن الانتباه ينتقل إلى ما بعدها. وهكذا لا تزول النعم من الواقع؛ تزول من الوعي الذي كان ينبغي أن يشكرها.

ويوقظ القرآن وعي النعمة قبل أن يمحوها الاعتياد، فيقول تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: 18]. العجز عن إحصائها لا يمنع العبد من تسمية ما يراه منها، وتجديد الحمد عليه. وكل نعمة تعود إلى الوعي تقل قدرة المقارنة على تصوير الحياة كأنها فراغ كامل.

ولذلك كان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا». رواه مسلم (2722)، من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه. النفس التي لا تشبع لا يعالجها المزيد وحده؛ فقد تجعل كل زيادة مادة لجوع جديد.

عدم الشبع لا يعني استمرار الحاجة الطبيعية، وإنما عجز النفس عن بلوغ موضع تقول فيه: هذا يكفيني الآن. تتسع الخيارات، فيزداد خوف الفوات، وتكثر الممتلكات، فيكثر ما يحتاج إلى صيانة، ويعلو الدخل، فتعلو الالتزامات. ما بدأ توسيعًا للحياة قد يتحول إلى نظام لا يستطيع صاحبه النزول عنه ولو اقتضى الحق ذلك.

وجعل القرآن الوقاية من شح النفس باب فلاح: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [التغابن: 16]. الشح أعمق من إمساك المال؛ هو حضور النفس المتوثب لحماية نصيبها، وضيقها بخروج الحق، وقلقها من أن ينال غيرها ما تراه لها. قد يكون الإنسان كثير الإنفاق على نفسه، ثم يظهر شحه عند أول مبلغ يخرج من دائرة صورته.

ومن الشح خوف مستمر من فقد المستوى الذي بلغه الإنسان. لا يخاف الجوع وحده؛ يخاف أن يعود إلى حي أقل، أو مدرسة أقل كلفة، أو لقب مهني أبسط. بعض هذا الخوف مفهوم؛ فالانتقال مؤلم وله آثار حقيقية. لكن تضخمه يجعل صاحبه يبيع من حريته ما لم يكن ليبيعه قبل أن ترتفع نفقاته.

وهنا يظهر أثر غنى النفس في الأخلاق. من عرف قدرًا معقولًا للكفاية كان أقدر على رفض باب مشبوه، وعلى احتمال تأخر ترقية، وعلى الاعتذار عن مناسبة فوق قدرته. أما من جعل المستوى الجديد جزءًا من هويته، فقد يدافع عنه كما يدافع عن وجوده؛ لأن النزول في عينه لم يعد نقصًا في المتاع، بل سقوطًا في القيمة.

والقناعة لا تعني تمجيد الفقر أو إهمال التخطيط. رب أسرة مسؤول عن تحسين دخله إذا استطاع، والمدين مطالب بالسداد، وصاحب الموهبة مأمور ببذلها. القناعة تزيل السم من السعي: يعمل الإنسان بلا حسد، ويخطط بلا هلع، ويطلب الزيادة من الله، ثم ينام من غير أن يجعل الرقم القادم هو الباب الوحيد إلى الحياة.

كما لا تجعل القناعة الإنسان يقبل ظلمًا باسم الرضا. يطالب بأجر عادل، ويعترض على استغلال، ويبحث عن فرصة أصلح، ويغير واقعًا يستطيع تغييره. الفرق أن المطالبة تنطلق من حق، لا من كراهية مستمرة لنفسه وحياته. وقد يفشل في الوصول، ويبقى قادرًا على عبادة الله داخل الواقع الذي لم يختره.

الطموح المشروع يحدد غاية ووظيفة وثمنًا. يسأل: ماذا أريد أن أبني؟ وما الحق الذي أخدمه؟ وما الحدود التي لا أتجاوزها؟ أما الطموح المستعبد فيتغذى من المقارنة، ولا يعرف نقطة مراجعة، ويعد كل توقف هزيمة. الأول يزيد القدرة ويترك القلب أوسع، والثاني قد يزيد الدخل ويضيق صاحبه بكل ما يخشى فقده.

أمضى موظف أعوامًا ينتظر ترقية كبرى. كان دخله يكفي حاجاته الأساسية، لكنه أقنع نفسه أن القلق كله سيتوقف إذا انتقل إلى الدرجة التالية. وحين جاءت الترقية فرحت الأسرة، وانتقلت إلى مسكن أفضل، وسجل الأبناء في أنشطة جديدة، واشتروا سيارة بقسط يمكن حمله ما دام الدخل مستمرًا.

بعد عام لم يعد الراتب الجديد يبدو واسعًا. صارت الزيادة جزءًا من التزامات شهرية ثابتة، وارتفعت دائرة المعارف والمناسبات، وأصبح كل تراجع محتمل يهدد منظومة كاملة. كان الرجل أشد خوفًا من مديره، وأقل قدرة على الاعتراض، ويعمل ساعات أطول كيلا تهتز صورة الموظف الذي صعد أخيرًا.

لم تكن المشكلة أن الأسرة انتفعت بالترقية. بعض التحسينات كانت نافعة، وتعليم الأبناء تحسن، والمسكن أراحهم. الخلل أن كل زيادة تحولت سريعًا إلى حد أدنى جديد، ولم يتركوا مساحة بين القدرة والرغبة. وحين سأل نفسه: كم يكفيني؟ اكتشف أن السؤال لم يدخل الخطة أصلًا؛ كانت الخطة كلها مبنية على المحافظة على الصعود.

بدأ الإصلاح من الحسابات لا من الخطب. ميزوا بين التزام يخدم حاجة، وآخر يحمي صورة. ألغوا اشتراكين قليلَي النفع، وأجلوا تبديل السيارة، ووضعوا مبلغًا للطوارئ، وخفضوا مناسبات كانت تستنزفهم. لم يرجعوا إلى حياتهم السابقة، ولم يجعلوا الضيق فضيلة، لكنهم استعادوا جزءًا من المساحة التي سلبتها التوسعات.

وكان الإصلاح القلبي أبطأ. بقي الرجل يضيق حين يرى زميلًا تجاوزه، وترددت الأسرة قبل الاعتذار عن بعض الدعوات، وشعر الأبناء أول الأمر أن التقليص عقوبة. احتاجوا إلى حديث صريح عن النعمة والخوف والاختيار، وإلى أن يروا أن الحياة لا تنهار حين لا يطابقون مستوى المحيطين بهم.

مع الوقت صار الموظف يرى الرغبة قبل أن تتحول إلى ضرورة. لم يمت طموحه، واستمر في التعلم وطلب فرص أفضل، لكنه توقف عن وعد نفسه أن السكينة تنتظره في الدرجة القادمة. وحين جاء عرض أعلى بعد سنوات، درسه من جهة المال والوقت والأثر في الأسرة، لا من جهة الرقم وحده. كان هذا بعض غنى النفس، لا نهايته.

الإصلاح لا يطلب انقلابًا مفاجئًا إلى رضا كامل. النفس تتعلم بالتكرار: تسمية النعمة، وتأخير شراء، وقبول هيئة أقل، وتقديم حق، والدعاء، ومراجعة ما تغير بعد كل زيادة. وكلما رأى الإنسان أن حياته بقيت كريمة بعد تنازل عن كمالية، اتسعت قدرته على التحرر من الخوف الذي كان يضخمها.

ومن الوسائل النافعة أن يعطي المال وظائف قبل أن تعطيه الرغبات وظائفها: نفقة وحق، واحتياط معقول، وانتفاع مباح، ونفع يتجاوز صاحبه. حين يصل مبلغ جديد ولا يجد أمامه إلا باب الاستهلاك، يرتفع المستوى تلقائيًّا. أما إذا دخل في تصور متوازن، بقيت الزيادة نعمة، ولم تتحول كلها إلى قيد دائم.

استحضر آخر زيادة مهمة دخلت حياتك: راتبًا، أو ربحًا، أو ميراثًا. كم بقي شعور الاتساع قبل أن ينتقل تعريف الكفاية إلى مستوى أعلى؟ وما الشيء الذي كان تحسينًا ثم صار في نفسك ضرورة؟ ولو ثبت دخلك سنوات، فما الذي يمنعك من شكر اليوم والعمل للغد في وقت واحد؟

ثم انظر إلى النفقات التي تحمي صورتك أكثر مما تخدم حياتك. أيها سيبقى لو غابت أعين الناس؟ وأي التزام يمنعك الآن من قول كلمة حق أو قبول فرصة أقل دخلًا وأكثر سلامة؟ لا يلزم أن تلغي كل شيء؛ اختر قيدًا واحدًا تعيد النظر فيه، ونعمة واحدة تعيدها إلى وعيك بالشكر.

غنى النفس لا يجعل المال قليل الأهمية، بل يجعله أقل قدرة على تعريف الإنسان. صاحبه يأخذ بالأسباب، ويتألم عند العجز، ويطلب من فضل الله، ثم لا يكره حياته لأنها لم تبلغ كل ما يريد. وحين يخف استهلاكه للمال في إثبات ذاته، يتسع بصره لمن حوله. عندئذ ينتقل السؤال من: كم أملك؟ إلى: ماذا يصنع ما أملك؟

الوحدة التاسعة عشرة: من المال إلى النفع

لا يملك الإنسان في الحقيقة كل ما بقي في حسابه، وإن كان الشرع قد أثبت له الملك والتصرف. فالمال الذي استهلكه انقضى نفعه، والذي أمسكه سيخرج من يده يومًا، والذي قدمه لله هو الذي ينتقل معه من دار إلى دار. ولهذا افتتح النبي ﷺ هذا الباب بسؤال يقلب التعريف المألوف للملك، فقال: «أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ». رواه البخاري (6442)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

لا يذم الحديث الادخار ولا ما يتركه الإنسان لورثته، فقد يكون ترك الكفاية لهم إحسانًا مأمورًا به. لكنه يعيد تسمية الأشياء قبل أن تخدع صاحبها. ما أبقاه في الدنيا لم يخرج من ملك الله، وسيؤول إلى غيره، أما ما قدمه في حق ونفع فقد صار جزءًا من عمله الذي يلقاه. الملك الكامل في ميزان الآخرة ليس ما أحكم الإنسان قبضته عليه، بل ما أحسن توجيهه قبل أن تنفلت القبضة.

ومن هنا لا يبدأ انتقال المال إلى النفع بالصدقة التطوعية وحدها. يبدأ بالحقوق التي لا يملك صاحب المال أن يسمي أداءها كرمًا. نفقة واجبة على أهل، وأجر عامل، ودين حل موعده، وحصة شريك، ومال يتيم أو وارث، وضمان لحق تعلق بالذمة. هذه الأموال قد تظهر في حساب واحد، لكنها في ميزان الشرع موزعة بين أصحابها، ولا يصفو الملك لصاحبه حتى يرد كل حق إلى موضعه.

وقد جعل النبي ﷺ النفقة على الأهل صدقة إذا صح القصد، فقال: «إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ». رواه البخاري (55)، ومسلم (1002)، من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه. فالمال لا يحتاج إلى مغادرة البيت حتى يدخل في أبواب القرب؛ قد يكون الطعام والعلاج والتعليم والسكن من أعظم ما يقدمه العبد إذا قام به بحق واحتساب.

هذا المعنى يصحح وهمًا يتكرر عند من يحب صورة الخير العام. قد ينشط لمشروع ظاهر، ثم يضيق بنفقة واجبة على من يعول، أو يمن عليهم بما يعطي، أو يؤخر حقهم ليظهر اسمه في باب أبعد. وليس كل عمل واسع الأثر مقدمًا على الحق القريب. العبودية تتبع أمر الله، وقد يكون أعظم إنفاق في حق إنسان أن يحفظ بيتًا لا يراه الناس.

وفي الجهة الأخرى لا يجوز أن تتحول الأسرة إلى حجة تغلق كل باب للخلق. تتوسع حاجات الأبناء حتى يصبح كل تحسين ضرورة، ويقال عن كل فائض إنه للمستقبل، ثم لا يبقى من المال شيء لحق محتاج أو صلة قريب أو نفع عام. حفظ الأهل واجب، لكن الحب نفسه يحتاج إلى ميزان؛ فقد يربيهم الأب على أن دائرتهم هي العالم كله، وأن المال لا وظيفة له خارج أمنهم وراحتهم.

ولهذا جاء الحديث بترتيب يجمع الاستغناء والعطاء: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ». رواه البخاري (1427)، ومسلم (1034)، من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه. فاليد العليا ليست يدًا تهدم من تعول، وإنما يد قامت بواجبها ثم امتد خيرها.

لا يقصد الحديث إهانة المحتاج؛ فقد تنزل بالإنسان حاجة مشروعة يسأل معها حقه. المقصود بناء نفس تحب أن تكون مصدر كفاية ونفع ما استطاعت، وتتعفف عن التطلع إلى ما في أيدي الناس. واليد العليا تبدأ قبل إخراج المال: بكسب طيب، وضبط حاجة، وتعلم مهارة، وأداء حق، ثم تتحول القدرة إلى إعطاء يحفظ كرامة من يصل إليه.

وتتسع دوائر النفع في القرآن من الأقرب إلى الأبعد، قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: 215]. لا يحبس السؤال في مقدار الإنفاق، بل يربطه بجهاته: والدان، وأقربون، ويتامى، ومساكين، وابن سبيل. وهذه الجهات ليست قائمة جامدة؛ إنها تربي البصر على رؤية من قد تحجبه المشاريع الكبيرة وهو قريب، أو تحجبه القرابة وهو ضعيف لا يحسن المطالبة.

النفع الجيد لا يقاس بصورته ولا بضجيجه. قد تكون نفقة شهرية هادئة على قريب أعمق أثرًا من حملة كبيرة، وقد يكون سداد دين عن معسر أعظم من توزيع عابر، وقد يكون تحسين أجر موظف أعدل من تبرع يحمل اسم المؤسسة. السؤال ليس: ما العمل الذي يجعلني أشعر أنني كريم؟ بل: أين الحق والحاجة، وما الفعل الذي يرفع عن إنسان ضررًا حقيقيًّا؟

ولهذا أمر الله أن يكون الخارج طيبًا، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: 267]. يضع القرآن المنفق لحظة في مكان المتلقي: هل يرضى لنفسه ما اختاره لغيره؟ قد يعطي الإنسان شيئًا مستعملًا نافعًا فيكون إحسانًا، لكن الخلل أن يجعل المحتاج مصرفًا لما يأنف هو من أخذه، أو يخرج الرديء بلا بيان ثم يطلب ثناء الكرم.

كرامة المتلقي جزء من النفع. قد يسد العطاء حاجة مادية ويجرح صاحبه بالمن أو التشهير أو الاستعلاء، فيخرج المال ويترك في القلب أذى. وقد يصل قليل باحترام، واختيار، وسر، وكلمة تحفظ الوجه، فيكون أثره أوسع من رقمه. من فهم الاستخلاف لم ير المحتاج منصة لفضله؛ رآه عبدًا له عند الله كرامة وحق.

ويتقدم القرآن خطوة أخرى فيقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 92]. طريق البر يمر بشيء يحبه صاحبه، لا بما انقطعت رغبته عنه كله. ليس المراد أن يخرج كل محبوب ولا أن يضيع حاجته، وإنما أن يختبر سلطان المحبة: هل يستطيع أن يقدم لله شيئًا له قيمة حقيقية عنده، أم لا يخرج من يده إلا ما مات تعلقه به؟

ويعيد القرآن تعريف ما يبدو نقصًا في الحساب، فيقول تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 261]. يرى المنفق في اللحظة الأولى مالًا خرج من يده، ويريه الوحي حبة دخلت أرض النماء. لم يخرج المال من ملك الله، ولم يسقط من حساب الآخرة؛ انتقل من صورة عاجلة يراها صاحبه إلى ثمرة يقدرها الله.

ولا يحول الوعد بالمضاعفة الصدقة إلى صفقة يختار العبد وقت ربحها وصورته. قد لا يعود إليه المال في الدنيا، وقد تظهر الثمرة في أجر مدخر، أو بركة، أو دفع شر، أو نفع امتد في حياة إنسان. المقصود أن يبذل لله وهو موقن بأن ما عنده لا يضيع، لا أن يشترط على الله نتيجة دنيوية بعينها.

هذا الامتحان يتفاوت. قد يكون الشيء المحبوب مبلغًا ادخره لراحة، أو وقتًا يحتاج إليه ضعيف، أو فرصة ينتفع بها غيره، أو أصلًا يريد صاحبه إبقاءه كله داخل أسرته. لا يطلب الشرع منه أن يتصرف بلا فقه، لكنه يكشف له أن العطاء الذي لا يمس رغبة النفس قد يبقى سهلًا، وأن البر يربي القدرة على تقديم الأعلى حين يتزاحم المحبوبان.

ومن النفع أن يفرج الإنسان حاجة عاجلة، ومنه أن يبني قدرة تمنع تكرر الحاجة. طعام الليلة لا يغني عنه تدريب العام، والتدريب لا يغني عن طعام من لا يملك الانتظار. الحكمة لا تضع وصفة واحدة لكل محتاج. تسأل عن حاله، وتجمع حين تستطيع بين الإغاثة العاجلة وفتح باب كسب أو تعليم أو علاج يعيد إليه بعض الاستقلال.

ولهذا اختار النبي ﷺ لفظ السعي في قوله: «السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، قال الراوي: وأحسبه قال: «وَكَالْقَائِمِ لَا يَفْتُرُ، وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ». رواه البخاري (5353)، ومسلم (2982)، من

حديث أبي هريرة رضي الله عنه. الساعي لا يحول مبلغًا وينصرف دائمًا؛ قد يتابع علاجًا، أو ورقة، أو حقًا، أو تعليمًا، أو باب عمل.

والسعي أقل بريقًا من لحظة التبرع. يحتاج إلى وقت، واحتمال تكرار السؤال، وفهم نظام، وصبر على خطأ المستفيد والمؤسسة. وقد يكتشف صاحبه أن حسن النية لا يكفي، وأن المال من غير إدارة يضيع أو يصنع اتكالًا أو يصل إلى غير مستحق. إصلاح الوسيلة جزء من الأمانة، وليس تراجعًا عن الرحمة.

ومن النفع المتعدي توظيف الإنسان بكرامة. يفتح صاحب عمل بابًا لا ليشتري ولاء العامل، بل ليستفيد من قدرته ويعطيه حقه. وقد يكون التعليم والتدريب وإتاحة الأدوات أنفع من مبلغ ينتهي. لكن هذا كله لا يبرر أجورًا منخفضة باسم منح الفرصة، ولا تحميل المحتاج منة مستمرة؛ فالعمل عقد وحق، والإحسان زائد على العدل لا بديل عنه.

وقد يدخل المال في مصلحة عامة: تعليم، وعلاج، وماء، وبحث، وإغاثة، ومؤسسة تحفظ حاجات مستمرة. هنا يحتاج المنفق إلى سؤالين معًا: هل الجهة نافعة حقًا؟ وماذا صنع العطاء في قلبي؟ فالمشروع الكبير قد يضيع بسبب ضعف الإدارة، وقد ينجح في الناس ويخسر صاحبه إذا صار اسمه غايته التي لا يقبل أن يستمر الخير من دونها.

لا تساوي العلانية الرياء، ولا يضمن الخفاء الإخلاص. قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: 271]. قد تظهر الصدقة لتشجيع الناس أو بيان الشفافية أو جمع الدعم، وقد تخفى صيانة للفقير والقلب. المعيار أن تخدم الصورة المقصد، لا أن يتحول المقصد إلى خادم للصورة. ولو نزع الاسم، فهل يبقى صاحب المال راغبًا في وصول النفع؟

ومن أخطر ما يفسد العطاء المن. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 264]. المن يجعل المال فاتورة أخلاقية لا تنتهي، يطالب بها المعطي بطاعة أو صمت أو ثناء. وربما لم يتلفظ، لكنه ينتظر أن يتغير موقف المستفيد منه في كل قضية. ما خرج لله لا يمنح صاحبه ملكًا جديدًا في رقاب الناس.

وقد يتذرع بعض الناس بالخوف من سوء الاستعمال فيغلق باب العطاء كله. الحذر مطلوب، واختيار الجهات الموثوقة من المسؤولية، لكن التجربة الفاشلة لا تثبت أن الرحمة خطأ. من فقه المؤمن أن يصلح نظامه بدل أن يدفن المعنى: يحدد معايير، ويتابع، ويطلب تقريرًا، ويغير الوسيلة، ويبقي باب الخير مفتوحًا.

وتظهر وظيفة المال الباقية حين يتجاوز أثره لحظة صاحبه. ولا تستقيم وظيفة النفع من غير موازنة بين إظهاره وإخفائه. قال تعالى: **﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** [البقرة: 271]. أثنى القرآن على الإبداء في موضعه، وبيّن فضل الإخفاء حين يصل العطاء إلى الفقير بعيدًا عن أذى الصورة وكلفة الإعلان.

ليست كل علانية رياء، كما أن الخفاء لا يضمن الإخلاص. قد يخدم الإعلان قدوة أو جمعًا لمصلحة، وقد يكون السر أحفظ لقلب المنفق ووجه المحتاج. المحك أن يبقى المقصد قائدًا للاسم: هل يظهر العطاء لأن ظهوره أنفع، أم صار المحتاج وسيلة ليظهر صاحبه؟ ولو غاب الاسم، هل يبقى راغبًا في وصول الخير؟

قال النبي ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ». رواه مسلم (1631)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وسيعود معنى انقطاع العمل في المحور السابع عند حضور الموت، أما موضعه هنا فهو بناء الأثر قبل النهاية.

ليس كل إنسان قادرًا على وقف كبير، ولا يحصر الأثر الباقي في البناء والمال الضخم. قد يطبع علمًا صحيحًا، أو يعلم طالبًا، أو يدعم نظامًا نافعًا، أو يهيئ ولدًا صالحًا، أو يزرع شجرة، أو يضع إجراءً عادلًا يبقى بعده. المقصود أن يخرج بعض ماله وعمره من دائرة الاستهلاك العاجل إلى نفع يواصل العمل حين يعجز هو عن الزيادة.

ولا يلزم أن يؤجل الأثر إلى الوصية. من حكمة العطاء في الحياة أن يرى صاحبه ما صنع، ويصحح خطأه، ويتعلم فصل نفسه عن المال وهو قادر عليه. قد يكتب الإنسان مشروعًا بعد موته ثم يمسك عمره كله، مع أن التنفيذ قد يتغير والورثة قد يعجزون. ما استطاع أن يقدمه الآن بوعي وضبط أقرب إلى العمل الذي يملكه حقًّا.

اتسع رزق رجل بعد أعوام من العمل، وكان يردد أن العطاء المنظم سيبدأ حين يبلغ مدخراته رقمًا يطمئنه. كلما وصل إلى رقم رفع الحد؛ لأن تعليم الأبناء والعلاج والتقاعد احتمالات لا تنتهي. كان يتصدق أحيانًا، لكن المال المؤثر ظل مشروعًا مؤجلًا إلى يوم أمان كامل لم يأت.

مرض صديق له فجأة، ووجد أسرته تبحث عن تكلفة علاج عاجلة. ساهم بمبلغ لم يهدم مدخراته، ثم رأى كيف انتقل المال من رقم صامت إلى أيام علاج وطمأنينة جزئية. لم يحل كل مشكلة، لكنه اكتشف أن جزءًا مما جمعه استطاع أن يحمل عن إنسان بعض الخوف. كان هذا الأثر أقوى من لذة بلوغ رقم جديد.

بعد ذلك اتفق مع اثنين من معارفه على صندوق صغير لحالات محددة، ووضعوا له معايير واضحة. في أول عام أخطؤوا في تقدير حالة، ووصل المال متأخرًا إلى أخرى، ووجدوا من بالغ في وصف حاجته. لم يتركوا العطاء كله؛ راجعوا الإجراءات، وطلبوا توثيقًا مناسبًا، وأدخلوا شخصًا أعرف بالمجال. وحين أخطؤوا في حالة، أصلحوا النظام بدل أن يتركوا العطاء كله.

لم يتحول الرجل إلى منفق كامل، وبقي يخاف على مستقبل أبنائه، وأحيانًا كان يضيق بالمبلغ الثابت حين ترتفع مصروفاته. لكنه لم يعد يرى كل ما في الحساب مالًا له بالمعنى نفسه. صار يميز بين حق لازم، واحتياط مشروع، وانتفاع مباح، ونفع يريد أن يقدمه ليبقى له.

راجع مالًا حقيقيًّا دخل يدك في الأشهر الثلاثة الماضية: راتبًا، أو ربحًا، أو مكافأة، أو ميراثًا. كم منه بقي داخل دائرتك الخاصة؟ وكم أدى حقًّا قائمًا؟ وكم تحول إلى نفع يتجاوزك؟ لا تبدأ بنسبة مثالية، ولا تقارن نفسك بمن هو أوسع منك. سمِّ مبلغًا أو قرارًا واحدًا يمكن أن ينتقل من الحفظ والاستهلاك إلى وظيفة أنفع.

ثم انظر خلف أعمال الخير الظاهرة: هل بقي أجر أو دين أو حق شريك لم يؤد؟ وهل تنفق على بعيد وتمن على قريب؟ وهل العطاء الذي تختاره يحفظ كرامة الناس أم يشتري صورتك؟ الإصلاح قد يبدأ برد حق قبل صدقة، أو رفع أجر، أو نفقة محتسبة، أو متابعة حالة، أو تعليم شخص بابًا يكفيه.

حين يخرج المال إلى النفع لا يفقد صاحبه كل خوف، ولا يضمن زيادة عاجلة. يراه ينقص في الحساب، وقد لا يعرف أثره كاملًا. لكنه يتعلم أن المال الذي لم يتجاوز يده سيتركه، وأن ما قدمه في حق ورحمة وعلم هو

الذي صار له. ويبقى امتحان أشد: ماذا يفعل إذا لم يعد المطلوب أن يخرج جزءًا من المال، بل أن يختار بين مصلحة يحبها وأمر يعرف أنه من الله؟

الوحدة العشرون: إذا تعارضت الدنيا مع الله

كشف المحور الثالث كيف تنافس الدنيا الآخرة في القلب، وكيف يستعجل الإنسان القريب لأنه يراه ويلمس أثره. وهذه الوحدة لا تعيد تأسيس ذلك المعنى، بل تبدأ من لحظة أضيق: عرف الإنسان الحكم، وعرف الثمن، واستفرغ قدره في البحث عن بديل مباح، ثم ظهر أن الجمع غير ممكن. لم يبق إلا أن يختار، وأن يعيش بعد اختياره.

في هذه اللحظة تتجرد الكلمات العامة من زينتها. لا يعود السؤال: هل أحب الله أكثر؟ بل: هل أقبل خسارة وظيفة أو صفقة أو علاقة أو مكانة لأن بقاءها في صورتها الحالية يقتضي مخالفة أعرفها؟ وقد يكون المحبوب مشروعًا في أصله، والخسارة مؤلمة حقًّا، ولهذا كان الامتحان صادقًا لا مشهدًا مصنوعًا للوعظ.

جمع الله في آية واحدة أكثر ما تتعلق به النفس، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: 24]. الآباء والأبناء والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن ليست مذمومة في ذاتها. الخطر في ترتيب المحبة حين تصبح أحب إلى الإنسان من الله ورسوله والجهاد في سبيله، ويظهر ترتيبها عند التزاحم الذي لا تحسمه العبارات.

لا يطلب الإيمان من العبد أن يكذب حبه. يحب ابنه، ويخشى على بيته، ويتعلق بمهنة بناها في أعوام، ويتألم إذا خسر ثقة قريب أو مكانة في قومه. لكن هذه المحاب لا تملك أن تنشئ له حلالًا وحرامًا جديدين. يظل الله فوقها، لا لأن آثارها هينة، بل لأن الرب الذي أنعم بها أحق بالطاعة منها.

وقبل القرار تعمل النفس على الأسماء. تسمي الرشوة «تسهيلًا»، والكذب «مرونة»، وأكل الحق «حماية للمؤسسة»، وترك الواجب «مراعاة للظرف». وفي الجهة الأخرى تضخم اسم الخسارة: رفض التوقيع يصبح هدمًا للأسرة كلها، وتأخير الربح يصير نهاية المستقبل، وغضب شخص يتحول إلى قطيعة لا علاج لها. بهذه اللغة ترجح الدنيا قبل أن يبدأ التفكير.

أول العبودية أن يعود الاسم الشرعي إلى الفعل. ما الحكم الذي أمامي؟ وما المصلحة التي سأفقدها؟ لا يخفف الأولى كي يقدر على فعلها، ولا يهون الثانية كي يبدو قويًّا. يقول: هذا كذب أو ظلم أو محرم، وهذه وظيفة أحتاج إليها ودخل تعتمد عليه أسرتي. الصدق مع الطرفين يمنع التدين المسرحي ويمنع التبرير المريح.

ومع ذلك لا يكفي إحساس المرء بأن الأمر معصية. قد يخطئ في الحكم، أو يخلط بين خلاف شخصي وقضية شرعية، أو يجعل رأيًا اجتهاديًّا واحدًا معيار الولاء. لذلك يجب أن يتحقق: يسأل من يثق بعلمه ودينه، ويعرض الواقعة كاملة، ولا ينتقي وصفًا يجر الفتوى إلى ما يريد. التثبت هنا عبادة، لأنه يحمي أمر الله من أن يستعمله الإنسان لتقديس مزاجه.

كما يلزمه أن يستفرغ البدائل المباحة. قد يمكن تعديل العقد، أو توثيق الاعتراض، أو إحالة القرار إلى جهة أخرى، أو تقليل الضرر، أو الانتقال التدريجي، أو طلب مهلة. اختيار الله لا يعني حب الخسارة ولا صناعة بطولة سريعة. المؤمن مأمور بالحكمة، ويبحث عن طريق يجمع الحق والمصلحة ما دام الجمع ممكنًا.

لكن البدائل قد تنفد، وتبقى المخالفة كما هي. عندئذ يصير استمرار البحث اسمًا جديدًا للتأجيل. يتنقل الإنسان بين مستفتين، ويعيد صياغة الواقعة، وينتظر فتوى توافق حاجته، مع أن الحكم استبان له. الفرق بين التثبت والتحايل يظهر في صدق السؤال: هل أبحث عن حكم الله، أم عن عبارة تحتفظ لي بالدنيا؟

وقد وضع النبي ﷺ قاعدة لا تتغير بتغير صاحب السلطة، فقال: «لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ». رواه البخاري (7257)، ومسلم (1840)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فالمدير والوالد والزوج والحاكم والجماعة لهم حقوق في المعروف، ولا يملك واحد منهم أن يجعل معصية الله بابًا لحفظ حقه.

هذه القاعدة لا تربي على الفوضى. الطاعة في المعروف باقية، والأدب والوفاء والعقد وحفظ السر المشروع كلها باقية. الذي يسقط هو الأمر بالمعصية. قد يرفض الموظف فعلًا محرمًا ثم يؤدي بقية عمله بإتقان، وقد يعصي الولد والديه في أمر مخصوص ثم يصاحبهما بالمعروف. التوحيد لا يهدم الحقوق؛ يمنع حقًّا مخلوقًا من ابتلاع حق الخالق.

ولهذا قال الله تعالى في الوالدين عند أعظم تعارض: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: 15]. نهى عن الطاعة في الشرك، ثم أمر بالمصاحبة في الدنيا معروفًا. اجتمع الرفض والبر في آية واحدة، حتى لا يحول الإنسان ثباته إلى قسوة، ولا يحول محبته إلى ذوبان يترك معه دينه.

قد يكون ضغط الأسرة أوجع من ضغط المدير؛ لأن الخسارة تدخل البيت. يقول الأب لابنه إن رفض الصفقة سيضر الجميع، أو تخشى الزوجة هبوط المستوى، أو يرى الأبناء أن قرارًا دينيًّا سلبهم فرصة. لا تحل هذه الآلام بجملة آمرة. يحتاج صاحب القرار إلى شرح واعتذار وخطة وتحمل، وإلى أن يسمع خوفهم من غير أن يجعل خوفهم مصدر الحكم.

كما يأتي الضغط من الناس الذين يساوون الحكمة بالانسجام. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: 10]. يجعل بعض الناس فتنة الخلق كعذاب الله؛ فيثقل عليه لومهم حتى يغير به طريقه. ليس كل نقد فتنة، وقد يكون الناس محقين في كشف تهور أو سوء تقدير. موضع الآية حين يصير أذى الخلق في ميزان القلب مساويًا لأمر الله أو مقدمًا عليه.

ويظهر التعارض أحيانًا في خطوة صغيرة لا تبدو حاسمة. يطلب منه حذف جملة من تقرير، أو تمرير استثناء لمرة، أو السكوت عن معلومة، ثم ترتبط الخطوات بعضها ببعض. لو رأى النهاية أول يوم لرفض، لكنه وافق على الجزء الذي استطاع تسميته بسيطًا. من رحمة الله بالعبد أن يحسم عند البداية قبل أن يصنع الحرام حوله التزامات جديدة.

ومن أخطر ما يربك القرار شبكة الضرورات التي تبنيها النفس. لديه دين، وابن في الجامعة، وفرص تخصصه محدودة، وسوق العمل ضعيف. هذه حقائق لا يجوز السخرية منها. لكن الحقيقة المؤلمة لا تغير حكم الفعل وحدها، ولا تجعل كل خسارة ضرورة شرعية. الضرورة باب منضبط يسأل عنه أهل العلم، لا اسم يطلقه الإنسان على كل ما يخشى نزوله.

قد يكون انخفاض مستوى المعيشة موجعًا، ولا يكون هلاكًا. قد تفوت ترقية، ولا يصير ذلك إكراهًا. وقد يغضب مسؤول، ولا يصبح غضبه إذنًا بالكذب. وحين تكون هناك ضرورة معتبرة فعلًا، فلها قدرها وحدودها، ولا تستباح بها الزيادة. هذا التحرير يحمي الناس من قسوة مواعظ لا ترى الواقع، ومن توسع يبتلع الأحكام باسم الواقع.

ثم تأتي لحظة الاختيار. لا يشترط فيها أن يمتلئ القلب شجاعة. قد يرتجف، ويؤجل النوم، ويعود إلى حساباته عشر مرات. الثبات ليس غياب الخوف؛ هو ألا يمنح الخوف حق تغيير الحكم بعد أن استبان. يختار الله وهو يعرف أن آثار قراره ستبدأ غدًا، وأن الخطبة التي حركته لن تدفع القسط عنه.

ويحسم القرآن مرجعية هذه اللحظة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36]. فإذا ثبت قضاء الله ورسوله لم تبق للمؤمن خيرة تعارضه، وإن بقي له مجال واسع في طريقة الامتثال، وتقدير البدائل، وتقليل الضرر، والقيام بما يلزمه بعد القرار.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 2-3]. وقد مرت آيتا الطلاق في المحور الرابع عند بناء اليقين بالرزق، وتعودان هنا بوظيفة أخص: حماية الطاعة من أن تتحول إلى عقد يشترط التعويض العاجل. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 2-3].

جمعت الآيتان التقوى والمخرج والرزق والتوكل والكفاية، ثم ردتا الجميع إلى أمر الله وقدره. فالمؤمن يتعلق بوعد ربه، ولا يحول الوعد إلى جدول يفرض فيه صورة الخلف وموعده.

الوعد بالمخرج والرزق حق، لكنه لا يحدد للعبد صورة واحدة ولا موعدًا يختاره. قد يكون المخرج عملًا جديدًا، أو تقليل حاجة، أو صرف شر، أو قوة على الصبر، أو نجاة في الآخرة. من عبد الله بشرط أن يعيد له المصلحة نفسها عاجلًا لم يخرج من عبادة الدنيا؛ غير فقط طريقة طلبها.

ولهذا لا ينبغي أن يعد الناس كل مطيع بتعويض مالي قريب. قد يرفض الحرام ثم يطول ضيقه، وقد يخسر علاقة ولا تعوضها علاقة مماثلة، وقد يموت قبل أن يرى ثمرة قراره في الدنيا. صحة الطاعة ثابتة بأمر الله، لا بالوظيفة التي جاءت بعدها. والرجاء في فضل الله أوسع من أن يحبس في نتيجة يختارها العبد.

كان موظف يعمل في مجال تخصصي ضيق، أمضى فيه أكثر من خمسة عشر عامًا. عليه قسط بيت، وابن بدأ عامه الجامعي، ووالدة تحتاج إلى علاج متكرر. لم يكن غنيًّا، لكنه بنى حياة مستقرة تعتمد على راتبه، وكانت فرص الانتقال في مدينته محدودة. يعرف مديره هذه التفاصيل، ويعرف هو أن فقد الوظيفة لن يكون حادثًا صغيرًا.

في مشروع كبير وقع خلل مؤثر في مرحلة التنفيذ. أعد الموظف تقريرًا يثبت الواقعة ويبين احتمال أثرها في السلامة والتكلفة. أعاده المدير إليه، وطلب صياغة «أكثر اتزانًا» تحذف وصفًا حاسمًا، حتى تمر الصفقة ولا

تفتح الشركة على نزاع. لم يطلب منه أن يكتب كذبة صريحة في جملة واحدة؛ طلب منه حذف حقيقة ستغير فهم القارئ للتقرير.

قضى أيامًا يبحث عن صيغة تجمع الصدق وحفظ الصفقة. اقترح أن تذكر الواقعة مع بيان الإجراءات التصحيحية، وأن يرفق ملحقًا فنيًّا، وأن تؤجل الموافقة حتى فحص مستقل. ناقش الشؤون القانونية، وسأل مختصًّا يثق بدينه عن مسؤوليته. لم يندفع إلى الرفض منذ الدقيقة الأولى، لأنه كان يريد حقًّا أن يجد مخرجًا مباحًا.

لكن الإدارة أرادت تقريرًا خاليًا من الواقعة، وأصبح واضحًا أن الصياغات الوسطى لا تحقق طلبهم. في البيت حاول أن يخفي قلقه، ثم أخبر زوجته. خافت، وسألته عن الجامعة والقسط، وبكت حين قال إن احتمالات الفصل حقيقية. لم تقل له فورًا: ارفض ونحن معك؛ احتاجت هي أيضًا إلى زمن حتى تستوعب أن القرار سيدخل تفاصيل حياتهم.

عاد إلى مكتبه في اليوم المحدد، وكتب أنه لا يستطيع اعتماد التقرير بصورته المطلوبة، وأرفق النسخة التي يراها أمينة. لم يرفع صوته، ولم يتهم الجميع في دينهم، ولم ينشر القصة ليصنع لنفسه صورة. قال لمديره إنه مستعد لأي صياغة صحيحة لا تحذف الواقعة، وإنه يتفهم آثار موقفه لكنه لا يستطيع التوقيع.

نُقل من المشروع أولًا، ثم جُمدت بعض صلاحياته، وبعد أسابيع انتهى عقده باتفاق لم يكن مرضيًا له. خرج وهو يسأل نفسه إن كان قد بالغ، مع أنه تحقق قبل القرار. الخوف لا ينتهي دائمًا عند الطاعة؛ أحيانًا يبدأ فصل جديد منه. كان يرى ابنه يذهب إلى الجامعة فيشعر بثقل ما حمله إليه، ويحسب المدخرات كأن كل رقم شهادة على اختياره.

لم ترد الأسرة بصورة مثالية. غضب الابن يومًا وقال إن والده كان يستطيع أن «يمرر الورقة مثل غيره»، ثم اعتذر بعد مدة. اختلف الزوجان على نفقات كان لا بد من خفضها، وشعرت الزوجة أحيانًا أنه اتخذ القرار وحده ثم تركهم يحملون أثره. احتاج الرجل إلى أن يسمع هذا الألم من غير أن يمنّ عليهم بأنه ضحى لله.

بدأ يبحث عن عمل، وقبل مهام استشارية أقل من مرتبته السابقة. رُفض في جهات، وسأله بعضهم ضمنًا عن سبب خروجه، ولم يستطع سرد قصة طويلة كل مرة. بعد أشهر وجد عملًا آخر أقل دخلًا، ثم تحسن وضعه تدريجيًّا. لكن الوظيفة الجديدة ليست البرهان على صحة ما فعل؛ لو لم تأت، لبقي حذف الحقيقة محرمًا وبقي صدقه واجبًا.

كان الامتحان الثاني بعد القرار: ألا يعبد صورة تضحيته. أحس أحيانًا أنه أحق بالتقدير من زملاء بقوا، وضاق حين لم تتعامل أسرته معه كبطل. احتاج إلى توبة من المن الخفي، وإلى أن يذكر أن الطاعة فضل من الله لا دين له على الله ولا على الناس. قام بما وجب، ولم يشتر بذلك حياة تخلو من الخسارة.

الحياة بعد الاختيار جزء من العبودية. من ترك وظيفة لله لا يجوز أن يترك السعي ويحمّل أهله تبعة كسل جديد. يبحث، ويتعلم، ويخفض النفقات، ويطلب المساعدة إن احتاج، ويؤدي ما يستطيع. ومن خسر علاقة يحفظ لسانه من الظلم، ومن فاتته مكانة لا يجعل المرارة مبررًا لتحقير الناس. اختيار الله ليس لحظة واحدة؛ له أخلاق تمتد بعدها.

وقد يندم الإنسان على الألم من غير أن يندم على الطاعة. يقول: تمنيت لو لم أقع في هذا الموقف، ولو وجدت طريقًا أقل كلفة. هذا لا يساوي الاعتراض على حكم الله. الندم المفسد هو أن يتمنى المعصية لأنها كانت تحفظ الدنيا، أو يربط رضاه عن الطاعة بتعويض ينتظره. أما الحزن على الفقد فجزء من بشريته.

وفي العلاقات قد يكون الثبات في رفض معصية مع استمرار المعروف. لا يقطع والديه لأنهما ضغطا عليه، ولا يهجر صديقًا لمجرد أنه لم يفهم قراره، ولا يحول الخلاف المهني إلى تشهير. وقد تتطلب بعض العلاقات مسافة أو انتهاءً حين تستمر في الأذى أو الحرام، لكن هذا حكم آخر يقدر بقدره، لا غضب يلبس ثوب الغيرة لله.

كما يجب الحذر من توسيع مفهوم التعارض حتى يصير كل تفضيل شخصي معركة بين الله والدنيا. قد يختلف الناس في أسلوب إدارة أو تقدير مصلحة أو رأي فقهي سائغ. من السهل على النفس أن ترفع خلافها إلى مرتبة الحق المطلق، ثم تطالب الآخرين بثمن لم يأمر الله به. التواضع العلمي يحفظ قداسة النص من أن تستعملها الذات.

ومتى استبان الحكم، لا يكون ذكاء الإنسان في اختراع تأويل يحفظ كل شيء. بعض الأبواب لا تفتح إلا بإغلاق باب محبوب. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135]. يأمر بالقيام بالقسط ولو على النفس والوالدين والأقربين، ويمنع الغنى والفقر من تغيير الشهادة. هنا يقف الحق فوق شبكة المصالح التي تحيط به.

وقد يظن المرء أن خسارته ستجعله أفضل من غيره. لكن الامتحان لا يمنحه عصمة. قد يرفض الحرام ثم يسيء إلى أهله، أو يتكبر على من ضعف، أو يروي قصته حتى تصبح رأس مال اجتماعيًّا جديدًا. الدنيا تستطيع أن تعود من باب التضحية نفسها؛ فيحتاج إلى مراقبة قلبه كما راقب توقيعه.

استحضر خسارة دنيوية قبلتها فعلًا من أجل طاعة الله: مالًا، أو علاقة، أو مكانة، أو فرصة. هل تحققت من الحكم، وعرضت الواقعة كما هي، واستفرغت البدائل المباحة، ثم اخترت؟ وكيف عشت بعد القرار: هل بقي في قلبك منّ على الله أو الناس، أو ندم مشروط بأن ترى تعويضًا بعينه؟

وإن لم تجد واقعة واضحة بعد اتساع اختياراتك، فلا تسارع إلى تزكية نفسك بأن التعارض لم يقع. ربما كنت موفقًا إلى الحلال، وربما وجدت في كل مرة تأويلًا يحفظ الدنيا. راجع مواضع الصمت الصغير، والتوقيع الذي لم تقرأه، والعلاقة التي قدمت رضاها، والفرصة التي غيرت لأجلها اسم الحكم.

حرية المؤمن من الدنيا لا تظهر فقط في قلة ما يملك، ولا في كثرة ما يعطي. تظهر حين يبقى قادرًا على ترك ما تعارض مع الله، مع اعترافه بأن الترك يؤلمه. ينتفع بالطيب، ويحمل المسؤولية، ويغنى قلبه، وينقل ماله إلى النفع، ثم إذا وقف على الحد لم يجعل كل ما بناه ذريعة لتجاوزه.

وهنا يكتمل الاختبار العملي للكتاب. الدنيا لم تعد فكرة بعيدة؛ صارت بيتًا وراتبًا وولدًا وتقريرًا وعلاقة. وكل هذه نعم تحفظ وتشكر، حتى يأتي موضع لا تحفظ فيه إلا بمعصية المنعم. عندئذ يعرف العبد أن ما عند الله خير وأبقى، ولو لم ير في ساعته إلا الخسارة.

غير أن القدرة على الترك لا تُفهم كاملة ما دام الإنسان يتخيل أن أمامه زمنًا طويلًا يعوض فيه كل فائت. سيأتي الموضع الذي لا يبقى معه عمل ولا تصحيح، وتنفصل اليد عن كل ما أمسكت. لذلك ينتقل الكتاب بعد هذا الاختيار إلى آخر موازينه: الموت والآخرة؛ لا ليكرر ذم الدنيا، بل ليراها من نهايتها التي لا يستثنى منها أحد.

المحور السابع: الموت والآخرة ـــ الحقيقة التي تكشف الدنيا

مقدمة المحور: حين تُرى الدنيا من نهايتها

انتهى المحور السابق عند لحظة يختار فيها المؤمن أمر الله، مع علمه أن الطاعة قد تكلفه مالًا أو مكانة أو بابًا يحبه. كانت تلك ذروة عملية تكشف مقدار الحرية من الدنيا. ويبقى بعد هذا الاختبار ميزان أوسع: فالإنسان قد يترك شيئًا من الدنيا مختارًا، ثم يأتي يوم يترك فيه الدنيا كلها من غير أن يُستأذن، وتسقط من يده الأشياء التي تعب في جمعها وحمايتها، ويبقى واقفًا بما قدم.

يعرف الناس أنهم سيموتون، لكن هذه المعرفة قد تسكن في موضع بعيد من النفس، فلا تدخل في ترتيب المواعيد ولا حجم الخصومات ولا معنى النجاح. يشيع الموت في الأخبار والمقابر، ثم يعود الإنسان إلى يومه كأن النهاية حقيقة صحيحة في حق البشر عمومًا، مؤجلة في حقه هو. ولهذا لا يكفي أن يقر العقل بالموت؛ المطلوب أن يدخل الموت في الميزان الذي توزن به الحياة.

يقول الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: 19]. لا ينشئ الموت الحقيقة في تلك اللحظة، وإنما يأتي بها إلى موضع لا يستطيع الإنسان أن يدفعه أو يؤجله أو يغطّيه بالانشغال. ما كان غيبًا معلومًا يصير حضورًا، وما كان الإنسان يحيد عن استحضاره يصبح هو الواقعة التي تتراجع أمامها الوقائع كلها.

وذكر الموت في هذا الكتاب لا يراد به أن تتحول الحياة إلى انتظار خائف للنهاية، ولا أن يضعف التخطيط والعمل والرعاية. الوحي الذي يذكر الموت هو الذي يأمر بالسعي والنفقة والعدل والإحسان. وإنما يقطع الموت دعوى الدوام، ويرد الأشياء إلى أحجامها، حتى يعمل الإنسان وهو يعرف أن العمل محدود المدة، وأن الثمرة الدنيوية ليست آخر الحساب.

حين يدخل الموت في الرؤية، تتغير أسئلة كثيرة. لا يعود النجاح مجرد توسع في الموجود، وإنما يصبح: ماذا حمل هذا الموجود إلى اللقاء؟ ولا تعود الخسارة كل شيء خرج من اليد؛ فقد يخسر المرء مالًا ويبقى له صدقه، وقد يحفظ المال ويخسر نفسه. وتصغر خصومات استهلكت أعوامًا، بينما تكبر حقوق كان يؤجلها لأنها لا ترفع مكانته في أعين الناس.

ومع ذلك لا تكفي لحظة التأثر عند جنازة، ولا الخوف الذي يزور القلب عند مرض، ثم يزول حين تعود العافية. الأثر المقصود أهدأ وأعمق: أن يعيد الإنسان ترتيب يومه، ويوثق الحقوق التي في ذمته، ويقصر مسافة التوبة، ويحسن إلى من يحب قبل أن يتحول الحب إلى ندم، ويعمل عملًا يستطيع أن يلقى الله به وإن لم يكتمل كل ما خطط له.

يسير هذا المحور في ثلاث حركات متتابعة. تبدأ الأولى بالموت نفسه: لماذا نعرفه ولا نعيش على أساسه؟ وماذا يفعل حضوره بمعنى الفوز والخسارة؟ ثم تنتقل الثانية إلى طريقة العابر: كيف يحمل مسؤولياته ويبني وينفع، من غير أن يجعل الطريق وطن قلبه؟ وتأتي الثالثة لتجمع الكتاب كله في الميزان الأخير: ما الذي ينفد، وما الذي يبقى، وكيف يستطيع الإنسان أن يحول أموال الدنيا وأيامها وعلاقاته وقوته إلى شيء يجده عند الله؟

ولا يدخل المحور في تفصيل أحكام الجنائز أو أحوال البرزخ أو مشاهد القيامة تفصيلًا؛ فذلك أوسع من غرض الكتاب. المقصود أن يُنظر إلى الدنيا من جهتها التي لا تجامل أحدًا: نهايتها. هناك تتراجع الزينة، وينقطع التنافس، ويظهر أن قيمة الحياة لم تكن في طول الإمساك بها، وإنما في العبودية التي تحققت أثناء المرور بها.

الوحدة الحادية والعشرون: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾

سبق في مطلع الكتاب استعمال قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ من آية آل عمران، وكان موضعه تعريف الدنيا والتحذير من منح المتاع ما لا يملكه. أما هنا فتعود الآية كاملة؛ لأن موضعها الآن هو الموت والجزاء والفوز الذي يكشف حقيقة ذلك المتاع.

يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185].

تبدأ الآية بعموم لا يترك للنفس موضع استثناء: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾. لا تختص النهاية بالضعيف أو المريض أو الكبير، ولا ينشئ المال ولا الشهرة ولا شدة الاحتياط منطقة يخرج فيها الإنسان من هذا الحكم. تختلف أسباب الموت وأوقاته، ويبقى الذوق شخصيًّا لا ينوب فيه أحد عن أحد.

ثم لا تقف الآية عند انقطاع الحياة؛ تصل الموت بتوفية الأجور يوم القيامة. فالموت ليس هو الجزاء الكامل، ولا هو العدم الذي تنتهي عنده القصة، وإنما انتقال من دار العمل إلى ما بعدها. وما بدا في الدنيا مكسبًا قد ينكشف على صورة أخرى، وما بدا خسارة قد يكون جزءًا من طريق الفوز.

ولهذا أعادت الآية تعريف النجاح في عبارة لا تتركه رهين معايير الناس: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾. قد ينجح الإنسان في مهنته، ويبني بيتًا، ويترك اسمًا، وهذه خيرات معتبرة إذا استقامت. لكنها لا تحمل بمفردها وصف الفوز النهائي. النجاح الدنيوي صفحة من الحياة، أما الفوز فهو سلامة المآل.

وقد يعيش إنسان محدود المال، خافت الذكر، لم تكتمل مشروعاته، ثم يكون فائزًا عند الله. ويعيش آخر وقد اجتمعت له صور النجاح التي يتنافس عليها الناس، ثم لا تنفعه إذا ضيع أصل المصير. هذا لا يجعل الإنجاز تهمة، ولا العجز فضيلة؛ يمنع النتيجة القريبة من أن تصدر الحكم الأخير على الإنسان.

يعرف المرء هذه الحقيقة، ثم يبني حياته اليومية بلغة الامتداد. يقول: بعد أن ينتهي هذا المشروع أصلح عبادتي، وحين تستقر الأسرة أصل رحمي، وعندما يخف الضغط أرد الحقوق، وبعد التقاعد أتفرغ لما ينفع. كل جملة محتملة في ذاتها، لكن اجتماعها يصنع عمرًا ينتظر فيه الإنسان نسخة أهدأ من الحياة كي يبدأ ما خُلق له.

المشكلة ليست في التخطيط للغد؛ فالعاقل يزرع لما بعد أعوام، ويعلم أبناءه، ويدخر لحاجة، ويبني مؤسسات لا تكتمل في يوم. الخلل أن يتحول المستقبل المتوقع إلى ملك نفسي مضمون، فتعلق به التوبة والحق والعمل الذي لا يحتاج في الحقيقة إلا إلى صدق البداية.

ويقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: 8]. لا يستطيع الفرار أن يلغي اللقاء؛ قد يبعد الإنسان ذكر الموت عن مجلسه، ويبقى الموت ماضيًا إليه.

وليس الفرار دائمًا خوفًا ظاهرًا. قد يكون امتلاءً متصلًا بالأعمال حتى لا يجد الإنسان لحظة يسأل فيها إلى أين يمضي. وقد يكون نفورًا من زيارة مريض أو كتابة وصية أو توثيق دين؛ لأن هذه الأعمال تُدخل النهاية في حياة يريد أن يراها مفتوحة. وقد يكون مزاحًا مستمرًّا كلما اقترب الحديث من الموت، حتى يحفظ القلب مسافته منه.

أمر النبي ﷺ بما يقطع هذا الحجاب فقال: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ»، يعني الموت. رواه الترمذي (2307)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: حديث حسن غريب.

لا يدعو الحديث إلى تحريم اللذات المباحة، ولا إلى أن يأكل الإنسان وهو يعتذر عن الطعام، أو يفرح بأهله ثم يفسد فرحه بتكلف الحزن. الموت يهدم دعوى اللذة حين تريد أن تكون كل الحياة، ويمنعها من إقناع الإنسان بأن دوامها حق. يأخذها شاكرًا، ويعرف أنها لا تملك أن تحمي نفسها ولا صاحبها من التحول.

وحضور الموت يضيق بعض الأشياء ويوسع أشياء أخرى. تصغر رغبة الانتصار في خصومة لا يترتب عليها حق، ويتراجع الحرص على أن يعرف الناس مقدار نجاحك، ويبدو كثير من القلق على الصورة أقل استحقاقًا للعمر. وفي المقابل تكبر صلاة يؤخرها المرء، ودين لم يوثقه، وقلب كسره، ووالد لا يدري كم بقي له معه، وعلم يستطيع أن ينفع به قبل أن تضعف قدرته.

وقد يقع خطأ مقابل، فيجعل الإنسان ذكر الموت مبررًا لترك مسؤوليته. يقول: ما دامت الدنيا زائلة، فلا معنى لبناء مشروع أو إصلاح بيت أو تعلم طويل. وهذا فهم يناقض غرض الذكر؛ فالموت لا يجعل العمل بلا قيمة، بل يجعل مدته محدودة ومسؤوليته أعظم. الشيء الذي سينتهي قد يكون هو الفرصة التي لا تتكرر لإقامة حق أو نفع.

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35]. وضعت الآية الموت والابتلاء والرجوع في سياق واحد. فما بين الميلاد والموت ليس فراغًا ينتظر النهاية؛ هو ابتلاء بالشر والخير، ثم رجوع إلى من اختبر العبد فيما أعطاه ومنعه.

يذكر الموت كي يحسن العمل في الابتلاء، لا كي ينسحب منه. الغني يتذكره فيؤدي الحق، وصاحب السلطة يتذكره فيعدل، والمظلوم يتذكره فلا يبيع آخرته في الانتقام، والمريض يتذكره فيرجو ويستعد، والصحيح يتذكره فلا يجعل العافية حجة للتأخير. لكل حال عبودية، والموت يقطع وهم أن الحال ستستمر حتى يستوفي الإنسان منها كل ما يريد.

ومن أدق آثار الموت أنه يكشف الفرق بين ما يصاحب الإنسان وما يشيعه ثم يرجع. قال النبي ﷺ: «يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ». رواه البخاري (6514)، ومسلم (2960)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الأهل أحب الناس إلى الإنسان، وقد يدعون له ويحسنون بعده، لكنهم لا يدخلون معه قبره. والمال قد يحمل جنازته، ويقام به شأن ورثته، ثم ينتقل اسمه إلى غيره. أما العمل الذي كان أقل الأشياء ظهورًا في بعض أيامه، فهو الذي يبقى معه. لا يعني هذا أن الأهل والمال خصمان؛ يستطيع كل منهما أن يتحول في حياته إلى عمل يصاحبه.

حب الأهل يصير عملًا حين يرعاهم لله ويعينهم على الخير. والمال يصير عملًا حين يأتي من حلال ويؤدي حقًّا وينفع. والمنصب يصير عملًا حين يقام به العدل. والراحة تصير عملًا حين يستعين بها على حق. ما يرجع في صورته الدنيوية يستطيع أن يبقى بأثر العبودية التي أقيمت فيه.

ومعرفة ذلك تضعف بعض صور التأجيل. ربما يقول الإنسان: سأرد المال إلى صاحبه عندما تتحسن السيولة، وهو يستطيع أن يبدأ أو يصارح أو يوثق. ويقول: سأعتذر حين تهدأ النفوس، مع أن الذي يمنعه كبرياؤه لا الوقت. ويقول: سأثبت هذا العلم بعد أن يكتمل، فيمضي ما كان يستطيع نشره صحيحًا نافعًا خوفًا من ألا يظهر كاملًا.

ولا يطلب الاستعداد أن يحل الإنسان جميع مشكلات حياته في ليلة. قد تكون عليه ديون لا يستطيع سدادها الآن، وعلاقات معقدة لا تلتئم باتصال واحد، وواجبات تراكمت حتى تحتاج إلى خطة. الصدق يبدأ بأن يخرجها من منطقة الإنكار: يحصي الحق، ويثبت الدين، ويطلب العفو، ويبدأ بما يقدر عليه، ولا يجعل عجزه عن الكمال ذريعة لترك الممكن.

وقد صور القرآن ندم الإنسان حين تقع النهاية ويظهر ما كان يستطيع تقديمه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: 10-11].

لا يطلب المحتضر أعوامًا طويلة في الآية؛ يطلب أجلًا قريبًا يفعل فيه ما كان في متناول يده. وهنا تظهر قسوة التسويف: كثير من الأعمال لا يحتاج إلى حياة جديدة، وإنما إلى أن يتوقف الإنسان عن معاملة الحاضر كأنه مقدمة لا قيمة لها، والمستقبل كأنه الوقت الحقيقي للطاعة.

مات زميل لرجل في عمر قريب من عمره بعد مرض لم يطل. خرج الرجل من الجنازة متأثرًا، وكان هاتف الميت ما زال في يد أحد أبنائه، تظهر عليه رسائل العمل والمواعيد التي لن يحضرها. لم تكن في المشهد خطبة؛ كانت حياة توقفت، بينما استمرت القوائم التي كتبها صاحبها كأن الأسبوع القادم جزء من ملكه.

عاد الرجل إلى بيته، وبقي يومين شديد المحاسبة، ثم بدأت حرارة المشهد تنخفض. دخل في الاجتماعات نفسها، وعاد إلى خصومة قديمة، وأجل اتصالًا بأخيه كما فعل مرات. اكتشف أن التأثر بالموت أسهل من إدخاله في نظام الحياة؛ فالمشاعر الصادقة نفسها قد تمر من غير أن تترك قرارًا.

لم يضع برنامجًا مثاليًّا. بدأ بملف جمع فيه ديونه وحقوق الناس وما يحتاج أهله إلى معرفته، واتصل بأخيه من غير أن يحل الخلاف كله، وأعاد صلاة كان يؤخرها تحت ضغط العمل إلى موضع ثابت. ثم تعثر؛ عاد إلى الانشغال، وفاتته أيام، وتضايق من ثقل المراجعة. كان الاستعداد يتكون في خطوات غير كاملة، لا في انقلاب عاطفي.

وبقي في عمله، وأكمل المشروع الذي بين يديه. لم يفهم موت زميله على أنه دعوة إلى ترك الشركة أو انتظار أجله. تغير ما يطلبه من العمل: قل احتياجه إلى أن ينتصر اسمه في كل خلاف، وازداد خوفه من أن يترك وراءه تقريرًا غير أمين أو حقًّا لم يبينه. لم تصغر الأمانة بالموت؛ صغر ما كان يزاحمها من صورة النفس.

وقد يخاف الإنسان الموت، ولا يدل الخوف وحده على ضعف يقينه. النفوس مفطورة على محبة البقاء، والموت انتقال مجهول التفاصيل، والعبد يعرف تقصيره ويخشى الحساب. المطلوب ألا يتحول الخوف إلى

إعراض يمنع الاستعداد، ولا إلى يأس يسيء الظن برحمة الله. يجمع المؤمن بين محاسبة تدفعه، ورجاء يمنعه من القنوط.

والنجاح في ضوء الموت ليس أن يعيش الإنسان أقصر حياة أو أطولها؛ وإنما أن يحسن ما أتيح له. قد يطول عمره فيزداد خيرًا، وقد يقصر ويبارك الله في عمله. وليس لأحد أن يقيس منزلته أو منزلة غيره بعدد السنوات أو مقدار الإنجاز الظاهر. الحكم لله الذي يعلم النيات والقدرات وما خفي من العمل.

استحضر قرارًا كبيرًا اتخذته في العام الأخير: خصومة أطلتها، أو مشروعًا استهلكك، أو شراءً حملك همًّا، أو علاقة أخرت إصلاحها، أو طاعة بقيت تنتظر ظرفًا أفضل. لو كان الموت حاضرًا في حسابك يوم القرار، فهل كنت ستعطي الأمر المقدار نفسه من وقتك وقلقك وعُمرك؟

لا تستخدم السؤال لإدانة كل طموح أو إلغاء كل خطة. ربما ترى أن المشروع يستحق ما بذلت؛ لأنه حق أو نفع أو مسؤولية. وربما يكشف الميزان أنك دفعت من عمرك لصورة لا تبقى، أو أخرت عملًا لا يضمن لك أحد وقتًا له. المطلوب قرار محدد: حق يوثق، أو توبة تبدأ، أو خصومة تُرد إلى حجمها، أو عمل نافع يتقدم من الوعد إلى الفعل.

ذكر الموت يعيد الحياة إلى حقيقتها، لكنه لا يرسم وحده هيئة اليوم الذي يلي هذه المعرفة. فقد يصدق الإنسان أن النهاية قريبة، ثم يتردد بين إفراطين: انشغال كامل بالدنيا، أو انقباض يعطله عن حقوقها. ولهذا تأتي الخطوة التالية: كيف يعيش من عرف أنه راحل، من غير أن يضيع الطريق ولا يقيم قلبه فيه؟

الوحدة الثانية والعشرون: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»

سبق هذا الحديث في الوحدة الثالثة من الكتاب، وكان موضعه هناك تأسيس حقيقة الدنيا: طريق لا وطن نهائي. ويعود هنا بعد أن دخل الموت في مركز الرؤية، لا لإعادة تعريف الدار، وإنما لتحويل المعرفة إلى هيئة عيش: كيف يرتب العابر أيامه، ويحمل أماناته، ويستعد للمغادرة من غير أن يعطل الحياة؟

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ». وكان ابن عمر يقول: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ». رواه البخاري (6416). والزيادة من كلام ابن عمر رضي الله عنهما، وليست من لفظ النبي ﷺ.

الغريب يعيش في مكان ليس موطنه الأصلي، وقد يطول مقامه، لكنه يحتفظ بمعرفة جهة أخرى ينتمي إليها. وعابر السبيل أكثر حركة؛ دخل الطريق قاصدًا وجهة، فلا ينفق عمره في تزيين محطة بحيث ينسى لماذا سافر. والمقصود حال القلب، لا أن يتعامل المؤمن مع الناس ببرودة أو يرى مجتمعه مكانًا لا يعنيه.

قد يبني العابر بيتًا، ويغرس شجرة، ويؤسس علمًا، ويربي ولدًا، لأن عبوديته تقع في الموضع الذي مر به. لا يناقض العبور أن يمتد أثر العمل بعد صاحبه؛ فالمسافر المسؤول قد يصلح الطريق لمن يأتي بعده. الذي لا يفعله أن يربط هويته وأمانه النهائي بمحطة يعلم أنه خارج منها.

وقد يُساء فهم الغربة فتتحول إلى عزلة نفسية. يقول الإنسان: أنا عابر، فلا شأن لي بإصلاح الناس أو حمل هم الأسرة أو إتقان العمل. وهذه غربة عن التكليف لا غربة عن الدنيا. النبي ﷺ الذي قال الحديث هو الذي بنى مجتمعًا، وعلم، وجاهد، وقضى الحقوق، وربى أصحابه على القيام بالأمانات.

العابر لله أكثر التزامًا بالحقوق؛ لأنه لا يرى الأيام ملكًا خاصًّا يتصرف فيها بلا سؤال. يعلم أن الطريق جزء من الامتحان، وأن الناس الذين يلقاهم ليسوا ديكورًا مؤقتًا في رحلته. قد يكون حق الزوجة أو الولد أو العامل أو الجار هو العبادة التي يلقى الله بها من ذلك الموضع.

وفي قصة سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهما قال سلمان: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِى حَقٍّ حَقَّهُ». فذكر أبو الدرداء ذلك للنبي ﷺ، فقال: «صَدَقَ سَلْمَانُ». رواه البخاري (1968).

إعطاء كل ذي حق حقه هو صورة العبور المنضبط. لا يترك الإنسان جسده حتى يعجز عن العبادة، ولا يستهلك نفسه في راحة تنسيه ربه، ولا يتفرغ لعبادة مختارة ويترك أهله في إهمال، ولا يخدم أهله حتى يجعل محبتهم عذرًا لترك أمر الله. الطريق مزدحم بحقوق، والعبد يمر به تحت نظر من كلفه بها.

ولهذا لا يعيش العابر كل يوم كأنه يومه الأخير بمعنى إسقاط المستقبل من الحساب. لو فعل ذلك لتعطلت ديون طويلة، وتعليم أبناء، وعلاج ممتد، ومصالح لا تقوم إلا بالتخطيط. يعيش اليوم على أنه يوم كامل المسؤولية، ويخطط للغد على أنه احتمال مأذون، لا ملك مضمون يؤجل إليه كل واجب.

قول ابن عمر: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح»، يمنعه من ضمان الصباح في قلبه حتى يؤخر إليه التوبة والصلاة والحق الذي يمكن أداؤه. يكتب موعد الغد، ويستعد له، ثم لا يجعل الورقة التي كتبها عهدًا على القدر.

ويقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: 18]. سمى القرآن الآخرة غدًا، مع أن الإنسان قد يرى بينها وبينه أعوامًا. كل ما يفصل اليوم عن الغد سيمر، وستصل النفس إلى ما قدمت.

والتعبير بـ﴿مَا قَدَّمَتۡ﴾ يجعل حياة العابر حركة إرسال مستمرة. بعض الناس يرسل أمامه المال والنفع والصدق، وبعضهم يرسل ظلمًا وخيانة، وبعض الأيام تمر ولا يكاد يرسل صاحبها منها شيئًا. الإنسان آت إلى غده، وما يقدمه اليوم هو الذي سيستقبله هناك.

ولا تكون المحاسبة النافعة في سؤال عام: هل أنا مستعد للموت؟ قد يجيب الإنسان بما يتمنى. الأدق أن ينظر إلى يومه: ما الحق الذي لو انتهى اليوم بقي في ذمته؟ ما العمل الذي لا يزال كله وعدًا؟ ما العلاقة التي تقوم على تأجيل الاعتذار؟ ما الباب الذي يعرف أنه معصية ويعامل التوبة منه كمشروع لاحق؟

الاستعداد لا يعني أن يضمن الإنسان خاتمة حسنة بجهده؛ القلوب بين يدي الله، والعبد مفتقر إلى رحمته. مع ذلك أُمر أن يأخذ بالأسباب: يصدق في التوبة، ويثبت الحقوق، ويدعو بالثبات، ويبتعد عن أسباب الانتكاس، ويكثر من أعمال لا يحتاج استمرارها إلى حرارة استثنائية.

ومن فقه العابر أن يختار أعمالًا قابلة للمداومة. قد يتأثر بالموت فيضع لنفسه أورادًا ومشروعات تفوق طاقته، ثم يسقط أكثرها، ويخرج من التجربة وهو يظن أن الاستعداد مقام لا يقدر عليه. الطريق الطويل يحتاج إلى صدق مستمر، وقد تكون طاعة صغيرة ثابتة أصدق من اندفاع واسع لا يعيش.

والعابر لا يحمل في قلبه من المتاع أكثر مما يحتاج. لا يعني ذلك عددًا محدودًا من الممتلكات، فحاجة الناس تختلف. الخفة أن يستطيع الشيء أن يدخل ويخرج من غير أن يأخذ معه دين صاحبه وطمأنينته. قد يحمل مالًا كثيرًا لأمانة، ويكون أخف قلبًا ممن لا يملك إلا شيئًا واحدًا يخاف عليه خوفًا يستعبده.

كما لا يحمل من الخصومات ما لا يحتاج. بعض العداوات بدأت من كلمة، ثم نمت لأنها صارت جزءًا من هوية أصحابها. كل طرف يبني روايته، ويجمع أنصارًا، وتمر الأعوام وهو يحرس جرحًا ربما أمكن علاجه أو تجاوز ما لا حق فيه. العابر يسأل: هل أريد عدلًا، أم صارت الخصومة وطنًا آخر لقلبي؟

والخفة لا تعني أن يسقط حقه أو يصالح على ظلم متعدٍّ. قد يحتاج إلى محكمة أو موقف واضح أو مسافة تحفظه من أذى. لكنه لا يجعل تحصيل الحق عبادة للنفس تستنفد بقية العمر، ولا يسمح للظالم أن يسكن قلبه أكثر مما سكن الواقعة. يفعل ما يلزمه، ويترك لله ما لا يملكه.

ومن معاني العبور أن يبقى الإنسان قابلًا للانتقال بين أدواره. كان مسؤولًا فصار متقاعدًا، وكان قويًّا فمرض، وكان أبناؤه محتاجين إليه فاستغنوا، وكان معروفًا فخفت ذكره. المقيم بقلبه في الدور يرى تغيره سقوطًا للشخص كله، أما العابر فيعلم أن المحطة تغيرت، وأن العبودية باقية بصورتها الجديدة.

قد تكون عبوديته بعد القوة قبول العون من غير مهانة، وبعد الظهور عملًا خفيًّا، وبعد التعليم تعلمًا، وبعد المال صبرًا على قدر أقل. لا يصر على إبقاء هيئة انتهى وقتها؛ لأنه لم يكن يسير إلى المنصب أو الصحة أو حاجة الناس إليه، بل كان يسير إلى الله من خلالها.

ومع هذا كله لا يقتل معنى العبور الرغبة في العمر. سئل النبي ﷺ: أي الناس خير؟ فقال: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ»، وسئل: فأي الناس شر؟ فقال: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»، «رواه الترمذي (2330)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح»، العمر الطويل ليس تعلقًا مذمومًا إذا كان مجالًا لحسن العمل، كما أن قصر الأمل لا يعني تمني الموت. المؤمن يسأل الله العافية والبركة، ويستعمل كل يوم يزاد له. قيمة الامتداد ليست في الامتداد نفسه، وإنما فيما يصنعه الإنسان به؛ فقد يكون العام الجديد زيادة في النور، وقد يكون زيادة في الغفلة.

والعمل إلى آخر الطريق من أبلغ ما يحفظ التوازن. قال النبي ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا». أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (479)، وأحمد (12981)، من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني.

الفسيلة لن تعطي ثمرها قبل قيام الساعة، ومع ذلك لا يفقد الغرس معناه. قيمة الفعل ليست محصورة في مشاهدة نتيجته؛ يقوم العبد بما بين يديه لأنه خير مأمور به. وهكذا لا يقول من استحضر النهاية: لن أبدأ ما لا أكمله. قد يكون إخلاصه في أن يضع لبنة يعلم أن غيره سيكملها.

وهذا مهم في العلم والتربية والإصلاح. قد يبدأ المعلم طالبًا لا يرى بلوغه، ويربي الوالد خلقًا يحتاج إلى سنوات، ويبني الباحث مشروعًا يتجاوز عمره، ويصلح المسؤول نظامًا سيعمل بعد خروجه. العابر لا يشترط أن يمتلك الثمرة حتى يزرع؛ يكفي أن يكون الغرس حقًّا وأن يقصد به وجه الله.

امرأة أمضت أعوامًا تقول إن حياتها ستستقيم بعد انتهاء مرحلة ضغط معينة. عملها يشتد أشهرًا ثم يهدأ، وأبناؤها سيكبرون، ووالدتها المريضة ستستقر، ثم ستعود إلى وردها، وتصل رحمها، وتتعلم ما تؤجله. كانت كل مرحلة تنتهي وتبدأ أخرى، حتى صار التأجيل هو الشكل الثابت لحياتها.

لم تكن مهملة لكل شيء. كانت تقوم بأعمال كثيرة، وتحمل عن أسرتها أعباء حقيقية، ولهذا بدت لها كل مراجعة ظلمًا لجهدها. لكنها حين نظرت إلى أسبوع عادي وجدت أن ما تدعي أنه في مركز حياتها لا يأخذ إلا ما يتبقى بعد التعب والهاتف والطلبات، بينما تحصل الأعمال العاجلة على أفضل طاقتها دائمًا.

لم تترك وظيفتها، ولم تضع برنامجًا لا يراعي بيتها ووالدتها. أعادت توزيع أشياء صغيرة: وقتًا ثابتًا لوالدتها لا تحضره بجسد منشغل، صلاة لا تدخلها الاجتماعات إلا لضرورة، اتصالًا أسبوعيًّا لرحم انقطع، ونصف ساعة تعلم في أيام محددة. بقيت بعض الأسابيع تنهار تحت الطوارئ، ثم تعود من غير أن تعلن فشل الطريق.

واكتشفت أن العبور لا يطلب حياة خالية من الفوضى؛ يطلب جهة تستطيع العودة إليها. كانت من قبل تنتظر الفراغ كي تبدأ، ثم فهمت أن الفراغ الكامل لن يأتي. أخذت من حياتها الحاضرة لموتها، كما قال ابن عمر، لا بأن تملأ كل دقيقة بعمل، ولكن بأن تمنع أهم ما فيها من البقاء خارج الجدول دائمًا.

ومن استعداد العابر أن يخفف الفوضى التي يتركها. يبين الحقوق، ولا يخفي ما يحتاج أهله إلى معرفته، ويحرص على ألا تكون أمواله ومعاملاته شبكة لا يفهمها أحد بعده. لا يحول هذا إلى وسواس يومي، ولا يعيش كأن الموت سيقع في الساعة القادمة حتمًا؛ يتصرف كمن يعلم أن الرحيل ممكن وأن الأمانة تقتضي وضوحًا.

ويستعد كذلك في العلاقات. لا يستطيع أن يضمن موت الناس وهم راضون عنه، ولا أن يحل كل خلاف. لكنه يفرق بين خلاف قائم على حق، وبين جفاء يطيله الكبر. وقد يعتذر ولا يعود الود كما كان، أو يصل فلا يستجاب له. الذي يملكه أن يلقى الله وقد بذل ما يستطيع، لا أن يملك قلوب الخلق ونتائج المصالحة.

راجع برنامج أسبوعك الأخير كما وقع، لا كما كنت تنوي أن يكون. أين ذهبت الساعات التي ملكت فيها قدرًا من الاختيار؟ ما الذي حصل دائمًا على أول وقتك؟ وما الذي بقي يتلقى الفضلات؟ وهل يظهر في أسبوعك أنك عابر يعرف وجهته، أم مقيم يتصرف كأن الطريق سيظل مفتوحًا حتى يفرغ من كل شيء آخر؟

قد يكشف الأسبوع خللًا، وقد يكشف أنك في مرحلة واجب ثقيل: رعاية مريض، أو طلب رزق، أو تربية طفل، وأن كثيرًا من وقتك عبادة إن صحت النية والأداء. لا تحتقر واجبك بحثًا عن صورة أخرى للاستعداد. اسأل كيف تؤديه لله، وما القدر الذي يجب أن يبقى لقلبك وصلتك بربك حتى لا تتحول الأمانة إلى حجاب.

العابر لا يعيش أقل من غيره؛ يعيش أصدق. يحب أهله لأنه سيفارقهم، فيحسن إليهم ولا يعبد رضاهم. يعمل لأنه سيسأل، فلا يخون ولا يتكاسل. يستريح لأن جسده أمانة، ولا يجعل الراحة غاية. يخطط للغد، ثم يؤدي حق اليوم. وكلما مر يوم أرسل أمامه شيئًا، بدل أن يستهلك الطريق كله في حمل ما سيتركه.

ومع ذلك يبقى السؤال الأخير: ما معنى أن يرسل الإنسان أمامه؟ وكيف تتحول الأشياء التي تنفد بطبيعتها إلى شيء باق عند الله؟ هنا ينتقل الكتاب من معرفة الرحيل وطريقة العابر إلى الميزان الذي يجمع كل ما سبق: ﴿وَٱلۡـَٔاخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾.

الوحدة الثالثة والعشرون: ﴿وَٱلۡـَٔاخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾

سبق قوله تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: 16-17] في الوحدة الثامنة، وكان موضعه كشف إيثار القريب حين تنافس الدنيا الآخرة. وتعود الآيتان هنا في خاتمة الكتاب بوظيفة أوسع: تقرير القيمة النهائية لكل ما مر، وبيان كيف ينتقل الفاني من مجرد متاع منقطع إلى طريق لما يبقى.

ليست الموازنة بين شيء موجود وشيء موهوم. الدنيا موجودة، ولها لذاتها ومنافعها وآلامها، والآخرة حق موعود لا يراه الإنسان الآن. ولهذا يقع الامتحان؛ فالحاضر يضغط على الحس، بينما يحتاج الغيب إلى يقين. ويأتي الوحي ليقرر أن الخير لا يقاس بالقرب وحده، وأن البقاء جزء من حقيقة القيمة.

قد يكون في الدنيا خير حقيقي: زوج صالح، وولد، وصحة، وعلم، ومال، وعمل نافع. وصف الآخرة بأنها خير لا ينفي هذا الخير، وإنما يكشف نقصه وانقطاعه واختلاطه. كل نعيم في الدنيا مهدد بالفقد، ويصاحبه تعب أو خوف، ولا يملك صاحبه أن يبقى له أو يبقى هو له.

أما الآخرة فخير في كمال ما أعد الله لعباده، وأبقى في مدتها التي لا تنقطع. وحين يجتمع كمال الخير ودوامه، يظهر اضطراب ميزان يقدم منفعة عاجلة محدودة على مآل أبقى. ليس العجيب أن يحب الإنسان الدنيا؛ العجيب أن يعرف الفرق، ثم يعطي الفاني حكم الباقي في اختياراته.

ويقول الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: 96]. يدخل في ﴿مَا عِندَكُمۡ﴾ المال والقوة والجمال والوقت والقبول وكل ما تستطيعه اليد. لا يلزم أن يزول اليوم؛ يكفي أنه يحمل في طبيعته النفاد.

وقد ينفد الشيء وهو باق في الظاهر. ينفد أثر منصب حين لا يعود صاحبه قادرًا على القرار، وتنتهي لذة مقتنى حين يعتاده، ويذهب عمر أنفق في بناء صورة مع أن الصورة ما زالت معروضة. النفاد لا يبدأ لحظة الفقد المادي وحدها؛ يبدأ من عجز الموجود عن منح القلب ما وعده به.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ ينقل الأمان إلى موضعه. ما يقدمه العبد لا يضيع عند الله، ولو نسيه الناس ولم يظهر أثره في الدنيا. قد يخفي صدقة فلا يعرفها أحد، أو يؤدي أمانة لا يُمدح عليها، أو يصبر على ترك حرام فيخسر الفرصة؛ كل ذلك في علم الله، والبقاء الحقيقي متصل بحفظه وجزائه.

ولا يعني تحويل الفاني إلى باق أن المادة نفسها تنتقل إلى الآخرة. المال يفنى أو يورث، لكن أثر الإنفاق يبقى. والوقت يمضي، لكن العمل الذي وقع فيه يبقى. والقوة تضعف، لكن العدل والنفع اللذين أقيمَا بها يبقيان. والبيت يتركه أهله، لكن ضيافة وصلة وعبادة وقعت فيه قد تسبقهم إلى الله.

بهذا لا تصبح الدنيا منافسًا للآخرة في كل حال. تنافسها حين تُطلب غاية مستقلة، أو حين يُعصى الله لحفظها. أما إذا استُعملت في طاعته صارت مادة للسير إليه. الطعام الذي يُشكر عليه، والعمل الذي تؤدى فيه الأمانة، والمال الذي ينفق، والأهل الذين يُرعون؛ كلها من الدنيا، ويستطيع كل واحد منها أن يدخل في زاد الآخرة.

وقد لخص القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [القصص: 60]. لم ينف أن ما أوتي الناس متاع وزينة؛ سماه باسمه، ثم وضع إلى جواره ما هو خير وأبقى، ودعا العقل إلى إجراء الموازنة.

العقل هنا لا يعني أن يزدري الإنسان كل متاع، وإنما أن يمنع المحدود من ابتلاع غير المحدود. يأخذ الشيء ويعرف وصفه: هذا متاع، لا مصير؛ زينة، لا كرامة نهائية؛ أداة، لا إله؛ فرصة، لا ضمان. ومتى استقرت الأسماء الصحيحة، صار الانتفاع أهدأ والترك أيسر.

وقد بين النبي ﷺ تفاوت المقدارين بقوله: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». رواه البخاري (3250)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

موضع صغير في الجنة خير من مجموع ما في الدنيا، لا لأن كل ما في الدنيا شر، ولكن لأن المقارنة بين ناقص منقطع وكامل باق. ومن آمن بهذا لا يلزم أن يترك بيته أو ماله؛ يلزمه ألا يبيع موضعًا في الجنة ليحفظ شيئًا يعلم أن الدنيا كلها لا تعدله.

وقد تنقلب التقديرات التي عاش عليها الناس انقلابًا كاملًا عند ظهور المآل. قال النبي ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ». رواه مسلم (2807)، من حديث أنس رضي الله عنه.

لا ينكر الحديث أن الرجل نعم أو أن الآخر تألم؛ فقد وصف الأول بأنه أنعم أهل الدنيا، والثاني بأنه أشدهم بؤسًا. يكشف أن المآل الأبدي يعيد وزن التجربة كلها. نعيم العمر لا ينقذ من عاقبة فاسدة، وبؤس العمر لا يبقى في وعي من دخل نعيمًا لا ينقطع.

وهذا يمنع قراءتين خاطئتين للدنيا. يمنع صاحب السعة من أن يظن أن الراحة الحالية تغنيه عن سؤال المصير، ويمنع صاحب البلاء من أن يظن أن شدة الطريق هي حقيقة وجوده الأخيرة. كلاهما يمضي إلى ما يبقى، والفارق الأعظم ليس مقدار الراحة التي نالها هنا، وإنما الجهة التي انتهى إليها.

ولا يطلب الإيمان من المتألم أن يتصرف كأن ألمه غير موجود. المرض يوجع، والفقر يضغط، والفقد يكسر، والظلم يحتاج إلى دفع. الوعد بالآخرة لا يستعمل لإسكات المظلوم أو تبرير تقصير القادر. يعطي الألم حدًّا زمنيًّا، ويفتح للعدل بابًا لا يغلقه موت الظالم ولا عجز المظلوم عن استيفاء حقه في الدنيا.

كما لا يجعل المؤمن كل نجاح دنيوي قليل الشأن. ربما أقام بمشروعه حياة أسر، أو علم أجيالًا، أو عالج مرضى. قيمة النجاح تتضاعف إذا اتصل بالله ونفع خلقه؛ لأنه يتحول من نتيجة تنتهي بموت صاحبها إلى عمل يرجو ثوابه. تصغير الدنيا لا يعني تصغير الأمانة الواقعة فيها.

وقد مر في الوحدة التاسعة عشرة حديث انقطاع عمل الإنسان إلا من ثلاث، وكان موضعه هناك الأثر الذي يمكن للمال والنفع أن يخدماه. والمعنى الأوسع هنا أن الإنسان لا يستطيع الاحتفاظ بالدنيا، لكنه يستطيع أثناء حياته أن يفتح فيها طرقًا يبقى ثوابها بإذن الله: علمًا ينتفع به، أو صدقة جارية، أو ولدًا صالحًا يدعو له.

ومع ذلك لا ينحصر الباقي في الأعمال التي يراها الناس ممتدة. قد يبقى عند الله موقف صدق لم ينتج مؤسسة، ودمعة خشية لم يعلم بها أحد، وصبر على شهوة، وكلمة عدل خسر بها صاحبها مكانة. البقاء ليس الشهرة بعد الموت، ولا كثرة من يذكرون الاسم؛ قد ينسى أهل الأرض عملًا ويكون عند الله عظيمًا.

وقد يخلط الإنسان بين الأثر الباقي وتخليد الذات. يبني مشروعًا نافعًا، ثم يريد أن يظل اسمه حاضرًا في كل تفصيل، ويضيق إذا استمر الخير بعده بغير صورته. ما دام يريد بقاء نفسه في ذاكرة الناس أكثر من بقاء النفع، فقد دخل حب الدنيا من باب يبدو أخرويًا.

الإخلاص يقبل أن يبقى الخير ويغيب الاسم. وقد تكون التسمية مطلوبة لحفظ حق أو تشجيع أو تاريخ، فلا تزول المشروعية بمجرد ظهور صاحب العمل. السؤال أعمق: لو استمر النفع ونسيك الناس، هل يرضيك أن الله يعلمه؟ ولو بقي الاسم وضعف النفع، فهل تعد ذلك نجاحًا؟

ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: 40]. وراثة الله ليست انتقال ملك بعد عدم؛ فالأرض ومن عليها ملكه في البدء والنهاية. يظهر عند انقطاع الخلق عن أموالهم وسلطانهم أن الملك الذي مارسوه كان مؤقتًا، وأن المالك الباقي لم يزل واحدًا.

كل وثيقة ملك تحمل أجلًا خفيًا. قد ينتقل البيت بالبيع، أو بالميراث، أو يبقى قائمًا بعد من بناه. وكل منصب ينتهي بتغيير أو عجز أو وفاة. لا يطلب ذلك من الإنسان أن يعامل ملكه باستخفاف؛ يحسن إدارته لأنه أمانة مؤقتة، ويستعد لليوم الذي لا يبقى له فيه من الملك إلا ما فعله أثناء ولايته.

وعند الحساب لا تسأل الكليات وحدها. يقول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: 7-8]. الذرة التي لا ترفع اسمًا ولا تغير ميزانية قد تبقى: لطف بضعيف، أو نظرة كف عنها، أو مال قليل خرج بصدق، أو أذى ظنه صاحبه عابرًا.

وهذا يعيد الاعتبار إلى الحياة اليومية بعد أن تحدث الكتاب عن القرارات الكبرى. ليست الآخرة مشروعًا منفصلًا يؤجل حتى يفرغ الإنسان من دنياه. تتكون في المعاملة الصغيرة، وصدق الكلمة، وطريقة الكسب، والوقت الذي أعطاه لأهله، والعدل حين قدر، والتوبة بعد الزلة. كل يوم من الدنيا يكتب جزءًا من صورته الباقية.

وقال النبي ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ فِيهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ». «رواه الترمذي (2417)، من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح»، يجمع الحديث أبواب الكتاب: العمر، والعلم، والمال، والجسد. لا يسأل عن المال في جهة واحدة؛ يسأل عن المدخل والمخرج. ولا يسأل عن العلم بوصفه معلومات جمعت، بل عما فعل صاحبه به. والجسد الذي يحرص الإنسان على راحته وصورته سيُسأل فيم أبلاه. لقد كانت الدنيا كلها مادة سؤال، لأنها كانت مادة قدرة واختيار.

وتظهر قيمة النية والعمل معًا. قد يحرم الإنسان من نتيجة أرادها، وقد لا يبلغ مشروعه النافع، ويكون له من صدق القصد وبذل السبب ما يعلمه الله. وقد تتحقق نتيجة واسعة بقصد فاسد وطريق ظالم، فلا يغني اتساع الأثر الظاهر عن فساد العمل. ما يبقى ليس الصورة وحدها؛ يبقى ما علمه الله من القلب والطريق.

بعد وفاة امرأة كبيرة، اجتمع أبناؤها لترتيب ما تركته. حصروا مالًا قليلًا، وبعض الحلي، وأثاث بيت عاشوا فيه أعوامًا. انتقلت الأشياء في أيام إلى أسماء جديدة؛ أخذ كل واحد نصيبه، وخرجت الملابس التي لم يحتاجوها، وبقي البيت ينتظر قرارهم. كان انتقال الملك أسرع مما توهموا وهم يرون أمهم تدير تلك الأشياء.

لم تكن أمهم شخصية مثالية. كانت لها حدة يعرفونها، وتأخرت في إصلاح بعض علاقاتها، ولم تترك مشروعًا كبيرًا يحمل اسمها. وجدوا مع ذلك سجلات واضحة لما عليها ولها، ولم يظهر حق أخفته. وبدأت تصلهم رسائل من نساء علمتهن القراءة في مجلس صغير، ومن أقارب كانت ترسل إليهم مالًا لم يعرف الأبناء مقداره.

لا يستطيع الأبناء أن يقطعوا لها بمنزلة عند الله؛ ذلك إلى الله وحده. لكن المشهد كشف لهم الفرق بين ما انتقل إليهم وما سبقها. الحلي صار ميراثًا، والبيت صار مسألة قانونية، والمال توزع. أما التعليم والصدقة وصلة الرحم فكانت أعمالًا يرجون أن تكون قد بقيت لها عند رب لا يضيع العمل.

وشعر أحد الأبناء بألم آخر. كان قد أطال خلافًا معها في آخر عامين، ولم يمنعه من الزيارة، لكنه جعل اللقاءات باردة. اكتشف بعد موتها أن صحة موقفه في بعض التفاصيل لا تمحو ما كان يستطيع تقديمه من لين. لم يعد يستطيع إصلاح العلاقة معها، لكنه استطاع أن يمنع الندم من أن يبقى شعورًا؛ أصلح علاقته بأخته، وقضى حقًّا كانت أمه توصي به، وأكثر من الدعاء لها.

ثم راجع ما بين يديه هو. لم يبع كل شيء، ولم يحول الحزن إلى قرارات متعجلة. سأل: كيف يجعل بيته باب صلة، وخبرته باب تعليم، وماله باب حق ونفع، ووجوده مع أبنائه تربية لا مجرد نفقة؟ لم يعد الباقي عنده فكرة عن صدقة بعد الموت؛ صار طريقة لاستعمال الحاضر قبل أن ينتقل إلى غيره.

هذه هي الحركة التي يريدها الكتاب من الفاني إلى الباقي. لا يطلب من القارئ أن يحتقر ماله؛ يطلب أن يرسله أمامه بالحق. ولا أن يترك عمله؛ يطلب أن يملأه بالأمانة. ولا أن يضعف حبه لأهله؛ يطلب أن يحبهم لله، فيرعاهم ولا يعصي الله من أجلهم. ولا أن يهدم طموحه؛ يطلب أن يضعه داخل غاية أكبر منه.

القوة تتحول إلى باق حين تحمي ضعيفًا وتقيم عدلًا. والجمال يتحول حين يُشكر ولا يصنع كبرًا. والراحة تتحول حين تعين على طاعة وحق. والألم نفسه قد يتحول بالصبر والافتقار إلى قرب لا تصنعه السعة. لا يوجد في حياة المؤمن جزء محكوم عليه أن يكون دنيا مذمومة؛ الذم يتعلق بما يصد ويغري ويستعبد.

والدنيا، بهذا المعنى، ليست قليلة لأنها عديمة القيمة. هي عظيمة الخطر؛ لأنها المرة الوحيدة التي يستطيع فيها الإنسان أن يؤمن ويعمل ويتوب ويختار. بعد الموت لا يزداد في صحيفة عمله إلا ما أبقى الله أثره من حياته. قصرها يجعل الساعة أثمن، لا أرخص؛ ويجعل القرار أعمق، لا أقل شأنًا.

والمؤمن لا يطلب الآخرة خوفًا وحده. وراء النجاة من النار جنة وعد الله بها عباده، وما فيها فوق ما تتصوره النفوس. يقول سبحانه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17]. أخفى الله من النعيم ما لا تحيط به خبرة الدنيا ولا لغتها.

ومع نعيم الجنة غاية أعلى من كل ما وصف: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72]. لا ينتهي سير المؤمن إلى أشياء أجمل فحسب؛ ينتهي إلى رضوان ربه. ومن عرف الغاية لم يعد الزهد عنده فراغًا، ولا ترك الدنيا خسارة صامتة؛ كان يترك الأدنى طلبًا لقرب أعظم.

راجع الآن أربعة أشياء بين يديك: وقتًا يمضي، ومالًا تملكه، وعلاقة تؤثر في قلبك، وقدرة تستطيع بها فعل شيء. ما الجزء الذي يُستهلك منها وينتهي عندك؟ وما الذي يمكن أن يتحول هذا الأسبوع إلى حق أو شكر أو نفع أو توبة أو علم أو صلة تجدها عند الله؟

لا تنتظر مشروعًا جامعًا يصلح كل حياتك. ربما يبدأ التحويل من مال يرد، أو ساعة تحفظ، أو عمل يؤدى بأمانة، أو باب حرام يغلق، أو علم ينشر، أو كلمة اعتذار، أو عبادة خفية. قيمة البداية أنها وقعت قبل أن يصير كل ما تتمناه رجاء عودة لا تملكها.

مر الكتاب بحقيقة الدنيا وزينتها وفتنتها، وبالأهل والولد والتكاثر، ثم رأى كيف تنافس العاجلة الآخرة، وكيف يعمل الرزق والمال في القلب. ووقف مع قارون وصاحب الجنتين وأصحاب الجنة وسليمان وذي القرنين، ثم بنى صورة المؤمن الذي ينتفع ويعمل ويغنى قلبه وينفع الخلق ويختار الله عند التعارض.

ولا يجمع هذه المعاني سؤال: هل تملك الدنيا أم لا؟ قد يملكها صالح وفاسد، وقد يفقدها كلاهما. السؤال: أين استقرت منك؟ ماذا فعلت بقلبك؟ وماذا فعلت أنت بها؟ هل صارت مصدر قيمتك وأمانك، أم بقيت رزقًا وأمانة؟ وهل استطعت أن تجعل الشيء الذي سيفارقك شاهدًا لك حين تفارقه؟

عند النهاية لا تصغر الدنيا لأنها بلا معنى. يظهر معناها الصحيح: فرصة قصيرة لا تعود، وطريق لا يبقى، وعمر ينقص مع كل يوم، ومادة يستطيع العبد أن يحولها بالطاعة إلى ما يبقى. ومن فهمها لم يهرب منها، ولم يسكن إليها؛ عمل فيها، وأخذ من طيباتها، وأدى حقوقها، ثم عبرها إلى الله.

فالدنيا لا تُعبد، ولا تُهجر؛ وإنما تُعبر إلى رضوان الله.

الملحق الأول: المحكّات التشخيصية الثلاثة والعشرون

هذه محكّات الكتاب مجموعةً بترتيب وحداتها. وهي ليست أسئلةً للقراءة، وإنما مواضعُ وقوفٍ على واقعةٍ حدثت بالفعل؛ فالمحكّ لا يُجاب عنه بالتصور، ويُجاب عنه بالرجوع إلى قرارٍ اتُّخذ وأثرٍ ظهر.

والأنفع أن يؤخذ محكٌّ واحد في المرة، وأن يُكتب جوابه لا يُكتفى باستحضاره، وأن يُختم بخطوةٍ واحدة محددة. وتصلح القائمة لمراجعةٍ دوريةٍ بعد ختم الكتاب، فتُقرأ في جلسةٍ واحدة كل حين.

المحور الأول: حقيقة الحياة الدنيا

الوحدة 1 — ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾

استحضر أمرًا كنت تتطلع إليه قبل نحو عشر سنوات، وشعرت يومها أن بلوغه سيمنح حياتك استقرارًا واسعًا: علاقة، أو شهادة، أو انتقالًا، أو قدرة، أو مشروعًا. فإن حصلت عليه، فانظر إلى المسافة بين الوعد الذي حمله خيالك وما أعطاك إياه فعلًا. وإن لم يحصل، فانظر هل بقي في قلبك بالحجم نفسه الذي كان يشغله يومئذ.

الوحدة 2 — ﴿وَالْعَصْرِ﴾ — العمر الذي ينفد

راجع أسبوعًا عاديًّا انتهى بالفعل. ضع جانبًا الساعات التي فُرضت عليك فيها واجبات لا تملك تركها، وانظر إلى المساحات التي كان لك فيها قدر حقيقي من الاختيار. أين ذهبت؟ وما الذي أخذ النصيب الأكبر منها؟ وهل يظهر في توزيعها أثرٌ للأشياء التي تقول إنها الأهم في دينك وحياتك؟

الوحدة 3 — «ما لي وللدنيا؟» — طريق لا وطن

استحضر دورًا أو صورة تعرف بها نفسك اليوم: الشخص القوي الذي يعتمد عليه الجميع، أو صاحب الخبرة الذي يُرجع إليه، أو الوجه المقبول، أو صاحب المشروع الذي التصق اسمه به. ثم اسأل: لو نُزعت مني هذه الصورة غدًا، هل أشعر أن منفعة قد فاتت ودورًا قد تغيّر، أم أشعر أنني فقدتُ تعريفي لنفسي؟

المحور الثاني: زينة الدنيا وفتنتها

الوحدة 4 — ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾

اختر أمرًا دنيويًّا صار حصولك عليه في ذهنك شرطًا لتكون سعيدًا أو مقبولًا أو مطمئنًّا. ثم ارجع إلى قرار حقيقي اتخذته تحت ضغطه: وقتٍ منحته، أو واجبٍ أخّرته، أو حدٍّ قاربت تجاوزه، أو علاقةٍ تغيّرت. ماذا يكشف ذلك القرار عن منزلة هذا الأمر في قلبك؟

الوحدة 5 — الأهل والولد — زينة وفتنة

استحضر قرارًا اتخذته خلال العام الماضي بسبب زوج أو ولد، وكان فيه حقٌّ شرعي أو خُلقٌ واجب مهدَّدًا. ماذا اخترت؟ وما الخوف الذي حكمك؟ وهل سمّيت خوفك مسؤولية، حتى لا تضطر إلى مواجهته؟

الوحدة 6 — ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ — لماذا لا تقول النفس: كفى؟

اختر شيئًا كنت تراه قبل خمس أو عشر سنوات كافيًا ليمنحك قدرًا مهمًّا من الراحة أو الاعتبار، ثم حصلت عليه وأصبح عاديًّا. ماذا طلبت بعده؟ وهل كانت الزيادة التالية استجابةً لحاجة واضحة، أم تحرَّك خطُّ الكفاية بسبب الاعتياد والمقارنة؟

راجع الثمن أيضًا: ما الوقت الذي أخذته الزيادة الجديدة؟ وما الأثر الذي تركته في عبادتك وهدوئك وعلاقاتك؟

الوحدة 7 — «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها»

اختر نعمة زادت في حياتك خلال العام الأخير: قدرة، أو صحة، أو علمًا، أو علاقة، أو حضورًا بين الناس، أو مساحة أوسع من الاختيار. ثم راجع أول القرارات التي اتخذتها بعد اتساعها: ماذا زاد في طاعتك ونفعك؟ وماذا زاد في استهلاكك وقلقك؟

المحور الثالث: حين تنافس الدنيا الآخرة

الوحدة 8 — ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

استحضر واقعة حقيقية تعارضت فيها مصلحة عاجلة مع حقٍّ شرعي أو خُلقٍ واجب. ما الخسارة التي خفتها؟ وكيف كَبُرت في خيالك؟ وما العبارة التي جعلت بها التنازل مقبولًا، أو ما المعنى الذي ثبَّتك على الحق؟ ثم انظر إلى ما بقي في قلبك بعد القرار؛ فذلك الباقي يكشف ميزانك أصدقَ من الصورة التي تحبها عن نفسك.

الوحدة 9 — «ما الفقر أخشى عليكم» — خطر الوفرة والتنافس

استحضر منافسة حقيقية دخلتها خلال العام الأخير: في عمل، أو مشروع، أو علم، أو حضور اجتماعي. متى تحوَّل اهتمامك من جودة ما تؤديه إلى موقعك من شخص بعينه؟ وما أولُ خُلقٍ أو حقٍّ تأثَّر: إنصافك، أم صدقك، أم قدرتك على الفرح، أم أداء حقٍّ لغيرك؟ ابحث عن أثرٍ سلوكي، ثم حدِّد خطوة تعيد الغاية إلى موضعها من غير انسحاب من الميدان ولا تزكية للنفس.

المحور الرابع: المال والرزق

الوحدة 10 — الرزق بيد الله

استحضر تغيرًا حقيقيًّا وقع في دخلك أو وظيفتك: زيادةً فتحت لك بابًا، أو نقصًا أوجعك، أو عملًا فقدته، أو فرصة انتظرتها. عُد إلى اللحظة الأولى قبل أن ترتب كلامك: ماذا قال قلبك عن نفسك، وماذا ظنَّ بربه؟ وأيُّ سببٍ تضخَّم أمامك حتى كاد يحجب الرازق الذي خلق السبب ومالكَ النتيجة؟

الوحدة 11 — «نِعْمَ المالُ الصالحُ للمرء الصالح»

راجع مالًا مهمًّا دخل يدك في العام الأخير: راتبًا، أو ربحًا، أو هدية، أو ميراثًا. لا تبدأ بالسؤال عن مقداره. ارجع إلى بابه: هل جاء من طريق واضح؟ ثم انظر إلى أثره: ماذا صنع في قلبك؟ وبعد ذلك فتِّش عن الحق: ما الذي أدَّيته به، وما الذي ما زال متعلِّقًا فيه أو تأخَّر بسببه؟

الوحدة 12 — ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ — السعي الذي لا يستعبد

راجع واقعة واحدة من أسبوع عملك. قد تكون مهمة بذلت فيها السبب كاملًا، ثم ظل قلبك مشدودًا إلى النتيجة كأنها الحكم على قيمتك؛ أو أمرًا تركتَ سببه المقدور، ثم غطَّيت الترك بكلمة التوكل. لا تجمع قائمة طويلة. قف عند الواقعة، وحدِّد أين انتهى واجبك، وأين بدأ ادعاء السيطرة أو العجز.

المحور الخامس: وجوه الدنيا في قصص القرآن

الوحدة 13 — قارون — حين ينسب الإنسان النعمة إلى نفسه

استحضر نجاحًا حقيقيًّا وقع لك: ترقيةً، أو مشروعًا نجح، أو شهادة حصلت عليها، أو أزمة خرجت منها بقرار حسن. أعد رواية الواقعة كما رويتها لنفسك ولغيرك. ما المساحة التي أخذها جهدك، وما النِّعم والأشخاص والظروف التي غابت؟ وهل بقي حقٌّ لأحد داخل قصة صنعت منها لنفسك بطولة كاملة؟

الوحدة 14 — صاحب الجنتين — وهم البقاء

راجع خطة مالية أو مهنية طويلة بنيتها: مشروعًا، أو شراء بيت، أو مسارًا وظيفيًّا، أو ادخارًا للتقاعد. ما الافتراضات التي قامت عليها؟ هل تعاملت مع الصحة والدخل واستقرار البلد وبقاء الأشخاص كأنها ضمانات، أم كأسبابٍ تُرجِّح ولا تملك؟ وأيُّ واجبٍ أو معنًى تؤجله إلى يوم تتخيَّل أن الأمان سيكتمل فيه؟

الوحدة 15 — أصحاب الجنة — حين ينسى المالك حق الآخرين

استحضر قرارًا ماليًّا اتخذته لحماية مالك أو هامش ربحك: أجرةَ عامل، أو حصةَ شريك، أو سدادَ دائن، أو مساعدةَ محتاجٍ أضعفَ منك. لا تسأل أولًا: هل كان القرار قانونيًّا؟ اسأل: هل كان الحق واضحًا؟ من حمل الخطر؟ هل استعملتَ قوتك لفرض ما لا ترضاه لو كنت في موضعه؟ وأيُّ صوتٍ خافتٍ أُسكت كي تمضي الخطة؟

الوحدة 16 — سليمان وذو القرنين — القوة التي لم تملك أصحابها

راجع آخر قرار اتخذته من موضع قدرة: في بيتك، أو عملك، أو تجارتك، أو مؤسسة تديرها. هل سمعتَ من سيتحمل أثره، خاصةً من لا يستطيع الاعتراض؟ هل وزَّعت الفضل بعد النجاح، أم اجتمع في اسمك؟ وهل استعملت الموارد لخدمة الأمانة، أم استعملت الأمانة لتثبيت صورتك ونفوذك؟

المحور السادس: كيف يعيش المؤمن في الدنيا؟

الوحدة 17 — الزهد الذي لا يعطل الحياة

استحضر أمرين حقيقيين من حياتك. ما المباح الذي تركته، أو ينبغي أن تتركه، لأن قلبك أو واجبك لا يسلم معه؟ وما المسؤولية التي بقيت فيها، أو ينبغي أن تبقى، مع أنك تتمنى الراحة؛ لأن تركها يضيع حقًّا؟ لا تبحث عن إجابة جميلة، وسمِّ الكلفة التي يخفيها كل اختيار.

الوحدة 18 — «ولكن الغنى غنى النفس»

استحضر آخر زيادة مهمة دخلت حياتك: راتبًا، أو ربحًا، أو ميراثًا. كم بقي شعور الاتساع قبل أن ينتقل تعريف الكفاية إلى مستوى أعلى؟ وما الشيء الذي كان تحسينًا ثم صار في نفسك ضرورة؟ ولو ثبت دخلك سنوات، فما الذي يمنعك من شكر اليوم والعمل للغد في وقت واحد؟

ثم انظر إلى النفقات التي تحمي صورتك أكثر مما تخدم حياتك. أيُّها سيبقى لو غابت أعين الناس؟

الوحدة 19 — من المال إلى النفع

راجع مالًا حقيقيًّا دخل يدك في الأشهر الثلاثة الماضية: راتبًا، أو ربحًا، أو مكافأة، أو ميراثًا. كم منه بقي داخل دائرتك الخاصة؟ وكم أدَّى حقًّا قائمًا؟ وكم تحوَّل إلى نفعٍ يتجاوزك؟ لا تبدأ بنسبة مثالية، ولا تقارن نفسك بمن هو أوسع منك. سمِّ مبلغًا أو قرارًا واحدًا يمكن أن ينتقل من الحفظ والاستهلاك إلى وظيفة أنفع.

الوحدة 20 — إذا تعارضت الدنيا مع الله

استحضر خسارة دنيوية قبلتها فعلًا من أجل طاعة الله: مالًا، أو علاقة، أو مكانة، أو فرصة. هل تحققتَ من الحكم، وعرضتَ الواقعة كما هي، واستفرغتَ البدائل المباحة، ثم اخترت؟ وكيف عشت بعد القرار: هل بقي في قلبك مَنٌّ على الله أو الناس، أو ندمٌ مشروط بأن ترى تعويضًا بعينه؟

وإن لم تجد واقعة واضحة بعد اتساع اختياراتك، فلا تسارع إلى تزكية نفسك بأن التعارض لم يقع. ربما كنت موفَّقًا إلى الحلال، وربما وجدتَ في كل مرة تأويلًا يحفظ الدنيا. راجع مواضع الصمت الصغير، والتوقيع الذي لم تقرأه، والعلاقة التي قدَّمتَ رضاها، والفرصة التي غيَّرتَ لأجلها اسم الحكم.

المحور السابع: الموت والآخرة

الوحدة 21 — ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾

استحضر قرارًا كبيرًا اتخذته في العام الأخير: خصومةً أطلتها، أو مشروعًا استهلكك، أو شراءً حمَّلك همًّا، أو علاقة أخَّرت إصلاحها، أو طاعة بقيت تنتظر ظرفًا أفضل. لو كان الموت حاضرًا في حسابك يوم القرار، فهل كنت ستعطي الأمرَ المقدارَ نفسه من وقتك وقلقك وعُمرك؟

الوحدة 22 — «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»

راجع برنامج أسبوعك الأخير كما وقع، لا كما كنت تنوي أن يكون. أين ذهبت الساعات التي ملكتَ فيها قدرًا من الاختيار؟ ما الذي حصل دائمًا على أول وقتك؟ وما الذي بقي يتلقى الفَضَلات؟ وهل يظهر في أسبوعك أنك عابرٌ يعرف وجهته، أم مقيمٌ يتصرف كأن الطريق سيظل مفتوحًا حتى يفرغ من كل شيء آخر؟

الوحدة 23 — ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾

راجع الآن أربعة أشياء بين يديك: وقتًا يمضي، ومالًا تملكه، وعلاقة تؤثر في قلبك، وقدرة تستطيع بها فعل شيء. ما الجزء الذي يُستهلك منها وينتهي عندك؟ وما الذي يمكن أن يتحول هذا الأسبوع إلى حقٍّ أو شكرٍ أو نفعٍ أو توبةٍ أو علمٍ أو صلةٍ تجدها عند الله؟

الملحق الثاني: خريطة الكتاب — كل وحدة بسؤالها المركزي

ثلاث وعشرون وحدةً في سبعة محاور. لكل محورٍ سؤالٌ يحكمه، ولكل وحدةٍ سؤالٌ تنفرد بالجواب عنه؛ فما أجابت عنه وحدةٌ لا تعيده أخرى.

المحور الأول: حقيقة الحياة الدنيا

السؤال الحاكم: ما هذه الدار التي نعيش فيها؟

م	الوحدة	السؤال المركزي
1	﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾	ما حقيقة الدنيا كما عرَّفها الله، ولماذا سُمِّيت متاعَ الغرور؟
2	﴿وَالْعَصْرِ﴾ — العمر الذي ينفد	ما الذي ينقص من الإنسان كل يوم وهو لا يُحِسُّه؟
3	«ما لي وللدنيا؟» — طريق لا وطن	ما موضع المؤمن من هذه الدار: مقيمٌ أم عابر؟

المحور الثاني: زينة الدنيا وفتنتها

السؤال الحاكم: لماذا يحب الإنسان ما سيتركه؟

م	الوحدة	السؤال المركزي
4	﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾	لماذا جعل الله في النفس ميلًا إلى ما يفنى، ومتى ينقلب الميل تعلُّقًا؟
5	الأهل والولد — زينة وفتنة	كيف يكون أحبُّ الناس إليك بابَ أجرٍ لا بابَ فتنة؟
6	﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ — لماذا لا تقول النفس: كفى؟	ما الذي يجعل خطَّ الكفاية يتحرك كلما بلغه صاحبه؟
7	«إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها»	إذا كانت الدنيا مستودَعًا لا مِلكًا، فكيف يتصرف المستخلَف فيها؟

المحور الثالث: حين تنافس الدنيا الآخرة

السؤال الحاكم: لماذا يُقدَّم العاجل على الآجل؟

م	الوحدة	السؤال المركزي
8	﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾	لماذا يُقدِّم الإنسان العاجل وهو يعلم أن الآجل خير؟
9	«ما الفقر أخشى عليكم» — خطر الوفرة والتنافس	كيف تُفسد الوفرةُ والتنافسُ ما لم يُفسده الفقر؟

المحور الرابع: المال والرزق

السؤال الحاكم: كيف تملك المال دون أن يملكك؟

م	الوحدة	السؤال المركزي
10	الرزق بيد الله	إذا كان الرزق مقسومًا، فما موضع السعي؟ وماذا يخبرك دخلُك عن منزلتك؟
11	«نِعْمَ المالُ الصالحُ للمرء الصالح»	متى يكون المال نعمةً، ومتى ينقلب على صاحبه؟
12	﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ — السعي الذي لا يستعبد	أين ينتهي واجب السعي، وأين يبدأ ادعاء السيطرة أو العجز؟

المحور الخامس: وجوه الدنيا في قصص القرآن

السؤال الحاكم: من مَلَكَتْهم الدنيا، ومن مَلَكوها فلم تملكهم؟

م	الوحدة	السؤال المركزي
13	قارون — حين ينسب الإنسان النعمة إلى نفسه	ماذا يحدث للنعمة حين تنسبها النفس إلى ذاتها؟

م	الوحدة	السؤال المركزي
14	صاحب الجنتين — وهم البقاء	كيف يتحول انتظام الأسباب إلى وهم بقاء؟
15	أصحاب الجنة — حين ينسى المالك حق الآخرين	ماذا يفعل المُلك بالأخلاق حين يقف الضعيف على الباب؟
16	سليمان وذو القرنين — القوة التي لم تملك أصحابها	كيف تكون القوة عبوديةً لا سيادة؟

المحور السادس: كيف يعيش المؤمن في الدنيا؟

السؤال الحاكم: كيف يكون زاهدَ القلب قويَّ العمل؟

م	الوحدة	السؤال المركزي
17	الزهد الذي لا يعطل الحياة	ما الزهد الذي لا يُعطِّل حقًّا ولا يُحرِّم طيبًا؟
18	«ولكن الغنى غنى النفس»	لماذا لا يجلب اتساعُ اليد شعورَ الغنى؟
19	من المال إلى النفع	كيف ينتقل المال من دائرة المالك إلى دائرة الأثر؟
20	إذا تعارضت الدنيا مع الله	ماذا تفعل حين لا يمكن الجمع بين رضا الله ومصلحةٍ تحبها؟

المحور السابع: الموت والآخرة

السؤال الحاكم: كيف تبدو الدنيا إذا نُظر إليها من نهايتها؟

م	الوحدة	السؤال المركزي
21	﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾	لماذا نعرف الموت ولا نعيش على أساسه؟

م	الوحدة	السؤال المركزي
22	«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»	كيف يرتِّب العابر أيامه من غير أن يُعطِّل الحياة؟
23	﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾	كيف يتحول ما ينفَد إلى ما يبقى؟

فالدنيا لا تُعبد، ولا تُهجر؛ وإنما تُعبر إلى رضوان الله.